الأثر الذهبى

للمرحوم عطية بك وهبى

يشمل تاريخه ومباحثه من مقالات وخطب

لجامعه

زكى غالى اسكندر

المحامى

وخصص ايراده لمساعدة مشروع كلية البنات القبطية



سنة ١٩٣٥

المطبعة المصرية الاهلية بالقاهرة



للمرحوم عطية بك وهبي

يشمل تاريخه ومباحثه من مقالات وخطب

في العلم والأدب والتاريخ والآثار والتربية النسائية

لجامعه

راغب اسكندر

المحامي

وخصص ايراده لمساعدة مشروع كلية البنات القبطية

سنه ١٩١٥

المطبعة المصرية الاهلية بالقاهرة



ما للفضاءِ قد اسودّ عطيهَ وبمثلهِ كنا نُدِلُّ ونفخرُ

لهْفي عليه وقد بدا تمثالهُ مع أنهُ طيَّ الفؤاد مصوّرُ

الى الراحل الكريم

في رمسه

لم أبك أيها الذاهب عنا عن تأسف ولا تأسٍ

إنما أنت الذي أنشأت وأبقيت . وما كنتُ إلا جامعاً لآثار فضلك أعلنها بين القوم خدمة للناس .

أحببتَ بلادك وأمتك وعشيرتك فما أدخرتَ لنفسك راحة . ولا قوة . ولا صحة في سبيل حبك الخالص

سيعلم من لم يعلم أنك في مماتك . ومن عز علينا فراقك وأنت في خدمة الجد والمثابرة . قد كنت أبلغ عظة وأعز نصحاً وما كانت آثارك إلا آثار فضل وعملاً صالحاً

أما هذا الكتاب والجامع لمقالاتك وأعمالك فإن أساس ما كتبتَ له نعم الناصح المخلص والمرشد الأمين .

ألا فطب مقاماً . واسترح بعد حياة الجهاد الطويل ، في روضات الأبدية واطلب لنا في حياتك السرمدية أن ننهج في طريقك وننسج على منوالك خدمة لهذا البلد العزيز والوطن المفدّى لدى كسب ثمره واستدامته .

المقدمة

لم أشأ بكتابي هذا أن أجمع تاريخاً فقط . وإن كان بيان تاريخ النوابغ من كل أمة وبلدة . عادة أخذناها بحق ممن هم أوفر علماً وأسبق منا في ميدان المعارف والآداب .

قد أردت مع هذا التاريخ الذي أجمع فيه حقائق شتى أن أقدم مثلاً للناس في كيف تكون الارادة في العمل والاخلاص وحرية الفكر . وأردت غير هذا أن أكون جامعاً فوائد في العلم والأدب . والاجتماعيات . والآثار المصرية . والتربية النسائية .

وها أنا أضع ما أظهرته أمام القراء . وما أرجو منهم قبل ابداء أي رأي . أو عرض أي فكر . إلا مطالعته . بأناة وتفكير .

ورأيت أن يكون ايراد الكتاب موجهاً لمنفعة عامة .

قد كان صاحب الترجمة مولعاً بتربية الفتاة المصرية . وله آثار بيضاء على مشروع كلية البنات القبطية . فأردت أن أضيف أثراً له . والذي أجمعه هو عمل يديه . على هذه الآثار .

لذلك أعتقد أني ربما لم أخطئ في تخصيص ايراد هذا الكتاب لهذا المشروع الجليل .

هذا هو العمل المبرور فاكتتبوا بالمال إنا اكتتبنا فيه بالادب

ولست بناس فضل من عضدوني وآزروني في اخراج هذا الكتاب في عالم الطبع . وهم كثيرون . فاعتذر ، مع شكري الخالص لهم ، عن ذكر اسمائهم لضيق المقام . فلهم جميعاً من الانسانية جميل الشكر . وأطيب الثناء .

ترجمة الفقيد [1]

تمهيد

هو النابغة القبطي الكبير الذي دلت كتاباته وأعماله في مدى العشرين سنة الماضية انه من أصحاب العقول الواسعة والافكار العصرية مشهور بالدهاء والذكاء وسرعة الخاطر. له ولع مخصوص بالتاريخ والأدب. ومكانة معروفة بين الكتاب والادباء. وميل طبيعي لاصلاح الشؤون الملية. ويمتاز بالأخلاص في العمل. والصراحة. وحرية الضمير. فوق شغفه بالسياحة في البلاد الغربية. وزيارة المتاحف والمكاتب التي أكبرت قدره بين نوابغ الغرب وعلمائه. فصادقه كثيرون منهم في فرنسا وانجلترا والمانيا وروسيا وأعجبوا بذكائه وذكروا اسمه في مؤلفاتهم. هذا وله اسلوب رقيق في العربية. واقتدار على التحرير بالفرنساويه كأحد أبنائها. فضلاً عن معرفته اللغتين الانجليزية والالمانية.

والذي يؤثر عنه أنه ما شرع في عمل إلا وكان النجاح حليفه بما وُهب من المقدرة والنشاط. وبالجملة فأنه كان من أقدر رجال الادارة بين الموظفين. وأشهر النابغين بين رجال العلم والأدب من المصريين.

مولده ومنشأه

ولد في يوم الثلاثاء ٢٦ مايو سنة ١٨٦٨ ميلادية الموافقة ٣ صفر سنة ١٢٥٨ هجرية و١٩ بشنس سنة ١٥٨٤ قبطية بناحية طليا بمركز اشمون بمديرية المنوفية ووالده حضرة عوض الله افندي عطيه من رؤساء اقلام نظارة المالية سابقاً

---

(١) قد استعنت في كتابتها بكتاب « الاقباط في القرن العشرين » الجزء الخامس ص ٥٤ لمؤلفه حضرة رمزي افندي تادرس بعد اضافات وتعديلات كثيرة

تعليمه

وقد تلقى في بلدة طليا المذكورة وبكتّابها مبادئ القراءة والكتابة. ثم انتظم في سلك تلاميذ مدرسة المرسلين الاميركانيين بمصر و تمم دروسه العربية والفرنسية بمدرسة الاقباط بحارة السقايين. وهي المدرسة التي كانت في ذلك الحين ملجأ لطلاب العلم والراغبين فيه وفيها تخرج المرحوم بطرس باشا غالي وغيره من نوابغ عصرنا الحالي. وقد كان صاحب الترجمة زميلاً في المدرسة المذكورة لحضرة المحامي المعروف جرجس افندي وصفي و المرحوم حنا افندي زكي.

في خدمة الحكومة

ثم دخل في خدمة الحكومة في سنة ١٨٨٦ أيام كان المسيو مازوك الاداري الفرنسي الشهير مديراً لمصلحة الاموال غير المقررة بنظارة المالية. فأظهر من آيات الذكاء والنجابة ما حبّب فيه رؤساؤه وأناله ثقتهم وعطفهم.

بعثة البحر الاحمر

فأخذ من ذلك الوقت يتدرج في سلم الارتقاء الى سنة ١٨٩٦ حيث أراد المسيو برونت العضو الفرنسي بمصلحة السكة الحديد وقتئذٍ أن يبعث ببعثة علمية الى شواطئ البحر الاحمر لدرس مشروع عمل مرفأ بجهة رأس بناس ومد سكة حديدية من هنالك الى شاطئ النيل مخترقة الصحراء الى اصوان فوقع الاختيار على المترجم لأن يكون سكرتيراً لتلك البعثة التي كانت مؤلفة من المسيو ريموندي رئيساً وهو باشمهندس كباري السكة الحديد الآن والمسيو ادفونس مهندس بمشروعات الري سابقاً والمسيو ماتييه المقاول وأمين افندي رزق الله المهندس بالسكة الحديدية أعضاء والدكتور ابرامينو بولا في الطبيب بزفتى حالاً. طبيباً للبعثة.

ورأس بناس أو برنيس هذه واقعة في منتصف الطريق بين القصير



بعثة البحر الاحمر

١ عطيه بك وهبي ٢ الدكتور ابراهيم بولاقي ٣ حسن افندي رزق الله
٤ مسيو رتوني ٥ مسيو دموس ٦ مسيو ماتيه

وسواكن وقد استغرقت هذه البعثة في رحلتها مدة خمسة شهور.

وفي أثناء اقامته مع أعضائها على شاطئ البحر الأحمر كُلف بالتوجه لينبع ببلاد العرب في مأمورية تتعلق بأشغالها.

حدثني صديق فقال ان العرب أوجسوا خيفة منه وكادوا يقضون على حياته لولا أن نبهه وكيل البريد هنالك فأقلع على المراكب الشرعية في هزيع الليل. بعد ان كان قد أتم مأموريته وقام بها خير قيام.

ولما أنجزت البعثة أعمالها عاد الى القاهرة فآثرت مصلحة السكة الحديد بقاءه في خدمتها وعينته محرراً فرنساوياً لعموم الهندسة.

سكرتير المدير العام

ولم يمض زمن طويل حتى سمع بذكائه واقتداره صاحب السعادة الاداري اسكندر باشا فهمي الذي ذكر عنه وقت وفاته انه كان شاباً في منتهى النباهة والكفاءة والأمانة وحسن الادارة. فاختاره في سنة ١٨٩٩ لأن يكون سكرتيراً خاصاً له وبقي يشغل هذا المركز الى سنة ١٩٠٣.

مأموريته بأوروبا

وفي سنة ١٩٠٢ انتدب من قبل مجلس السكة الحديد الأعلى لزيارة شركات السكك الحديدية الكبرى بفرنسا وانكلترا لدرس بعض مسائل هامة تختص بأعمال ونظامات السكك الحديدية المصرية فقام بمأموريته أحسن قيام. وكان من مبحثه بهذا الخصوص. والتي قدم تقريراً وافياً عنها للمصلحة. وما زال محفوظاً ضمن أوراقها. موضوع إدارة الحركة العامة وطريقة منح الماهيات واعطاء العلاوات وتقرير المعاشات للموظفين. وإدارة المحطات وعمالها. وترتيب الاعانات لعائلات المستخدمين

وطرق مساعدتهم في حالة عجزهم عن الأعمال . وطرق الاعلانات الى آخره . وقد رأيت صوراً من التقارير التي قدمها بهذا الشأن . وهي تدل على العمل المتقن الكبير الذي قام به . وترتب عليه تعديلات كثيرة في المصلحة المذكورة .

ونظراً للكفاءة التي أظهرها في أعماله انتخبه المسيو كوتريل الذي كان باشمهندساً لعموم السكة الحديد وقتها لأن يكون سكرتيراً لعموم الهندسة . وقد أظهر في إدارة هذا المركز المهم من الاقتدار والكفاءة ما أناله ثقة رؤسائه التامة فأعجبوا به وقدروا خدماته حق قدرها فأنعم عليه سمو الخديو السابق عباس حلمي باشا في سنة ١٩٠٩ بالرتبة الثانية ورقته المصلحة في درجة ناظر لأقلام عموم الهندسة . وهو المركز الذي شغله حتى وفاته قبل الأوان . وقد امتاز في هذا المنصب بالكفاءة والاقتدار . والذي يعرف شيئاً عن أعمال هندسة السكة الحديد المنتشرة في طول البلاد وعرضها . يدرك جيداً كيف كان حسن الادارة وانتظام الأعمال فيها . وقد كان رحمه الله مباشراً لكل أمر في مصلحته . وطالما رأيته يسهر الليالي الطوال في مراجعة الأوراق بمنزله . حيث كانت ترسل له خصيصاً من مكاتبه بها . ولم يكن في مركزه هذا إلا مثالاً للنزاهة والاخلاص لمستخدميه من مسلمين وأقباط . وطالما ساعد موظفيه لا فرق بين هذا أو ذاك . وأدى لهم الخدم الكثيرة . وساعدهم في ضيقاتهم وما زال الكثيرون من موظفيه يذكرون له ذلك . وفي قلوبهم الأسى على فقده . وكان يسير في عمله بدقة تامة غير مبال بما كان يعترضه في الطريق ما دام مقتنعاً بحسن عمله . ولذلك كان موضوع ثقة رؤسائه دائماً أبداً .

ثقة رؤسائه

ولم تكن هذه الثقة إلا ملفتة الأنظار نحوه حتى انه رشح لوظيفة سكرتير ثانٍ لمجلس النظار. على ان الظروف والحوادث المعروفة في سنة ١٩١١ حالت دون تحقيق أمنية أولي الأمر.

في التحرير

على ان أعماله الكثيرة بدوائر الحكومة لم تكن على كثرتها الزائدة لتلهيه عن الاشتغال بالعلم والأدب والدرس والبحث والتحرير وقد انتخب مرة ومكث مدة رئيساً لتحرير جريدة مصر الغراء. وطالما رآه معربه مكباً على الدروس العلمية الثمينة ليلاً ونهاراً آخذاً باهداب البحث في الكتب العلمية والتاريخية.

في الجمعيات

وفي سنة ١٨٨٦ ابتدأ يشتغل بالخطابة والمباحثة بجمعية الاعتدال المشهورة. وقد كان من أعضائها العاملين أيام كان الدكتور فارس نمر أحد أصحاب جريدة المقطم الغراء رئيساً لها والمرحوم السيد علي يوسف وحفني بك ناصف وحمد باشا زكي والدكتور شبلي شميل والمرحوم جورجي بك زيدان والمرحوم الشيخ احمد ماضي واحمد افندي فوزى وغيرهم من الأدباء والعلماء المعروفين أعضاء لها. وله في تلك الجمعية آثار بيضاء من خطب رنانة ومباحثات شائقة. ومن ذلك الوقت بدأ المترجم أيضاً في الاشتغال بالانشاء. وله ولزميله المرحوم حنا افندي زكي رسائل في جريدة الآداب أيام كان يحررها المرحوم صاحب المؤيد الأغر سابقاً.

بين الجمعيات الطائفية

ومن سنة ١٨٩٢ أخذ يشتغل بشؤون القبطية والملية وهو أحد المؤسسين جمعية التوفيق القبطية وانتخب من زمن قبل ان وافاه الأجل المقدر نائباً لرئيسها. وسنفرد لأعماله في هذه

الجمعية فصلاً خاصاً . وقد كانت له اليد الطولى في تحرير مجلة هذه الجمعية ونشراتها المعروفة وكان من أركان النهضة. ومن عوامل الانقلاب والاصلاح اللذين قاما للأقباط في ذاك الزمن على ما هو معروف ومشهور . وقد كان أيضاً عضواً عاملاً بجمعية النشأة القبطية . وهي مدينة له بأعماله فيها وبما ألقاه من الخطب الشائقة في قاعاتها وحفلاتها التي كان يحضرها السواح الأجانب .

وقد كان رحمه الله ايضاً من اعضاء المجلس العام للجمعية الخيرية القبطية سابقاً وطالما ساعدها المساعدات الجمة . وكان يثني دائماً على همة القائمين باعمالها[1]

في دراسة الحقوق

وقد اشتغل بدرس علم الحقوق بالمدرسة الفرنساوية بالقاهرة ومن زملائه في ذاك الحين سعادة مصطفى باشا ماهر وو صف بك بطرس غالي وعبد الحميد بك اباظه وعزوري بك وغيرهم من نوابغ هذه الايام. وسافر لأوروبا ايضاً لهذا الغرض

سياحاته ورحلاته

وفي سنة ١٨٩٨ عند ما كان ذاهباً لاداء الامتحان في علم الحقوق أمام كلية باريس ساح سياحة طويلة وأردفها باخرى في سنة ١٩٠٠ حيث زار معرض باريس وكتب لجريدة مصر

---

(١) لم ينضم صاحب الترجمة مع أعضاء الجمعية الخيرية في المدة الاخيرة عملياً ولكنه كان يداوم على المساعدة بدليل انه كانت ترد له الخطابات بالشكر والثناء بين حين وآخر من الجمعية. وقد جاء في احدها بامضاء حضرة نائب الجمعية جرجس بك انطون بتاريخ ٣ يناير سنة ١٩١٣ ما يأتي : — وصلني بيد الشكر والممنونية الخطاب المحرر من سعادتكم الى غبطة أبينا الموقر واستلمت ما تكرمتم فتبرعتم به وجمعتموه من الاخوان ولا يسعني امام هذه العواطف الطيبة والاخلاق الشريفة الا أن اسأل لكم عمراً مديداً . الخ. على ان مما الفت الانظار أخيراً، وهذا الكتاب تحت الطبع، هو ان تقرير الجمعية عن سنة ١٩١٤ قد صدر ولم يذكر فيه شيء بخصوص وفاة عامل عالم مثله . ويظهر ان ذلك قد جاء من باب السهو . والله أعلم.

مقالاته المعروفة عما رآه. ومن ذلك الحين شغف صاحب الترجمة بآثار الغربيين وعلومهم ومدنيتهم فكان يعاود الاسفار في بلادهم سنة بعد الاخرى لزيارة المتاحف والمكاتب ودور العلم وآثار الارتقاء الصحيح. ويكتب الرسائل الرائقة ليصف لابناء بلاده مشاهداته الكثيرة أثناء سياحاته. وقد زار أغلب عواصم أوروبا وأشهر المدن بفرنسا وانجلترا واسكوتلاندا والمانيا والنمسا وسويسرا وبلجيكا وايطاليا والدانمرك واسوج ونروج وتركيا. وكانت زياراته لاوروبا بعد ذلك في السنوات ١٩٠٢و١٩٠٦و١٩٠٨و١٩١١و١٩١٣ . ولم يشغله طلب السياحة في رحلة من رحلاته عن التنقيب والبحث فيما يلذ ويفيد وما كانت كتاباته بالجرائد ومقابلاته لرجال العلم والادب في بلاد اوروبا الا دليلاً حسياً على هذا الميل والشغف بالأعمال النافعة

زواجه وعائلته

وفي سنة ١٩٠٤ ساح للمرة الثالثة بالمانيا حيث كان له أصدقاء كثيرون فطاب له المقام أكثر من المعتاد على ضفاف نهر الرين الجميل. وفي الرابع من شهر اكتوبر من السنة المذكورة اقترن بمدينة كولونيا الشهيرة بالآنسة جيرترود اروفا كريمة المرحوم جان اروفا المالي المعروف بهذه المدينة وعميد عائلة اروفا بهذه المدينة. وهي شقيقة الدكتور اروفا أحد قضاة مدينة شفيلم من أعمال المانيا حالاً . ومعترف بهذا الزواج رسمياً من الكنيسة القبطية. ومقيد بدفاترها. وله من قرينته هذه نجل يدعى أميل ولد في ٢٦ اغسطس سنة ١٩٠٥ وابنة تدعى ماري شارلوت ولدت في ٥ ابريل سنة ١٩٠٩ . ونجله بمدرسة الفرير بالزيتون حالاً وبنته بمدرسة الراهبات بالضاحية المذكورة. وقد اصبحا يتيمين من الأب الذى كان يربيهما

التربية الصالحة لينفعا امتهما و بلادهما التي ولدا فيها . وهما آية في النجابة والتربية الصحيحة . ولكن لم يمهل الدهر على ابيهما حتى يضحى من وقته وماله وصحته لولديه . بقدر ما ضحى لامته وبلاده

في المجمع العلمي

ولم تكن مشاغله العائلية وأعماله المصلحية الكثيرة لتقعده عن الدرس والبحث في أهم المواضيع التاريخية ففي سنة ١٩٠٣ قدم للمجمع العلمي المصري بحثاً تاريخياً لذيذاً عن المرأة وما كانت عليه ايام الفراعنة . فكان موضوع أعجاب أعضاء المجمع وغيرهم من الأجانب الذي حضروا يوم الاجتماع [١] . وقد أفردت احدى السيدات

---

(١) جاء بجريدة الوطن بعددها الصادر فى ٢٦ يناير سنة ١٩٠٣ ما يأتي : —

لم يقصد نابوليون العظيم بتأسيس المجمع العلمي فى هذه الديار الا افادة ابنائها ونشر المعارف بينهم على اننا لو راجعنا اعمال ذلك المجمع منذ تأسيسه الى الآن نرى ان جل تلك الاعمال ان لم نقل كلها من ثمرات ابحاث الاجانب والنزلاء فى هذه البلاد .

ويسرنا ان نعلن اليوم ان حضرة البارع عطيه افندي وهبى قد قدم لهذا المجمع رسالة مفيدة موضوعها حالة المرأة فى ايام الفراعنة فحددت لسماعها جلسة يوم الاثنين الموافق ٢ فبراير سنة ١٩٠٣ المقبل الساعة الثالثة بعد الظهر بحضور عدد عظيم من الادباء فنثني على هذا الاديب ثناءً جميلاً . ونرجو ان ينسج على منواله غيره من الادباء المصريين.

وجاء بعددها الصادر بتاريخ ٣ فبراير سنة ١٩٠٣ ما يأتي : —

اجتمع أمس المجمع العلمي المصري فى قاعته المعهودة بنظارة الاشغال العمومية وقد حضر الجلسة عدد عظيم من الكبراء والعلماء والسيدات المهذبات حتى ضاقت بهم المقاعد وأضطر من تأخر عن الميعاد المحدد للوقوف بالباب فبعد سماع مقالة من جناب الدكتور لوريه عن كيفية تحنيط الحيوانات بمصر فى الزمن القديم دعي حضرة الفاضل عطيه افندي وهبى لتلاوة مقالة عن حالة المرأة فى أيام الفراعنة فشرحها شرحاً وافياً مبيناً ما كان لها من التأثير العظيم فى الهيئة الحاكمة مفصلاً ما تمتعت به من الحقوق والامتيازات وما كانت عليه من المحاسن وما وصلت اليه من العلم وسعة



المرحوم عطيه بك وهبي وعائلته

الانكليزيات للبحث في موضوع محاضرة صاحب الترجمة مقالاً في جريدة « لندن ديلي نيوز ». والقى في سنة ١٩١٠ محاضرة اخرى عن الاقتصاد السياسي عند قدماء المصريين واعقبها في سنة ١٩١١ ببحث طلي عن القوانين الدولية في أيام الفراعنة العظام. وقد كان مرشحاً لعضوية المجمع المذكور الذي لا يتجاوز اعضاؤه مطلقاً عن الخمسين عضوا من علماء مصر اجانب ووطنيين من الباحثين والمفكرين. وهذا المجمع انشأه نابوليون بونابرت عند ما قدم مصر بجيشه الجرار وذلك على مثال مجمع العلوم (اكاديمي العلوم) بباريس. وصاحب الترجمة هو القبطي الوحيد الذي رشح لهذه العضوية. ومن بين اعضائه المصريين حضرة صاحب السعادة سري باشا وزير الأشغال وسعادة المستشار محمد مجدي باشا وسعادة أحمد باشا ذكي. وحضرة صاحب العزة أحمد بك كمال الأثري المعروف.

بين علماء باريس

واشترك أيضاً مع بعض علماء فرنسا في ابحاث تختص بتاريخ مصر فانعمت عليه حكومة الجمهورية الفرنسية جزاء جده ونشاطه بنشان اوفيسيه الاكاديمي

الاطلاع بعبارة فرنساوية واضحة وبراهين قوية تدل على تضلع حضرة الاديب وعنايته بالبحث واطلاعه على اقوال اشهر المؤلفين واكبر العلماء فى هذا الموضوع مثل ماسبرو وريفيو وغيرهما حتى كان لاقواله وقع عظيم وتأثير كبير فى نفوس الحاضرين فنحن نثنى على همته ونرجو ان يقتدى به غيره من ادباء المصريين لان البحث فى تلك المواضيع التاريخية لذيذ مفيد قد عرف اهميتها الاجانب فتوسعوا فيها وكتبوا عنها المؤلفات الضخمة والمجلدات الكبيرة بينما نقتصر نحن لقلة بضاعتنا على البحث السطحي وشقشقة اللسان مما اصبح مستهجناً عند جمهور العقلاء فعسى ان يكون فى هذه الاقوال ما يستنهض الهمم القاعدة ويدعو الادباء الى طرق باب المواضيع النافعة كما فعل ويفعل حضرة البارع عطيه افندى وهبى .

وانتخبته أيضاً الجمعية الاسيوية بباريس التي طالما ساعدها بابحاثه لمستفيضة عضواً عاملاً بها وقد نشرت له الجمعية كثيراً من مباحثه في مجلتها لمعروفة . ولما بلغها خبر وفاته اعلن رئيسها ذلك بجلسة ٨ يناير سنة ١٩١٥ بباريس مظهراً أسفه على فقد عضو عامل بها كان يخدمها من اجل العلم والتاريخ

في عضوية جمعية اجتماعية

وقد كان كذلك عضواً في جمعية اجتماعية مشهورة بفرنسا تبحث فيما يرقي المجتمع الانساني وأخلاق الأمم والشعوب على اختلاف أجناسها ومللها . وكان هو والمرحوم أحمد فتحي باشا زغلول من أعضائها المصريين. وكان المسيو أيدمون ديمولان صاحب كتاب سر تقدم الانجليز السكسونيين رئيساً لها ولصاحب الترجمة مقالات بمجلة هذه الجمعية المسماة « لمجلة الاجتماعية Revue Sociale ».

في مؤتمر الآثار الدولى بمصر

وقد اشترك الفقيد في مؤتمر الآثار الدولي الذي عقد بمدينة القاهرة في أبريل سنة ١٩٠٩ . وأنتخب عضواً عاملاً به. وقدّم فيه بحثاً جليلاً عن الفنون القبطية. وعلاقتها بالفنون لمصرية القديمة. ولم يقدم صاحب الترجمة هذا البحث الشائق، الذي ألقى محاضرته النفيسة فيه على جمهور من العلماء والفضلاء بفندق سافواي بمصر في ١٢ أبريل سنة ١٩٠٩، الا بعد ان زار كثيراً من المتاحف بجهات القطر وعم الأديرة الأثرية. في الوجهين القبلي والبحري. ومما أذكره عنه بهذه المناسبة ان الاقباط لم يكونوا في الأصل ممثلين في هذا المؤتمر مع ان تاريخهم يرتبط به ارتباطاً كبيراً . فبعد ان شحذ الفكرة حرك الأقلام وأثار ثائرها في الجرائد على اختلاف مشاربها وحمل حملته المشهورة في هذا الموضوع بالجرائد الافرنكية والعربيه. وكانت النتيجة ان ضمت لجنة اقامة هذا المؤتمر لعضويته اثنين غير

RÉPUBLIQUE FRANÇAISE

MINISTÈRE DE L'INSTRUCTION PUBLIQUE ET DES BEAUX-ARTS.

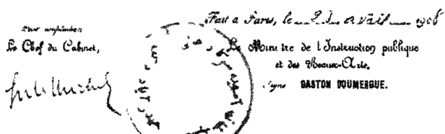
Le Ministre de l'Instruction publique et des Beaux-Arts,

Vu l'article 32 du décret organique du 17 mars 1808,
Vu les ordonnances royales des 14 novembre 1844, 9 septembre 1845 et 1er novembre 1846,
Vu les décrets des 9 décembre 1850, 7 avril et 27 décembre 1866, 24 décembre 1885 et 4 août 1898,

Arrête

M. Attia Wahby, directeur du service des Chemins de fer, postes & télégraphes au Caire (Egypte) est nommé Officier d'Académie.

Fait à Paris, le 23 avril 1908



Pour ampliation
Le Chef du Cabinet,

Le Ministre de l'Instruction publique
et des Beaux-Arts,
Signé GASTON DOUMERGUE.

(ترجمة)

الجمهورية الفرنساوية

وزارة المعارف العمومية والفنون الجميلة

وزير المعارف العمومية والفنون الجميلة

بعد الاطلاع على المادة ٣٢ من القانون النظامي الصادر في ١٧ مارس سنة ١٨٠٨
وبعد رؤية الاوامر الملكية الصادرة في ١٤ نوفمبر سنة ١٨٤٤ و ٩ سبتمبر سنة ١٨٤٥ وأول نوفمبر سنة ١٨٤٦
والاطلاع على الاوامر العالية الصادرة في ٩ ديسمبر سنة ١٨٥٠ و٧ أبريل و٢٧ ديسمبر سنة ١٨٦٦ و٢٤ ديسمبر سنة ١٨٨٥ و ٤ أغسطس سنة ١٨٩٨

قرر

المسيو عطيه وهبي رئيس عموم اقلام هندسة السكة الحديدية والبوسته والتلغرافات بالقاهرة (مصر) عين اوفيسيه الاكاديمي

تحريراً بباريس في ٢٣ أبريل سنة ١٩٠٨

وزير المعارف العمومية
والفنون الجميلة
امضاء

رئيس المجلس
امضاء

SOCIÉTÉ ASIATIQUE

FONDÉE A PARIS EN 1822

(Reconnue d'utilité publique par Ordonnance royale du 15 Avril 1829)

Diplôme de Membre de la Société

Le Conseil de la Société Asiatique, dans sa séance du 13 Janvier mil neuf cent onze
et sur la proposition de M^r Chavannes et de M^r Revillout a nommé
M. Attia Wahby Bey Membre Titulaire de la Société
En foi de quoi le présent Diplôme est délivré à Monsieur Attia Wahby Bey
Paris, le 10 Février mil neuf cent onze

Le Secrétaire — Ed. Chavannes

Le Président de la Société — Emile Senart

ترجمة)

الجمعية الاسيوية

تأسست بباريس في سنة ١٨٢٩

شهادة (دبلوم) عضو بالجمعية

مجلس ادارة الجمعية الاسيوية بجلسته المنعقدة في ١٣ يناير سنة ١٩١١ وبناء على اقتراح المسيو شافان والمسيو ريفيو
عين المسيو عطيه وهبي بك عضواً عاملاً بالجمعية

واثباتاً لذلك سلمت هذه الشهادة (الدبلوم) لعطيه وهبى بك

باريس ١٠ فبراير سنة ١٩١١

الرئيس	السكرتير
امضاء	امضاء

المترجم من الاقباط المعروفين وهما حضرة العالم اقلاديوس بك لبيب. وحضرة الاستاذ مرقس بك حنا المحامي[(١)]

في سبيل التربية والاصلاح الملى

وقد كان اهتمامه بالشؤون الملية والاصلاح القبطي كبيراً ووجه له التفاته الخصوصي في السنوات الأخيرة وما العهد يبعيد على كتاباته الكثيرة عن المجلس الملي وضرورة تجديد انتخاب اعضائه سواء كان بالجرائد العربية أو بجريدة لابورص اجبسيان الفرنسية حيث ظهرت فيها كتاباته بامضاء (رعمسيس). وقد رشح فعلاً لعضوية المجلس المذكور. وكان ترتيبه في انتخابات المجلس الأخيرة الثاني بعد الثمانية الذين انتخبوا فعلاً للعضوية. وفي صيف سنة ١٩١٢ ألقى بالفرنسية خطبته المشهورة يوم الاحتفال بافتتاح أبنية المدارس القبطية الجديدة باسكندرية بحضور عطوفة محمد سعيد باشا القائمقام خديوي حينذاك والوزراء وقناصل الدول وكل ذي حيثية ومقام. وكان لكلامه فيها عن تربية البنات تأثير خصوصي. وقد علقت

(١) انعقد مؤتمر الآثار الدولي بالقاهرة في التاريخ المذكور بناء على قرار مؤتمر الآثار المنعقد من قبل باثينا في سنة ١٩٠٦ وقد ترأسه وافتتحه سمو الخديوي السابق وكان كل من المرحوم بطرس باشا غالي وصاحبي السعادة اسماعيل سري باشا وسعد زغلول باشا نواب الرئيس العاملين. والمرحومان مصطفى باشا فهمي ونخري باشا نائبي شرف ولم يكن في عضويته من المصريين خلاف من ذكرناهم قبلاً سوى حضرات احمد بك كمال وعلي بك بهجت الأثريين المشهورين وايوب بك عضو المجلس البلدي بالاسكندرية ومحمد افندي شعبان مفتش مصلحة الآثار بالزقازيق. ومحمد افندي فريد بمتحف الآثار بمصر. واحمد باشا ذكي وذلك من بين تسعمائة عضو وخمسة نائبين عن اغلب دول اوربا والولايات المتحدة وجميعهم من أكابر العلماء وكانت مباحثه قصرة على آثار الامم الشرقية القديمة كمصر واثينا والصين الى آخره

على هذه الخطبة جميع الجرائد المصرية وبعض الجرائد الاجنبية بمصر واوروبا.

وقد كان له في كل حركة ملية شأن يذكر ولما اتجهت الافكار الى حل قضية الاوقاف القبطية في سنة ١٩١٣ أرسل له حضرة صاحب العزة جرجس بك انطون دعوة بتاريخ ٣ ديسمبر سنة ١٩١٣ لاجتماع يحضره أعيان الأمة بمصر والجهات. فبادر ورد عليه قائلاً :

« عزيزي جرجس بك . وصلتني هذه التذكرة وأنا طريح الفراش فاذ منّ الله عليّ بالشفاء قبل الميعاد بادرت بالحضور وإلا فاعذروني والسلام مع الاحترام ختام » اهـ.

وكان شديد الغيرة على مصالح الاقباط وعلى تاريخهم الحقيقي الذي كان يحشوه البعض بالأكاذيب والمفتريات

ومما نذكره انه قرأ مرة في احدى دائرات المعارف الانكليزية وصفاً للاقباط غير حقيقي ومحشواً بالمطاعن والاكاذيب فرد على صاحبها حالاً نافياً لمزاعم المدونة بالدائرة المذكورة وطلب منه تصحيحها. أما أصل ما كتب عن الاقباط في ذلك وكان موضوع رد صاحب الترجمة فمذكور لمن شاء الرجوع اليه في الطبعة القديمة من دائرة المعارف الانكليزية الجزء السادس صحيفة ٣٥٤.

وكتب له مرة صديقه المرحوم المسيو ريفيو المؤرخ الأثري الشهير [١] يقول : صديقي العزيز . شكراً لك على مقالاتك . وانك لمحق في دفاعك عن الاقباط مواطنيك واني معكم من كل قلبي . وإني لك. ريفيو (امضاء) تشكراتي غبطة بطريرككم للاعمال التي يقوم بها .

(١) سنأتي بكلمة عنه في فصل تالٍ .



المرحوم احمد فتحي زغلول باشا

وهذه صورة الكتاب الإصلي بخط المرحوم المسيو ريفيو

Mon cher ami, merci
de vos articles vous avez
raison de défendre les
[illegible]
[illegible]
vous [illegible]
[illegible]
les compliments [illegible]
[illegible]
[illegible]

اخلاقه الاجتماعية

وقد كان صاحب الترجمة معروفاً انه من زعماء النهضة الاصلاحية الاجتماعية في البلاد كما كان وطنياً غيوراً على مصالح بلاده ومرافقها وحقوقها وطالما كان في منزله نادياً يؤمه من وقت لآخر الكثيرون من رجال الفضل أجانب ووطنيين وله مباحثات ومراسلات مع كثيرين من رجال العلم والأدب بمصر وربما وقد كان من أصدقائه المعدودين المرحوم احمد فتحي باشا زغلول .

حدثني مرة صاحب الترجمة فقال انه كان يعرب كتاب سر تقدم الانكليز السكسونيين . وله مراسلات في هذا الشأن مع صاحب الكتاب المسيو ايدمون ديمولان، وبينما هو في آخر ترجمته اذ جاءه هذا الكتاب هدية له من المرحوم فتحي باشا مكتوباً عليه بخطه وأمضائه :

لحضرة الفاضل المحترم عليه ا... ...
هدية ودية من المؤلف احمد فتحي زغلول
١٠ صفر ١٢١٧

نحمد الله على ان هنالك من تقدمه في نشر أجلّ وأنفع الكتب لخير مصر والمصريين .

وأما شغفه بتربية المرأة وترقيتها واعطائها الحرية . وعلاقته بالمشتغلين بذلك من مصريين وأجانب فسأفرد له كلمة مفيدة في مكان آخر .

اخلاقه

مما يؤثر عنه في اخلاقه الخصوصية الصراحة وترضية صوت ضميره . وحسن الادارة وقوة الارادة حتى انه من المعروف عنه انه كان لا يشرع في عمل أو في أي أمر إلا ويحققه وكان لا يبالي في بث أعماله وأفكاره بالمعارضات والمعاكسات. فضلاً عن ترفعه عن مصيبة الشبان في هذا العصر من تناوبهم على القهاوي التي تقتل الوقت . فما من أحد يعرف عنه انه جلس مرة في قهوة أو ملعب . وهذا مع محافظته التامة على واجبات لرياضة لجسمه وعقله. فكان يؤم وعائلته المتنزهات دائماً أبداً . فضلاً عن ولوجه محال التمثيل لعلمه بفائدتها في الرقي والاصلاح الاخلاقي .

في أيامه الاخيرة

وبالاجمال فقد كان صاحب الترجمة يعمل كثيراً للمصلحة العامة. على ان المنية لم تمهله طويلاً لاتمام نواياه وآماله فنظراً لاعتلال صحته سافر الى اوروبا في أواسط سنة ١٩١٣ للمعالجة. ومكث هنالك ثلاثة أشهر ونصف شهر لم يفز فيها على ما يظهر بطائل ثم رجع الى بلده وكانت صحته تتناوبها المتاعب من وقت لآخر . وكان كلما أمل الناس أبلاءه من المرض كلما تدرجت صحته الى الاعتلال لأن مرضه كأن لا دواء له رغم سعي الاطباء الكثيرين

ومع مرضه هذا الشديد الوطأة لم يكن ذلك ليثنيه عن العمل وهو في فراشه فاستمرَّ الى آخر يوم من حياته يرد على ما يطلب منه في مختلف المسائل والآراء وعلى كتب الأصدقاء والخلان بتعبيره الجميل الواضح. وبكتابة

سلسلة رائقة بالعربية والفرنسية والى القارىء الكريم مثالاً من خطه وكتابته
فمن خطاب لحضرة والدى اسكندر بك مسيحه وهو برمل الاسكندرية في صيف سنة ١٩١٤

Helmieh (Villa Isis)
Le 25 Juin 1914

عزيزى حضرة اسكندر بك

اذا انا تأخرت عن مراسلتكم فلا تظنون
بى تقصيراً منى ولكن المرض قد افقدنى
[illegible] لذة التحرير ولكن لله الحمد
في هذه الحياة فاصبحت وفي جسمي من التعب
والملل وفي نفسي من السأم ما يذهب بكل
لذة في الحياة

واذا نظرت لوالدة ربما تصورت حظها
في تقدم [illegible] ويمكن ان يكون الامر كذلك في الظاهر

ومن الحقيقة التي اشعر بها في ظل الالم
ان قواي في بعض الايام تخور فاقضي
معظم الساعات انظر ممتداً على المضجع
او طريح الفراش لا قدرة لي على الوقوف
ولا قبل لي على الانتقال من غرفة لاخرى
فلا حول ولا قوة الا بالله . . . .
استدعيت الدكتور . . . وشرحت له
ما اقاسيه فاشار بحمام ارجل - الاقدام
وسائل ابلعه عند الحاجة ودهان الطخ
به البطن عند اللزوم ! وقد كان في
نيتي ان اتوجه لمدينة فاكتب في
هذا الاسبوع ولكن الطبيب السادات
منعاني عن ذلك فرضخت للامر
صحتي الضعيف المعلول

ومن خطاب بالفرنسية في التاريخ نفسه لشقيقي الدكتور نجيب اسكندر

Mon Cher Naguib

Merci des renseignements que vous m'avez donné sur le compte du Dr. Dogge. J'ai abandonné toute idée de voyage cette année en Europe. Mais je vois que ma maladie traîne en longueur et que mes forces ne reviennent pas facilement. Enfin, il n'y a qu'à s'y résigner!

· وذهب قبل وفاته ببضع أيام الى مصلحته ومكث ثلاثة أيام يروح ويغدو مكباً على العمل كألا مرض يعتريه . وهو في أشد حالاته . وكان حافظاً لذاكرته ولطيف معشره وطيب حديثه حتى لفظ النفس الأخير في الساعة السادسة من مساء يوم الخميس ٢٦ نوفمبر سنة ١٩١٤ . حيث أتم الستة وأربعين عاماً ونصف . فانقضت بانقضائه تلك الروح العالية والنفس العزيزة والفكر الوقاد والعريضة الواسعة والارادة القوية والحزم والعزم والأخلاق العالية والتواضع الطبيعي والوداعة وحسن المعاشرة . ذهبت تلك النفس التي خدمت الناس كثيراً في حياتها وفتحت بيوت الكثيرين . ولعل الذكرى تنفع لمن للجميل والمعروف يحفظون . فالى رحمة الله ورضوانه .



المرحوم عطيه بك وهبي [١]

في جمعية التوفيق [٢]

كان — رحمه الله — منذ نشأته شغوفاً بحب أمته ذا غيرة شديدة عليها يرغب أن يرقى بها الى أوج المعالي محارباً العوامل التي كانت حائلة دون تقدمها ودب فيه دبيب الميل الى انقاذها من أيدي الطامعين فيها أثر ما رآه بعينيه من آثار التأخر لتشتت كلمة أبنائها وعدم اجتماعهم على رأي فيه المصلحة العامة لتقدمها . فانخرط في سلك المصلحين. وعمل مع الأمناء الذين اهتموا بأمرها وجاهدوا جهاد الأبطال لا بقوة سلاح ولا بتأثير سلطة دنيوية بل بالدفاع

(١) اخذت هذه الصورة في أوائل مرضه

(٢) بقلم حضرة الكاتب الفاضل جرجس افندي فيلوثاوس عوض

عن الحقيقة حتى فازوا بأمنيتهم وتمكنوا من اعادة الهيئة الشوروية (المجلس الملي) بعد ان عبثت بها أيدى الأيام بمساعي أعداء الاصلاح. وأول ماخطر لهؤلاء المصلحين السعي في ايجاد هيئة تقوم بالمناداة وتعمل يداً واحدة فألفوا جمعية دعوها أولاً « جمعية التوفيق المركزية » وأعلنوا عن تأليفها في يوم الاثنين الموافق ٢٤ أغسطس سنة ١٨٩١ وكان المترجم أول كاتب لأسرارها اذ كانت لجنة ادارتها الأولى مؤلفة من المرحوم رفله أفندي جرجس [١]. وجندي بك ابراهيم صاحب جريدة الوطن الآن ولم يزل عاملاً فيها. وكاتم السر المرحوم عطيه بك وهبي. وأمين الصندوق المرحوم سوريال افندي سعيد المتوفى في يوم ١٠ ابريل سنة ١٩٠٤ وكان عاملاً نشيطاً أميناً له آراء سامية وأفكار ثاقبة. ومن أعضاء لجنة الادارة وهم: حبشي بك مفتاح ولم يزل عاملاً في الجمعية للآن. ومرقس بك سميكه وقد تركها من مدة. وباسيلي بك روفائيل الطوخي وقد تركها أيضاً. وأمين بك فرج البوشي الذي توفي في يوم الأحد ٢٨ يونيو سنة ١٩١٢. ومينا بك ابراهيم المستشار. وقد تركها أيضاً من مدة.

(١) المتوفى في ٧ اغسطس سنة ١٩٠٤ وكان كاتباً مجيداً غيوراً على مصلحة امته وقد كان رئيسها الاول. وظل عاملاً فيها حتى أعتزل الرئاسة وانتدبته ثانية نظرا لانتخابه من نواب المجلس الملي العام الذي تم انتخابه في يوم الاربعاء ٢٩ يونيه سنة ١٨٩٢ وقد جاء في تقرير الجمعية وقتها ما يأتي: « ولما كان ممن انتخب لعضوية مجلس الملي حضرة الرئيس السلف وبعض اعضاء لجنة الادارة. ولما كان لا يصح لحضراتهم الجمع بين المسندين وكانت الستة الشهور الثانية لم تنقض تماما تقرر تجديد الانتخاب لسد الرئاسة ولبعض عضوية لجنة الادارة وانعقدت لذلك هيئة الجمعية العمومية فعهد بالرئاسة الي تكرماً لا عن اهلية أو استحقاق كما تعلمون » (من خطبة لحضرة مخائيل بك شاروبيم)

هؤلاء هم الاعضاء العاملون في أول لجنة ادارة للجمعية . وكان المترجم يعمل فيها بنشاط و جتهاد . وبمجرد ان أعلنت هذه الهيئة عن خطتها الاصلاحية انضم اليها الكثيرون من رجال الفضل والنبل الذين كان لهم الفضل في اقامة الحجة على هاضمي حقوق الشعب . وقد امتازت وقتئذ بحرية المبادئ فظهر اسمها بمجرد الاعلان عنها لأنها لم تطلب سوى الاصلاح بانية مطالبها وأقصى أمانيها على احقاق الحق مختطة خطة الجمعية الاصلاحية الأولى التي طالبت بمجلس ملي فنالت مطالبها في زمن يسير وكان أعضاؤها من نخبة رجال الفضل [١] .

ولما رأى أبناء الامة ان مطالب الجمعية اصلاحية محضة لا تتعرض مطلقاً إلا لإصلاح ماهدمته معاول التأخير. متجنبة البحث في المسائل السياسية والعقائد الدينية ، كما جاء في قانونها، مال اليها الكل مرة واحدة.فلم يرق هذا في أعين الاكليروس الذين ظنوا ان في ترقية شأن الامة تقلص ظل سلطانهم وقد أخافهم كثيراً أنها لم تقبل في عضويتها إلا كل مزكى ولا يدخل الى قاعتها حين انعقاد جلساتها ، ولو كان من أعضاء الجمعيات الفرعية ، إلا اذا كان حاملاً لتذكرة التعارف أو أذن له الرئيس بالدخول كالاجنبي .

وأول عمل أتته الجمعية هو نشر قانون أعلنت فيه مبادئها وندبت الغيورين الى تأليف جمعيات فرعية في الجهات التي للاقباط فيها مصالح وتطرق الخلل الى ادارتها فلباها جماعة وألفوا جمعيات فرعية في الاسكندرية والمنصورة وطنطا والمحلة الكبرى والزقازيق وأسيوط والمنيا والفيوم وبني سويف وجرجا وغيرها . غير انها من أول وهلة وجدت مصاعب جمة ومقاومات شديدة

(١) الجمعية الاصلاحية تأسست في ٦ يناير سنة ١٨٧٤

جداً لانها اتهمت بالالحاد والمروق حتى ان الاكليروس أوغروا عليها الصدور بدعوى انها آلة في أيدي الانكليز للعمل على دك أساسات الكنيسة المرقسية وتسليمها الى الهراطقة . فنظر البهال ـ وهم الكثيرون ـ الى الجمعية وأعضائها بعين الازدراء حتى ان جندي بك ابراهيم عند ما كان في المحلة الكبرى رأى ما صنعته النساء القبطيات إذ كنّ يلقين قوارير الفخار الفارغة خلفه حال خروجه من بلدهن لاعتقادهن انه « قسيس التوفيق » الذي جاء « لاباحة تعدد الزوجات » . وكانوا في طنطا يشيرون الى اعضاء التوفيق ويقولون : « هؤلاء هم الذين باعوا سيدهم » . وقال اقباط طنطا يوماً لوالدي : « ألم تخف على بيتك أن يحرق لأجتماع التوفيقيين فيه » ؟ وهذا قليل مما كان يجري في البلاد لجهل الأمة لمركزها بازاء الاكليروس .

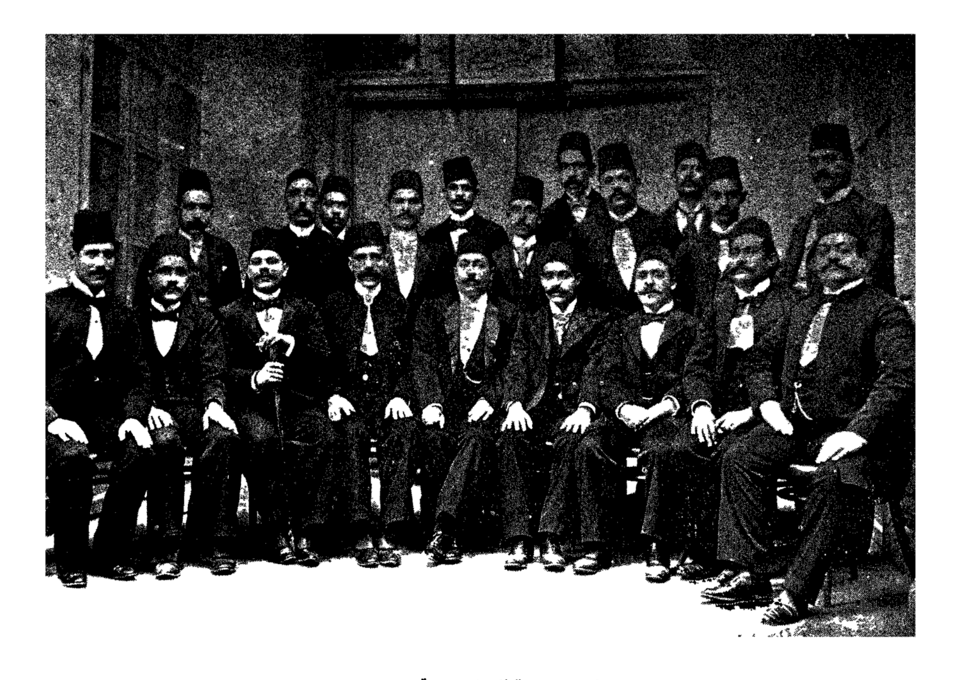
كلّ ذلك كان يحدث في البلاد المصرية حتى صار اسم جمعية التوفيق ممقوتاً جداً . فلو لم يكن الاعضاء الذين قاموا محاربين لهذه الأفكار من أهل الحصافة والفكر لواسع لفشلوا فشلاً لا مزيد عليه . فتغلبهم على هذه الصعوبات وفوزهم بامنيتهم دليل على انهم مصلحون حقيقيون لم تردهم على أعقابهم جيوش المصاعب ولا ما قامت به الحكومة من تفتيش قاعة الجمعية وأوراقها عند ما وشى بها بعض الاكليروس الذين قالوا عنها أنها جمعية سياسية تريد حمل الأقباط على الانضمام الى الكنيسة الأنكليزية لتكون تحت حماية الأنكليز .

وأول قانون أصدرته الجمعية قررت العمل به من أول نوفمبر سنة ١٨٩١ وأرسلته الى الجهات التي بمقتضاه أسست الجمعيات الفرعية وما زالوا عاملين به في الجهات كطنطا والاسكندرية والفيوم رغماً من ان الجمعية المركزية

عدلت هذا القانون. ولذلك انفصلت الجمعيات عن بعضها وصارت كل واحدة تعمل على حدة ليس بينها أدنى اتصال. هذا هو السبب الذي لأجله نهضت معها القلوب وتمهدت لها السبل حتى عرف القاصي والداني ان صوت الشعب قوي يثلّ العروش. وقد آلت على نفسها في مبادئ الأمر أن تكون اصلاحية لا يهتم اعضاؤها الا بما يقوي الرابطة القومية ويزيل عوائق اصلاح ما اختل من الاعمال.

وأول ما وجهت اليه الأنظار اصدار نشرة عن المدارس وحاجة الاقباط بنوع خاص الى تعليم راقٍ ثانوي وعالٍ بانية مطالبها على ان المصاريف التي يدفعونها للمدارس الأجنبية والاميرية كافية لفتح جامعة. وقد حضوا كثيراً على تعليم البنات وعدم اهمالهن وايجاد مدرسة لاهوتية لتعليم اللغات العربية باصولها والقبطية واليونانية والحبشية لمن أراد.

وبمجرد ظهور التقرير أنبرى جماعة فأعدوا اعتراضاً شديداً عليه. وجل مقاصدهم كانت منحصرة في أخماد انفاس «جمعية التوفيق» خشية أن يتقلص ظلّ نفوذهم ويسد باب المنافع الخاصة في وجوههم. وما ظهر الاعتراض حتى انفتح أمام الجمعية باب الأخذ والرد فاندلع لسان لهيب المناقشة واشتدت المنافسة بين الفريقين واشتد الجدل وكانت الجمعية يومئذٍ جامعة لأفاضل القوم المتعلمين ولم يقم في وجهها إلا اصحاب الغايات حتى ان بعضهم كان معتقداً ان مسألة الاوقاف المدنية لم تكن إلا مسألة دينية محضة لا يمكن لأحد أن يتخطى اليها. وقد وجدتُ صورة فوتوغرافية لجماعة من الاعضاء. ومن اسمائهم يعرف ما كانوا عليه من المقدرة على العمل. واني مكتفٍ بايرادها



اعضاء جمعية التوفيق سنة ١٨٩٢

فقط دون البقية لان كثيرين ممن لم يعملوا فى الحركة الاولى قد ادرجت اسماؤهم فى القانون الجديد المعدل .

إيضاح الرسم الذي عمل بعد التأسيس سنة ١٨٩٢

الصف الامامي : اسكندر افندي ابراهيم . جندي بك ابراهيم . مبنا افندي منقريوس. الدكتور ابراهيم بك منصور . ميخائيل بك شاروبيم . حبشي بك مفتاح . مرقس بك سميكه . ممنا بك ابراهيم . اسكندر بك عبد الملك .

الصف الخلفي : حبيب افندي طياب . اسكندر افندي مليكه أمين صندوق . جلبي افندي يوسف سكرتير . جرجس افندي غبريال أمين صندوق . المرحوم سوريال افندي سميد . لوقا افندى رويس. رياض افندى ابراهيم. المرحوم اسحق افندى عطيه. نقولا افندى فهمي . حنا افندى تادرس امين صندوق . جبربل افندى روفائيل الطوخي

وبعد أخذ ورد علا الصياح والضجيج وانبرى أصحاب المآرب يقدحون في المصلحين ويتهمونهم بكل فرية مدعين عليهم بالمروق وانتهى ذلك بالحوادث المعلومة للجميع في سنة ١٨٩٢ . ولا محل لذكرها هنا

فصاحب الترجمة كان من أقطاب هذه الجمعية العاملة . ورغماً عن مشاغله الكثيرة، ولاسيما وأن نفسه كانت طامحة الى الارتقاء، فأنه ما كان يهمل العمل في مايعود على امته بالفلاح والنجاح وظلّ من اعضائها المفكرين في مصلحتها مبرّاً بايمانه التي أقسمها يوم التأسيس حتى لبّى ربه . وأفكاره وأراؤه تتبين من خلال خطبته التي تلاها في يوم الجمعة (٦ مايو ١٨٩٢)[1]

ومن هذه الخطبة تبدو آراؤه ومقاصده وغيرته ظاهرة للعيان وتشف عن أمياله الاصلاح الحقيقي . وبعد مرور أدوار كثيرة على الجمعية جدد انتخاب اللجنة الادارية للجمعية فكان المترجم من اعضائها وفي يوم ١١ ديسمبر سنة ١٩٠٩ انتخب نائباً لها فكان انتخابه الأخير فاتحة خير على الجمعية إذ فتح باب الاصلاح الذي اغلق أمامهم لتلافي الخلل الذي استفحل أمره. وبمجرد أن وضع يده أخذ يثير في أفئدة الأعضاء الميل الى العمل في سبيل ترقية الشؤون العامة . وقد جمع يوماً ابناء الامة للمباحثة في الأمور الملية حاضاً إياهم على العمل بلا توان مجدداً أسباب النهضة الأولى إلا ان الآراء انقسمت معللين توانيهم هذا بأن يتركوا هذا « الشيخ الكبير » ليختم أيامه بسكون غير عالمين ان الايدي العاملة تعمل دواماً لمصلحتها . ولقد ذكر في هذا الاجتماع تاريخ الحركة الاصلاحية وما كان من تفاني المصلحين في

(١) تجد صورة هذه الخطبة في مكان آخر

الخدمة منذ عهدها الأول وألقى فيه صاحب الترجمة خطبة رنانة [١]

ناهيك بالحفلة التي أقيمت لاحياء الفنون القبطية القديمة وجمعت كثيرين من رجال الفضل والآنسات .

وبالجملة فانه لم تبدأ حركة صغيرة أو كبيرة في الجمعية إلاّ وكان من المحرّكين لها وكفى شاهداً بأعمال هذه الجمعية مدارسها للبنين: ابتدائية وثانوية. وللبنات. ومدرستها الصناعية بما فيها المطبعة. واعمالها الخيرية الأخرى. وهي تجمع في هذه المدارس كلها جميع طبقات الأمة المصرية بلا اختلاف بين جنس وآخر أو مذهب أو دين.

وقد انتخب صاحب الترجمة في الثلاث رئاسات التي تولت الجمعية . فالأولى منذ تأسيسها الى تاريخ انتخاب المجلس الملي الثالث أي من ٢٤ اغسطس سنة ١٨٩١ الى ٢٩ يونيه سنة ١٨٩٢ . وكان فيها سكرتيراً كما تقدم . والثانية مدة رئاسة ميخائيل بك شاروبيم التي دامت لغاية أبريل سنة ١٨٩٦ وكان سكرتيراً لها لغاية اكتوبر سنة ١٨٩٢ وبعد ذلك كان عضواً في لجنة الادارة والثالثة برئاسة الدكتور ابرهيم بك منصور وتبتدئ من أول مايو سنة ١٨٩٦ لغاية الآن . وقد انتخب من سنة ١٩٠٩ نائباً للجمعية كما ذكرنا

هذه أعماله في جمعية التوفيق ذكرتها آخذاً ملخصها من بين بطون الأوراق كما جاء في تقارير الجمعية وفي مجلتها ونشراتها وقوانينها وكلها تدل على انه كان مثال العامل النشيط الذي ظل يعمل حتى لاقته منيته

وقد جاء عنه في تقرير الجمعية عن سنة ١٩١٤ ما يأتي :

« لم تكن السنة المنصرمة التي نكتب عنها هذا التقرير من السنوات

(١) تجد صورتها في الصحائف الآتية

الميمونة الطالع في تاريخ جمعية التوفيق. وكفاها نحساً ان نُـكبت فيها الجمعية بوفاة عامل قدير من خيرة العاملين فيها . وانهيار ركن كبير من اركانها الشاهقة. هو المغفور له عطيه بك وهي نائب رئيسها

انتقل المرحوم عطيه بك في مساء يوم الخميس ٢٨ نوفمبر سنـة ١٩٢٤ بعد ان عانى آلاماً مبرحة في مرضـه الذي لازمه اكثر من سـنة . فعدت الجمعية وفاته خطباً أليماً . ورزءاً شديداً . واضافت اسم نائبها المنتقل الى اسماء ابطالها الذين جاهدوا الجهاد الحسن في سبيل انجاح مقاصدها الاصلاحية . وذهبوا بسلام الى دار السعادة الابدية المعدة للمجاهدين المخلصين

وإنه ليحزننا معاشر أعضاء لجنة الادارة ان نذكر في تقريرنا هذه السنة خبر الفاجعة التي وقعت علينا بانتقال زميل عزيز وصديق كريم مثل المرحوم عطيه بك . ذلك الزميل الذي طالما صدرت تقارير الجمعيـة السنوية مدبجة بآثار قلمه . موشاة بمآثره وخدمه. ولـكننا نكتب هذا الخبر وقلوبنا تتفجع . ونفوسنا تتوجع أسى وحسرة . لاحيلة لنا الاّ التسليم لمشيئة الله وقضائه

ولاشك عندنا في ان جميع حضرات اعضاء الجمعيـة وانصار مبادئها في كل مكان قد اكبروا مثلنا خسارة الجمعيـة والطائفة في فقيدنا المحبوب . وهم يعترفون بأنه قد ترك بعده فراغاً عظيماً . ويشعرون معنا بأن موّته قبل أن يرى طائفته العزيزة عنده نائلة كل ماتتمناه من المآرب الاصلاحية كان ضربة قاسية موجعة. لاسيما وأن الفقيد رحل وهو في سن القوة والنشاط. حيث كان ينتظر ان يخدم امته بما وهبه الله من الغيرة والعزم اضعاف ماخدمها به في الماضي

ولاحاجة الى القول بان المرحوم عطيه بك كان ذا صفات نادرة . فان ذلك معروف للجميع. وحسبه شهادة ان خبر وفاته نزل كالصاعقة على قلوب

المئات والألوف من أصدقائه ومريديه الذين تكأكأوا حول نعشه. وسكبوا دموعهم السخينة على قبره . بل حسبه اعترافاً بحميد مناقبه . وجليل آدابه . وسمو مبادئه . ماجادت به قرائح الشعراء والخطباء في الحفلتين اللتين اقيمتا لتأبينه . وأحدى تينك الحفلتين اقامتها جمعية التوفيق في ٢٦ ديسمبر الماضي حيث حضرها عدد جم من أهل الفضل والذين يقدرون قيم الرجال وخطب فيها فريق من اعضاء الجمعية هم: حضرات تادرس بك شنوده المنقبادي. وفريد افندي كامل. وتوفيق افندي عزوز. وسليمان افندي زكي. وجندي بك ابراهيم

اما الحفلة الاخرى فاقامها اخوانه ومرؤوسوه في هندسة السكة الحديد قياماً بحق الولاء له

وان الجمعية لاتقدر ان تكرم اسم المرحوم عطيه بك باكثر من الرجاء الذي تقدمه لابناء الامة بأن يخدموا امتهم مثل ما خدمها فقيدنا العزيز . رحمه الله وجعل نعيم الابرار مثواه » اهـ .

في جمعية النشأة (١)

يشقّ عليّ كثيراً أن يخط يراعي شيئاً عن فقيد الجهاد المبكي عليه عطيه بك وهبي بعد ان تعاهدنا على خدمة طائفتنا المحبوبة بما تمليه عليه غيرته الصادقة ويرسمه من الخطط المفيدة لنتعاون على العمل . وقد رأيت وجوب إذاعة فضله خصوصاً ما ربما يجهله البعض عن علاقته بجمعية النشأة القبطية في

(١) بقلم حضرة الباحثة توفيق افندى اسكاروس

أبان تأسيسها بحارة السقايين أولاً وعن اهتمامه بمشروع كلية البنات التي كانت شغله الشاغل ثانياً فأقول :

لا يختلف اثنان في ان المرحوم عطيه بك كان شعلة ذكاء وكلنا نذكر له خدماته الصادقة بغيرة متناهية في كل مشروع طائفي مفيد تأكد تحقق نفعه ومعلوم أن المشروع الوحيد الذي ظهر بأتم معانيه من الوجهة الاصلاحية جهاراً أنما كان تأسيس جمعية التوفيق المركزية وكان المجاهدان فيه المرحومين رفله افندي جرجس المنتخب رئيساً عاملاً . والمترجم سكرتيراً . والحق يقال ان عمل جمعية جديرة مثلها في موضوعها يقتضي له حنكة غريبة واقتدار بعقل ورزانة يقاومان تيار الحركة والآراء التي كانت مختمرة بالافكار اذ ذاك. فظلا يجاهدان ويحضّران النشرات ليل نهار الى وقت عرضها على الاعضاء العديدين الذين كانوا لا يقلون عنهما غيرة فلا يقرّون لفظة واحدة بغير تمحيص مبنىً ومعنىً وما زالوا جميعاً في كفاح حتى ركزت اعمال الجمعية على أساس ثابت وهي الى اليوم مدعمة الاركان بفضلهما وفضل المؤسسين والمشتركين الغيورين مما أفرد له باب خاص في هذا الكتاب

وفي ١٨ برمهات سنة ١٦١٢ (مارس سنة ١٨٩٦) تأسست جمعية النشأة من اثني عشر عضواً على ثلاثة مبادئ رئيسية: (١) الحث على درس اللغة القبطية وتشجيع المشتغلين بها علماً وعملاً (٢) تدريس قواعد الدين تفسيراً ووعظاً (٣) جمع تاريخ وافٍ للاقباط على قدر الامكان

فمن جهة المبدأ الاول كان المرحوم نجيب افندي سمعان يدرسها للاعضاء و لمنتسبين زمناً هو وحضرة اقلاديوس بك لبيب. وكان المترجم من المنضمين لها . وعن التدريس الديني فان المرحوم ابراهيم بك روفائيل اللاهوتي الشهير

أقام بمهمته بما أنار له طريق حياته الأخرى وتبعه الوعاظ من المدرسة الاكليريكية بعد تصريح غبطة الأب البطريرك . أما عن المبدأ الثالث وهو تاريخ الامة فان فوائده وأهميـة جمعه لا تحتاج الى زيادة ايضاح. وقد كان المرحوم عطيه بك عضواً مهماً في اللجنة التي أصابت فيما رأت بعد البحث والمناقشة من أن الطرق الموصلة للغرض هي (١) تشكيل لجنة من أعضاء الجمعية للقيام بهذا العمل (٢) استحضار المؤلفات اللازمة من مكاتب أوربا العمومية والخصوصية وغيرها وجمع ماتحقق صدق روايته وترجمته وضبطه (٣) جمع الميامر للقديسين والشهداء الموجودة بالـكنائس لاستنباط الفوائد التي كانت متبعة في البلاد والـكنيسة (٤) جمع المصنوعات القبطية وترتيبها بحسب أقدميتها على قدر الامكان (٥) حث جميع الاقباط لمساعدة الجمعية في اتمام هذا العمل مادياً وأدبياً[1] .

وقد بدأت اللجنة المخصصة للتاريخ بتنفيذ الاهم من هذه الوجوه بتعيين لجنة مشكلة من أعضاء الجمعية ومن يريد الانضمام لها من ذوي الخبرة والذكاء الذين لايودون الاشتغال إلا في جمع تاريخ وافٍ وبدت نفحات هذه المهمة

(١) جاء بجريدة مصر الغراء بتاريخ ٣٠ ابريل سنة ١٨٩٦ مايأتى :

اجتمع غروب أمس أعضاء جمعية النشأة القبطية بمركزها الـكائن بحارة السقايين وبعد سماع بعض آيات الـكتاب المقدس تلاحضرة الفاضل عطيه افندى وهى موضوعه الاقباط في عصر الرومان فـكان لـكلامه أحسن وقع في النفوس وستداوم هذه الجمعية اجتماعاتها فى غروب كل يوم سبت واثنين من كل اسبوع لدرس اللغة القبطية وفى غروب كل يوم أربعاء ايضاً للدرس الدينى وقد اجتمع اعضاؤها أول مرة لدرس اللغة القبطية بمساء يوم الاثنين الماضى وقام بتدريسها فيهم حضرة نجيب افندى سمعان وقد أظهر الاعضاء مزيد رغبتهم فى درسها فنتمنى لهم كل فلاح ونجاح

بالقاء محاضرات تاريخية مهمة نأسف جداً لعـدم تدوينها في مذكرات أو استبقاء نصوصها . على ان مافات كله لا يترك جله فسيرى القارئ بعد في باب المحاضرات ما ألقاه المرحوم منها .

وتصادف آنئذٍ حضور أحـد علماء الروس لمصر هو المرحوم اسكندر بتروفتش سالومون [١] من كبار أمناء البـلاط الروسي سابقاً فاستدعاه المرحوم عطيه بك للجمعية بصفتها الجمعية الحية التي تدرس تاريخ أمتها المجيد فحضر في جلسة كان المرحوم ابراهيم بك روفائيل الطوخي يلقي فيها عظاته فأعجب الزائر بالالقاء وما رأى من احتشاد الجمع وما يبـدو على الحاضرين من الغيرة الدينية حالما وقف على الملخص معرباً الى الفرنسوية بمعرفة المترجم وفي آخر الجلسة رحب به رئيس الجمعية جرجس افندي وصفي وطلب منه لو تكرم بالقاء محاضرة تاريخية فلبى الطلب وألقاها بالفرنسوية ارتجالاً بقاعة الجمعية في ليلة الاربعاء ٢٩ ابريل سنة ١٨٩٦ وقد وعى جملها اختصاراً المترجم وترجمها للحاضرين فأعجبوا بها أيما اعجاب وختمها الزائر الـكريم بتمنياته القلبية أن يرى نتيجة اتعاب أعضاء هذه اللجنة التاريخية بالجمعية أعمالاً تعود بالنفع الطائفي لرفع شأن أمة عريقـة في المجد واظهار تاريخها المفـعم بالنور والعرفان وجمع شذرات حاوية وقائع وحوادث وأخبار وروايات قبطية محضة أو رقاع مكتوبة بالقلم القبطي القديم التي تشهد حالتها بدرجة قدمها وأهميتها وكم كان سرور المترجم من الخطيب حين القائه هذه النصائح النافعة فما تمالك

---

(١) زار الجناب العالي الخديوي ومعاهد علمية ودعي لالقاء محاضرة نفيسة فألقى واحدة باللغة الفرنسوية في المعهد العلمي المصرى في ٢ مايو سنة ١٨٩٦ عنوانها مصلح قبطي في الجيل الثانى عشر (يشير بذلك الى مرقس بن القنبر في دير القصير . ونشرت بمذكرات المعهد عن سنة ١٨٩٦) .

ان عقب على خطبته بالفرنسية مؤملاً اتمام رغائبه بعد ان شكره لتفضله باجابة طلبه وتنازله بالتشريف وكذلك رئيس الجمعية (١).

وكان أول نتيجة لهذا العمل اتحاد الآراء لاظهار نتيجة سنوية من سنة ١٦١٤ عن أنفس المخطوطات القديمة وأصحها مقتبسة من صنع المصريين احياء

(١) جاء بجريدة مصر الغراء بعددها الصادر في أول مايو سنة ١٨٩٦ تعقيباً على كلامها السابق ما يأتي:

(احتفال جمعية النشأة القبطية)

في منتصف الساعة السابعة بعد ظهر أول أمس عقدت جمعية النشأة القبطية جلستها الاعتيادية وكان عدد الحضور فيها يزيد عن المائة وخمسين شخصاً فابتدأ حضرة الفاضل ابراهيم بك روفائيل بشرح الاصحاح الثالث من انجيل متى بعبارات تدل على عظيم اهتمامه بدرس العلوم الدينية وبعد الفراغ من شرح الانجيل دعى حضرة الأديب عطيه افندى وهبي لالقاء مقالته التى عنوانها (الاقباط في عهد الرومان) فابتدأ باظهار أهمية هذا العهد بالنسبة للعالم بوجه عمومي والاقباط بنوع خصوصي ثم تكلم عن انتشار النصرانية وتأسيس كنيسة الاسكندرية ووجود اللغة القبطية وابتداء تاريخ الاقباط على أثر الاضطهادات الهائلة التى حصلت لهم بسبب اختلاف العقائد الدينية وأتى على شرح أهم تلك الاضطهادات واسترسل في الكلام الى الوقت الذي تولى فيه الامبراطور هرقل على كرسي القسطنطينية وتسلط فيه الاسلام على مصر سنة ٦٤٠ بعد الميلاد ثم استلفت صاحب المقالة الانظار الى ثبات بطاركة الاسكندرية في ذلك العهد مع ما كانوا يلاقونه من الصعوبات وتكلم عن درجة تنورهم الفائقة وارتباطهم بالافراد وارتباط الافراد بهم وما كان للبطرك إذ ذاك من النفوذ حتى صار فى البلاد صوته أقوى من صوت الحاكم المدني وختم كلامه بتنبيه الافكار الى لزوم درس جميع تلك الحوادث بالتفصيل مظهراً الاسف من اغفال الاقباط لها بينما يعيرها الاوربيون جانباً عظيماً من التفاتهم ولما كان جناب المسيو اسكندر سالومون بتروفنتش المهتم بدرس تاريخ الاقباط قد تكرم بزيارة الجمعية في هذه الجلسة فقد قدم له حضرة عطيه افندي وافر الشكر على هذه الزيارة وأثنى على جنابه الثناء الجميل.

لآثارهم . وما زالت بحمد الله تظهر في مواعيدها . كذلك قام وقتها حضرة مينا بك اسكندر المحامي اليوم بطبع ما يختص بالاقباط في كراسة منقولة من الجزء الثاني من كتاب الخطط والآثار للعلامة تقي الدين أحمد المقريزي المتوفى سنة ٨٢٠ للهجرة دعاها بالقول الابريزي .والمقريزي هذا أكبر من توسع في ذكر شؤون الاقباط وكنائسهم وأديرتهم لذلك نرى مستشرقي الاوربيين يستندون على مؤلفه وقد قابل مسيو ده ڤيت العضو بالمعهد العلمي الفرنساوي عدة نسخ من مخطوطات قديمة وضمنها نسخة في مكتبة الدار البطريركية القبطيـة الارثوذكسية (كانت في ملك عبـد الرحمن الجبرتي المؤرخ المشهور وعليها خاتمه) وهو لليوم يباشر طبعها في مذكرات المعهد بخط واضح مع تعليقات نافعة وكذلك تمنى غيره من العلماء كالأب چيرار P. Girard المتعمق في درس الآداب القبطية وحادث المترجم بوجوب جمع كل ما له علاقة بالاقباط من تاريخ وآداب وسير ليستخلص منه النافع المفيد وبناء على طلب الفقيد كان هذا القس يكلف نفسه المشاق والنفقات للحضور من مركز المعهد العلمي بالمنيرة الى جمعية التوفيق من نحو عامين لالقاء محاضرات نفيسة من فيض معلوماته وعلمه وكان يعطي دروساً للمجتهدين باللغة القبطية وتخرج عليه بعضهم وفي مقدمتهم المترجم .

ولا يفوتنا ذكر استنساخ أحد اعضاء الجمعية يوسف افندي خليل لسير البطاركة لساويرس بن المقفع اسقف الاشمونين بخطه لغرض طبعه يوماً ما على نفقة الجمعية ومع ذلك فان النتيجة تظهر فيها كل عام شذرات مفيدة قديمة في المواضيع المهمة التاريخية والشؤون الزراعية مضافاً اليها أهم حوادث كل عام والوفيات .

واذا ساقنا الحديث الى مشروع كلية البنات فاني لا اتعرض له الا بقدر

ما طبع في نتيجة عام ١٦٢٩ التي خصص صافي ايرادها للمشروع الحيوي هذا والفضل كل الفضل فيه للمترجم بلا نزاع فهو قطب الدائرة ونقطة العمل المركزية ولم تطبع الملزمة الخاصة بتاريخ المشروع في النتيجة ذلك العام خصوصاً وتاليتها إلا بعد اطلاع المرحوم عطيه بك وفي العام الأخير ناب عنه حضرة فريد افندي كامل سكرتير لجنة الكلية واني لاتقل الخطابات التي تبودلت بينه وبين غبطة البطريرك والرؤساء كنيافة مطران الحبشة ومقدار تبرعاتهم تقديراً لغيرته وفضله .

وهذا نص الخطابين اللذين تبودلا بينه وبين غبطة الأب البطريرك :

خطاب صاحب الترجمة :

ان لجنة كلية البنات القبطية التي تعتبر نفسها مدينة لفضل قداستكم لما شملتموها من عنايتكم العالية وأنظاركم السامية بوضعكم مشروعها تحت رعايتكم الشريفة يسرها وهي على أبواب عام جديد أن تذكر لغبطتكم هذا الفضل الذي ساعدها كثيراً في العامين المنصرمين وسهل عليها مهمتها وجعل من أبناء الأمة من يقبلون ومن يظهرون استعدادهم للاقبال على المشروع بقلوب فرحة وخواطر راضية حتى أصبحت تؤمل في العام الجديد الذي هو سنة ١٦٢٩ أن يأتي حاملاً على يديه غصن الزيتون الاخضر وبالتالي البشرى المثبتة بقرب ظهور الكلية ووضع أساس بنائها الشائق بعد أشهر قليلة فيكون هو أفضل الاعوام طراً وأعطرها ذكراً وأعظمها فخراً في تاريخ العهد الكبير .

ولما كان لكل عام جديد هدية أو تذكار يتجدد به عهد الاخلاص والولاء فلجنة الكلية التي قامت خصيصاً لاجل تحقيق هذا المشروع رأت أن تقدم لغبطتكم بيد الخضوع والاحترام نسخة من التقويم القبطي لسنة

١٦٢٩ وهو التقويم الذي تصدره جمعية النشأة القبطية سنوياً مزيناً برسم شخصكم الكريم وقد جادت بدخله في هذا العام لمساعدة المشروع . فاذا تنازلتم الى قبول هذا التذكار الصغير تضيفون منة جديدة بمناسبة العام الجديد الى ماسلف من منكم وتشجعون اللجنة فوق ماشجعتموها به في الماضي على التفاني في العمل لانجاز هذا المشروع الخطير. وفي الختام أرفع الى مقام سدتكم الرسولية خالص التهاني القلبية بحلول هذا العام أدام الله سنيّ رئاستكم على كرسي مار مرقس سنيّ خير وبركة وسعادة وتفضل ياغبطة السيد الجليل بقبول عظيم الاجلال والاكرام .

ولدكم المخلص

الفاهرة في ٨ سبتمبر سنة ١٩١٤ (الامضا) عطيه وهبي

وهذا هو الرد

عزتلو حضرة الابن المبارك عطيه بك وهبي بارکه الله تعالى

بعد منحكم البركات الرسولية وامدادكم بصالح الادعية الخيرية واهدائكم السلام لروحي بمنه تعالى تكون بنوتكم وحضرات اولادنا المباركين أعضاء لجنة الكلية بغاية ما نرجوه جميتكم من الصحة ودوام السعادة والرفاهية . قد ورد نظرفنا خطاب عزتكم والنتيجة التي بعثتم بها الينا وتقبلنا ذلك بالممنونية لمحبتكم ونرسل ضرس البركة هذا لبنوتكم اظهاراً لمرضائنا عن العمل العظيم القائمين به أنتم وخوانكم أعضاء لجنة الكلية المشار اليها ونسأله تعالى أن يساعدكم ويوفقكم جميعاً لى نجاح هذا العمل المبارك وكل عام وجميعكم بغاية الصحة والطمأنينة ونعمة الرب تشملكم وله المجد دائماً

الختم

كيرلس بطريرك
الكرازة المرقسية

الاسكندرية في ٤ النسي سنة ١٦٢٨ — ٩ سبتمبر سنة ١٩١٢

وهذه صورة خطابه لنيافة مطران الحبشة

القاهرة في ٢٢ يونيه سنة ١٩١٤

قداسة الحبر البار الانبا متاؤس الاول فخر الكنيسة القبطية الارثوذكسية ورأس كنيسة المملكة الحبشية

أقدم لمقام قداستكم الجليل مراسم التكريم والتبجيل . وبعد فلا بد ان تكونوا نيافتكم قد علمتم بسرور ما كان من نهضة ابنائكم الاقباط في العهد الأخير وقيامهم بمشروع انشاء كلية جامعة للبنات عملاً بنصيحة مصلح مصر الكبير جناب اللورد كرومر وتنفيذاً لرغبة نابغة الاقباط المرحوم صديقكم بطرس غالي باشا الذي رأى بثاقب فكره ان لا نجاح ولا رقي حقيقي لابناء أمته الا اذا رضعوا من ثدي أمهاتهم مبادىء العلم والتربية الصحيحة. وان ذلك لا يكون الا اذا كانت الامهات متعلمات راقيات فاضلات. ولما كان المشروع خطيراً يحتاج الى مداومة العمل واستمرار توجيه العناية والاقباط على ما فيهم من غيرة وهمة في حاجة الى دوام الحث والاستنهاض رأيت لما لنيافتكم من المكانة العالية والمنزلة الرفيعة في قلوبهم ولما هو مأثور عنكم من الميل الغريزي الى تعضيد المشروعات الجليلة والاشتراك في الاعمال النافعة المفيدة ان ابعث لقداستكم بخطابي هذا على غير معرفة خصوصية ولكن اعتماداً على تلك المعرفة الروحية التي يعرفكم بها ابناؤكم وتعرفونهم بها راجياً ان تمدوا يمينكم تقوى الى تعضيد هذا العمل النافع بكلمة تشجيع واستحسان يردد صداها في قلب كل قبطي او بهدية صغيرة على سبيل البركة يقلدكم فيها الكبير والصغير وحبذا لو استعملتم شيئاً من نفوذكم في حمل أحد أمراء الاحباش أو بالاحرى إحدى الاميرات الصغيرات على تعضيد هذا المشروع فأن ذلك يكون له بمصر أعظم أثر فيرفع من شأن الاقباط في نظر مواطنيهم ويوقد نار الحمية في صدورهم ويكون مدعاة لتوطيد دعائم الروابط الادبية والدينية بين الاحباش وبينهم بل ربما كان من نتائجه اتمام مشروع آخر جليل الشأن يدور في خواطر الكثيرين منا وهو انشاء جمعية من فضلاء الاقباط واذكياء الشبان لنشر العلوم والصنائع في الحبشة وانشاء ارساليات علمية ودينية بين البلدين محافظة على ما ناله الاقباط من النفوذ الادبي والديني الكبيرين بفضل همتكم العالية وعقلكم الراجح وذكائكم النادر المثال. ولي أمل كبير أن ينال اقتراحي لدى قداستكم قبولاً لا زلت بدعاء نيافتكم مشمولاً ولا زال الاقباط يفخرون بفضلكم ويتحدثون بذكركم ويكررون الدعوات بحفظ ذاتكم ودمتم لولدكم المخلص ما

وهذه صورة الرد الوارد من نيافة المطران

عزتلو أفندم حضرة الابن المبارك عطيه بك وهبي

غب إهدائكم وإمناحكم البركة الأبوية نبدي اننا بصفتنا أحد رؤساء الأمة القبطية المحبوبة نعجب باقدامكم ونشكركم كل الشكر على اهتمامكم بمشروع كلية البنات وتعضيده بكل مافي وسعكم كما هو الواجب على كل قبطي غيور على أمته ميال لارتقائها ونحن ندعو الله القدير ان يتم هذا العمل المفيد في القريب العاجل بهمة جميع أفراد الامة العزيزة . هذا ونحيطكم علماً بأننا كلفنا البنك الحبشي هنا بأن يسلم عزتكم بواسطة البنك الأهلي المصري مبلغ ثلاثين جنيهاً مصرياً مساعدة لهذا المشروع الجليل فنرجو استلامه والتكرم بافادة الوصول نسأله تعالى أن ينجح مقاصدكم الشريفة ويكلل بالنجاح والفلاح كل عمل خيري تقوم به الطائفة القبطية. إله السلام يكون مع الجميع آمين.

تحريرا بأديس أبابا في ٤ ديسمبر سنة ١٩١٢ . متاؤس

مطران المملكة الحبشية

في سبيل تحرير المرأة

« ان النساء خلقن ليسعدننا لا ليخدمننا »

عظمة سلطان مصر

أردت أن أفتتح هذه الكلمة بنطق كريم فاه به صاحب العظمة السلطان حسين كامل حين تشرفت بمقابلته بقصر عابدين حضرات اعضاء المجلس الملي للطائفة الانجيلية بمصر. و نعم الحكمة بالغة وقول مأثور . على الناس ان يحفظوه في صدورهم ويعودوا في قلوبهم . وان لا يفتأوا عن العمل به أولاً . والمناداة به ثانياً

نعم فالمرأة لم تكن متاعاً يشرى ويباع . ولم تكن للخدمة في ذاتها . ولكن للعمل الصالح المجيد. ومن هذا نشأت فكرة وجوب اشتراك المرأة في حقوق الانسانية العامة

ولهذا المبدأ السامي سعى الفقيد بعزيمة لاتفتر. وفكر وقاد. في سبيل تحرير المرأة. لتنزع عنها ثوبها القديم. وتلبس ثوباً جديداً خالياً من العبر البالغة. ولسنا نبالغ اذا قلنا أنه كان من أركان النهضة الاصلاحية النسائية في البلاد المصرية. حتى أنه لم يكن ليجلس في مجلس يدور فيه الكلام والبحث حول هذا الموضوع. إلا وانبرى بين الجالسين مبدياً آراءه وافكاره بصراحة تامة حاثاً القوم على تقدير حقوق المرأة. واعطائها الحرية التي تتناسب مع مركزها في الهيئة الاجتماعية حاضاً على تربية البنت لتنشأ على العمل القويم والاخلاق الصالحة وطالما سعى ونال ما يتمنى من هذا السعي في أن تظهر المرأة بين مجتمعاتنا العامة. وناهيك بالحفلات التي كانت تقيمها بعض الجمعيات وكان له فيها نعم المسعى القويم. في هذا السبيل الحميد.

وقد كان كثير الاختلاط والتعارف بابناء مصر الذين كان يرى منهم الميل والاقدام على هذه المبادئ الصالحة لرقي المجتمع الانساني. واشترك مع الكثيرين منهم في هـذا السبيل. كما كان يسعى الى استمالة رجال الفضل والعلم من الاجانب لينشروا المبادئ والآراء المتعلقة بالمرأة المصرية في البلاد الاجنبية. علماً منه بما ينشأ عن ذلك من تقدير أهل مصر تقديراً طيباً في عيون أهل التمدين. وعدم اعتبارهم كمية مهملة كسائر أمم افريقيا. هـذا فضلاً عن ان معرفة المصريين باهتمام الاجانب بحالة المرأة عندنا يوجد بينهم شعلة احساس في الأخذ بناصر ترقية حالة المرأة [1] ولما ظهر كتاب المرأة

---

(١) حادث الاستاذ العلامة المرحوم المسيو ريفيو شقيقنا الدكتور نجيب اسكندر عند ما كان بباريس في سنة ١٩١١. فقال: « ان المصريين ليسوا كسائر أمم أفريقيا وآسيا من حيث قابليتهم لأعظم درجات الرقي واننا نعتبرهم كشعب ينفرد فيما جبل عليه

الجديدة للمرحوم قاسم بك امين عرض أن يترجمه الى الفرنسية لنشره بأوربا وهذه صورة الخطاب الذي أرسله له .

Cher Bey

J'ai lu avec un immense intérêt la récente étude que vous venez de publier sous le titre « La Nouvelle femme ». — Cette étude m'a vivement impressionné en ce sens qu'elle met en evidence des idées que je caresse depuis bien longtemps.

Comm je pense, qu'il serait intéressant pour les hommes éminents qui s'occupent de la question féminine tant en Amérique qu'en Europe de connaitre exactement la condition de la femme en Egypte ainsi que les tendances actuelles vers son relèvement, je crois qu'il serait utile de traduire votre œuvre en une langue européenne — Aussi, viens-je vous prier de m'autoriser à la traduire en français.

Comme tous les Egyptiens à quelque religion qu'ils appartiennent sont intéressés au relèvement de la femme, je considère comme un devoir de participer par cette traduction à la propagation de vos idées humanitaires.

Veuillez agréer, etc.

Caire le 30 Janvier 1901

من الذكاء ولطف المعشرة عن سكان تونس وطرابلس والجزائر ومراكش والشام مثلا. فشعبكم شعب أصيل في التمدين وعنه أخذت بقية الامم شيئاً كثيراً من أصول المدنية» ومن هذا قبيل ما قاله في سنة ١٩١٢ الاستاذ الكبير المسيو اميلينو من أكبر علماء الآثار المصرية في احدى قاعات جامعة السوربون بباريس بعد ان فرغ من القاء محاضرة عن « الاب شنوده » موجهاً كلامه الى شقيقي الذي كان حاضراً هذا الاجتماع. « انظر يادكتور الى هذا البناء الشاهق والى هذه القاعة والى هذه المقاعد والى هذا المنبر والى أدوات الكتابة . أليست هذه كلها مأخوذة عن مصركم العزيزة » . وأخذ يذكر ما كان لمصر من علو الكعب في العلوم والفنون والصنائع . ومن هذا نرى ان اجتذاب أمثال هؤلاء العلماء نحونا مما يفيدنا كثيراً في رقينا المنشود .



المرحوم قاسم بك امين

وهذه ترجمة الخطاب المذكور

عزيزي البك. قرأت باهتمام عظيم كتابك الحديث الذي نشرته بعنوان « المرأة الجديدة ». وقد اعجبت كل الاعجاب بهذا الكتاب لأنه أعلن عن أفكار أقدسها من زمن طويل. ولما كنت أرى انه من المفيد لكبار الرجال الذين يشتغلون في مسألة المرأة سواء باميريكا أو بأوربا ان يعرفوا حالتها بمصر تماماً والاميال الحالية نحو رقيها . أجد من الحسن ترجمة مؤلفك للغة وربية ولعلكم تسمحون لي بترجمته الى الفرنسية . ولما كان المصريون من كافة الاديان يهتمون برقي المرأة . فأرى من الواجب ان اشترك معكم بهذه الترجمة في نشر ارائك العالية .

وتفضل الخ مصر ٣٠ يناير سنة ١٩٠١

فرد عليه صاحب الكتاب بخطاب هذا تعريبه :

مصر في ٢ فبراير سنة ١٩٠١

سيدي العزيز

اصرح لكم كطلبكم بترجمة كتابي « المرأة الجديدة »

وفي الواقع أني اجد من المفيد للعالم الاوربي معرفة حركة الانقلاب الآخذة في تغيير اخلاقنا الحالية . وأكون سعيداً اذا قابلتك واني اكون بالمنزل دائماً لغاية الساعة الرابعة بعد الظهر ؟ المخلص

قاسم امين

وننقل الخطاب هنا بخط المرحوم قاسم بك امين بالفرنسية عن صورته الأصلية

Le Caire le 2 février 1901

Mon cher monsieur

Je m'empresse de vous accorder l'autorisation que vous me demandez pour traduire mon livre "la nouvelle femme".

Je crois en effet qu'il y aurait quelque intérêt pour le monde européen à connaître le mouvement d'évolution qui est en train de transformer nos moeurs actuelles.

Je serais heureux de vous voir. Je suis toujours chez moi l'après midi jusqu'à 4 heures.

Votre dévoué

Kassem Amin

rue el Falaki

فأخذ صاحب الترجمة في ترجمة الكتاب . وخابر كثيرين من اصحاب المكاتب بفرنسا من أجل طبعه . ولكنهم اعتذروا عن طبعه بالنسبة

لنفقاته. على ان هذا لم يثنِ عزمه عن السعي في نشر بعض فصول الكتاب في المجلات الفرنسية [1]

وقد كان له في أوربا كثير من الاصدقاء الذين كانوا يعاونونه في نشر ارائه وبث الفكرة عن تربية المرأة المصرية باوربا . ومن معارفه السيدة فنويك ملر التي ذاعت اراؤها وشهرتها في انكلترا وامريكا بما القته من الخطب الشائقة والمباحثات الرائقة في موضوع تحرير المرأة [2]

---

(١) مما جاء عن هذا الموضوع خطاب بتاريخ ٢٣ مارس سنة ١٩٠١ للفقيد من السيو أزامبيز من محرري مجلة « العلوم الاجتماعية » لمديرها السيو أديمون ديمولان. ما يأتي: « أهنئك للعمل الذي قمت به وأكون سعيداً جداً لو أمكنكم عمل ملخص للكتاب لينشر في مجلة « الحركة الاجتماعية ».

واني أتمنى لكم النجاح . وعمل الخير الذي ترتجيه .

ألا يمكنكم أن تقتطفوا جزأ من ترجمتكم وتعلقوا عليها موضوعاً كبحث في الحالة الحاضرة . لينشر في مجلة « العلوم الاجتماعية » .

(٢) كتب عنها صاحب الترجمة بتاريخ ٤ فبراير سنة ١٩٠٣ ما يأتي :

في مصر الآن سيدة انجليزية لها في عالم التحرير والخطابة مقام كبير وشهرة عظيمة هي مسز فنويك ملر التي عرفت في انجلترا والولايات المتحدة بمؤلفاتها المفيدة ومقالاتها الرنانة ورسائلها الطنانة خصوصاً في جريدة اللاستراتيد لندن نيوز Illustrated London News . وكل أبحاثها أدبية لذيذة مفيدة فقد كتبت عن تاريخ المرأة وحالتها الحاضرة وحقوقها وتقدمها وأمانيها وخطبت في هذه المواضيع الادبية مرات كثيرة في أشهر الجمعيات وأكبر النوادي الادبية في لندن وغيرها من المدن الانكليزية الكبيرة حتى أصبحت من قواد الرأي العام في بلادها — نشأت هذه السيدة في لندن. وتلقت العلوم في أعظم مدارسها . ولما بلغت الثامنة عشرة رحلت الى أدنبرا لدرس الطب في كليتها فبرعت في كل فروعها وفازت في الامتحان ثم عادت للندن. ولما لم تسمح لها قوانين البلاد إذ ذاك بممارسة هذه المهنة عكفت على درس الادب والاشتغال بالخطابة فاكتسبت

ولما قابلت صاحب الترجمة بمصر على اثر محاضرته عن المرأة الفرعونية في المجمع العلمي المصري كتبت عنه في الجرائد الانجليزية ومنها جريدة لندن

شهرة عظيمة وصار للجمهور بها ثقة تامة حتى اذا بلغت الثانية والعشرين انتخبت عضواً في مجلس ادارة المدارس في لندن وهو مركز خطير يتلو مركز عضو البرلمان فجعلت كل همها توسيع نطاق تعليم البنات وتهذيبهن. فاشتغلت في هذا السبيل بقلمها ولسانها حتى حازت ماحازته الآن من الشهرة الفائقة والمقام الكبير. وهي اذا أعلنت يوماً عن عزمها على الخطابة في احدى الجمعيات هرع العلماء والادباء لسماعها . واذا تكلمت سحرت العقول وسلبت الألباب برخيم صوتها وفصيح لفظها ورقيق عبارتها .

ولهذه السيدة بضواحي لندن مقام جميل تستقبل فيه مرة في الاسبوع جمهور العلماء والادباء من سراة الاميريكان والانكليز فيدور الحديث في مواضيع شتى وتبقى هي غالبا صاحبة القول الفصل والرأي السديد .

وقد سافرت الى الولايات المتحدة في سنة ١٨٩٣ بدعوة من مؤتمر السيدات وبدعوة من أرباب الجرائد في معرض شيكاغو فما وطأت قدماها أرض أميريكا حتى قامت الجرائد والمجلات ترحب بها وتذكر صفاتها ومحاسنها وتثني على همتها وتلهج بمدحها فجاءتها الكتب تترى من الجمعيات والنوادي العلمية تلتمس منها الخطابة فعقدت عدة اجتماعات لهذا الغرض حضرها مئات وألوف من رجال الادب وربات الجمال وقد بقيت طول مدة اقامتها في الولايات المتحدة موضوع اكرام واحترام زائدين. ثم عادت لانكلترا وكلها ألسنة تلهج بمدح سيدات الاميريكيات وآدابهن وكرم أخلاقهن فاحتفلت عقيلات لندن باستقبالها احتفالاً عظيما. وتوجهت أيضاً الى أميريكا في السنة الماضية بدعوة من جمعية المطالبة بحقوق الانتخاب في واشنجتون وهي كانت منتدبة من قبل هذه الجمعية في انكلترا فخطبت في أشهر بلادها كبوستن ونيويورك وفيلادلفيا وقد مضى عليها عشر سنوات وهي تكتب المقالات الضافية في اللاستراتد لندن نيوز وجرائد ومجلات أخرى.

وقد قدمت مصر الآن طلباً للراحة وترويحاً للنفس من عناء الاشغال فآنست بلقائها على أثر مقالتي في المجمع العلمي فلقيت منها علماً وذكاء وفصاحة وظرفاً ورقة ودعة وقد تجاسرت والتمست منها أن لاتضن على أبناء مصر بفصاحة لسانها ودرر ألفاظها ونافع نصائحها فاعتذرت عن قبول هذا الالتماس ريثما تعود من الوجه القبلي حيث عزمت على الرحيل في القريب العاجل لمشاهدة الآثار وتبديل الهواء بين الاقصر واصوان. اه .

ديلي نيوز. وقد عثرنا على كتاب ألفه المستر كروسلاند عنوانه «المرأة الجميلة» بحث فيه عمّا يتعلق بالمرأة في العالم وخصّ بحثه عن علاقة المرأة برقي الامم ورأينا فيه تنويهاً عمّا كتبته السيدة فنويك ملر في جريدة «الدايلي نيوز» عن المرأة المصرية

وقدجاء في ذلك الفصل ما يأتي :

« في يوم ٢٣ مارس سنة ١٩٠٣ تصفحت جريدة «الدايلي نيوز» وفي هذه الجريدة مقالة كتبتها السيدة فنويك ملر أهم ما جاء فيها يحوم حول « تحرير المرأة الشرقية » «والمرأة تحت حكم الفراعنة » و«النسوة المصريات » وجاء فيها ما يأتي : « لقد ظلّت المرأة اجيالاً طويلة تحت قيود العبودية . . . . محرومة من مشاركة الرجل في الاعمال الاجتماعية . فيصعب بذلك عليها القيام باي عمل، مهما كان نوعه، خارج دائرة الاعمال المنزلية ـ فليتصور القارىء نساءنا الكاتبات والمرضات والطبيبات والقائمات بالاعمال اياً كانت. ليتصور أنهن مسجونات في منازلهن ، خافتات الصوت وقد ذهبت عنهنّ دلائل النجابة . وحلّ محلها الجهل المطبق ، سيان في ذلك العلم والحياة »

ولقد صادفت مدام فنويك ملر مؤلفاً ماهراً «مصرياً بحتاً يشغل منصباً في الحكومة» اسمه المستر عطيه وهي: « وهو من فئة الشبان الذين أحبوا بلادهم ويعملون على اعلاء الروح الوطنية فيها واعادة مجدها التالد المجيد لها . فبحثوا فيما أدّى الى انحطاطها ورأوا أن العامل الرئيسي في ذلك هو مركز المرأة المصرية في الهيئة الاجتماعية . وهذا النفر من الشبيبة الراقية يرى أن درجة الحرية المعطاة للمرأة في الأمم هي منشأ الخلف بين الامم الشرقية والغربية .

« فالاميريكان والانجليز هم قادة العالم اليوم في النجابة والآداب والحرية السياسية والنجاح الاقتصادي وهما الامتان اللتان ادركتا تماماً قيمة مساواة المرأة بالرجل في الحقوق.

« وكذا الحال مع باقي الامم الغربية فالمشاهد فيها ان درجات رقيها تختلف باختلاف النجاح وتقدم نظامها العائلي وبقدر ما يمنحونه للمرأة من حقوق المساواة . فالنتيجة التي تأخذ بها هذه الفئة الراقية المتعلمة من المصريين هي أن بلادهم في حاجة

عظمى الى العمل على رفع الحجاب واباحة التعليم والعمل ، ومنح شريكاتهم في الحياة وأمهات المستقبل المساواة الأدبية بهم »

وزادت السيدة على ذلك بقولها: « منذ أربعة آلاف سنة كانت مصر مهد الفنون والعلوم والديانة والآداب والفلسفة » وهي تؤكد ان المستر وهبي مقتنع تمام الاقتناع بأن مصر كانت بين الامم القديمة البلد الوحيد الذي أقر المرأة كافة حقوقها . وان المرأة المصرية لم يكن لها المركز السامي في الحياة العامة فقط بل كانت لها كل الحقوق العائلية وأنه : « كان عقد الزواج عند المصريين مقدساً تستوي فيه حقوق الزوجة بالزوج فقد كانت مساوية للرجل في الادارة المنزلية التي كانت تتجه دائماً الى اسعاد ونجاح العائلة. وكان الوفاء مطلوباً من الزوجين . ولم يكن القانون المصري يميز بين زنى المرأة وزنى الرجل كما هو الحال في القانون العصري . وكان للمرأة أن تطلق بعلها كما هو للرجل . وكان للفتاة الحرية المطلقة في اختيار رفيق حياتها ونشأ عن مساواة المرأة في العائلة ان صارت الابنة مساوية للولد في حقوق الميراث ولم يكن للبكر امتياز ولم يسقط حق عائلة قط لخلوها من الذكور . وكان للمرأة حق الملكية تتصرف فيه كيف شاءت . وفي عقد الزواج كان ينص على نفقتها السنوية وعلى التعويض في حالة هجرها »

وغني عن البيان أن مدام فنويك ملر تنظر الى العائلة المصرية كأم مشفقة ، وأنها توافق تمام الموافقة على نظر المستر وهبي في الشؤون المصرية الذي يمكن تلخيص رأيه فيما يلي: تقود انجلترا واميريكا العالم لسبب واحد وهو انهما تعترفان بحقوق المرأة . فلو ان مصر ظلت تتمتع المرأة بكافة الحقوق الحيوية والعائلية لما بلغت هذا الانحطاط» . اه.

وفي سنة ١٩٠٨ ألقى باحدى النوادي بمدينة لندن خطبة شائقة عن المرأة دلت على وطنيته الحقة واخلاصه وعن ميله وشعوره نحو رقي المرأة[١] .

---

(١) جاء بجريدة الوطن بعددها الصادر بتاريخ ١٥ سبتمبر سنة ١٩٠٨ نمرة ٤١٥٣ بعنوان « صوت من وراء البحار ينشد ترقية المرأة المصرية » ما يأتي :

دعي حضرة الكاتب الفاضل عطيه افندي وهبي أحد نوابغ الطائفة القبطية ومن كبار موظفي مصلحة سكة الحديد الأميرية لالقاء خطبة في الاجتماع الذي عقدته جمعية

ولم يكن عمله قاصراً على ماتقدم بيانه فان سعيه في سبيل تربية البنت أشهر مما يذكر . ناهيك بعمله في ذلك بمدرسة التوفيق للبنات التي أصبحت

المطالبة بحقوق المرأة في الثالث من الشهر الحالي بقاعة كاجستن بلنـدن فلبى الدعوة ولفظ الخطبة الآتية باللغة الانجليزية وهذا تعريبها :

أيتها السيدات وأيها السادة

كنت أتمنى أنا لوقامت مقامي الآن في المثول بين أيديكم سيدة مصرية لتطالب بحقوق بنات جنسها كما تفعلون أنتم هنا. أما وقد ظهر أن الأمل برؤية امرأة مصرية تقف هذا الموقف بعيد التحقيق في الوقت الحاضر فاسمحوا لي ان أوجه اليكم الحديث بالنيابة عنها.

وأنه ليسرني بصفتي أحد أنصار تحرير المرأة أن أراكم تطالبون بحق مقدس لا بدّ من أن تنالوه عاجلاً أو آجلا فأهنئكم من صميم الفؤاد على هذا السعي وأرجو أن تحقق أمانيكم في القريب العاجل ولكني في الوقت ذاته لا أتمالك من أظهار أسفي الشديد حيث أرى أنه بينما تطالب السيدات هنا بحق مساواتهن بالرجال في مجلس وهو دليل على بلوغهنّ درجة عظيمة من الارتقاء أرى الرجال في مصر يطالبون لانفسهم بالحق ذاته بينما لا تستطيع المرأة المصرية أن ترفع صوتها لمطالب بالتربية الابتدائية لنفسها على انها كانت على جانب عظيم من رفعة المنزلة في الأعصر الخالية .

وقد سمعتم السيدة « فنوك مدر » تشير الى المقالة التي ألقيتها منذ خمس سنوات في المجمع العلمي المصري حيث أثبت بالادلة التاريخية إن منزلة المرأة المصرية في الزمن القديم كانت مساوية لمنزلة الرجل إن لم تقل أسمى وكانت تتمتع بكافة الحقوق في عيشتها العمومية وكانت في منزلها ربة البيت بكل معنى الكلمة « استحسان »

أما فى الوقت الحاضر فالمرأة المصرية محرومة من كل حقوقها فهي طريدة الاجتماعات. سجينة فى البيت. لها عينان لا تبصران. وفؤاد يئن. ولكن لا يسمع له نداء. وقد حرمت من التربية الصحيحة. فلا قبل لها على تهذيب أولادها وتأدية وظيفتها فى منزلها وأنما هي أصبحت مجرد آلة يستعملها ذلك الرجل القاسي فى قضاء شهواته حين يريد . ومما يحزن ويبكي أن السنين تمر تلو السنين فلا هى تطالب بحقوقها ولا هو يسفق عليها ويهتم باصلاح حالها .

من أرقى المدارس. وعمله الكبير في سنيّه الأخيرة في سبيل انجاح مشروع كلية البنات مما تجده مفصلاً فى مقالي التالي .

واذكر مع الأسف ان المرحوم قاسم بك أمين قام من عهد ليس ببعيد وطلب كشف النقاب عن ذلك المحيا الجميل وتهذيب شريكة الحياة المصرية فقامت عليه قيامة الجهلاء ورموه بكل أنواع الكفر والبهتان « استغراب »

أليس من الغريب أن تهمل تربية المرأة ويطالب رجال مصر بحق النيابة عن الامة. فقد قام الاقباط فى هذه الأيام يطالبون بالمساواة فى وظائف حكومة البلاد وقام غيرهم من المصريين يطالبون بمجلس نواب أسوة بالبلاد المتمدنة

ولا شك أن هذه المطالب عنوان التقدم والارتقاء والتمتع بحياة راضية واطمئنان لم يره أهالي البلاد قبل الآن وأني مع احترامي لتلك المطالب والاميال لا أخشى أن أقول ان تربية المرأة المصرية وتحريرها أولى بهذا الاهتمام

انّا فى حاجة الى مقام جميل تشرق فيه شمس المرأة المهذبة فلا يصح لنا أن نهمل هذا الأمر ونسعى الى غيره فعلينا أن نبدأ بتمزيق ذلك الحجاب « استحسان » ونعلم المرأة ونفسح لها مجالاً فى اجتماعاتنا. وفى اعتقادي أن هذه هي الطريقة الوحيدة لاصلاح حالنا وترقية شؤوننا — انا لو عملنا ذلك لامكننا أن نهيئ للمستقبل رجالا أكفاء لادارة البلاد والقيام باعباء مجلس النواب حق القيام « تصفيق »

ومما يلاحظ فى هذا المقام ان الاقباط مع علمهم بمبادئ الديانة المسيحية وتعاليمها لم يخطوا خطوة إلى الامام فى هذا السبيل وقد صدق عليهم قول اللورد كرومر : « أن المسيحية عند الاقباط بقيت محافظة على القديم وإن القبطي بقى كذلك واقفاً لا يتحرك إلى الامام ». على ان الحركة التي بدت من الاقباط فى السنين الأخيرة تبشر بالنجاح وتدعو الى الأمل فى مستقبل الأيام

وقصارى القول انى ممن يعتقدون ان لا أمل فى الارتقاء الحقيقي لمصر المحبوبة بلا تربية المرأة وتحريرها. وهذه هى الامنية التي يجب أن تتجه إلى تحقيقها أميال كل المصريين من مسلمين وأقباط على حد سواء فعسى أن يعود كوكب المرأة المصرية القديمة فيتألق فى سماء مصر فى مستقبل الايام (تصفيق واستحسان كثيرين)

في سبيل الكلية

تناوبت على مشروع الكلية عقبات جمة في وسط المنافسات والمزاحمات. وكلما ظهر أثره في الأفكار حيناً اختفى بسرعة . الى أن أتاح الزمان له بعض الأفاضل الغيورين . ولم يكن عددهم بأكثر من أربعة . فألفوا من بينهم لجنة لطرق السبل . وتمهيد الطرق الموصلة للبدأ في المشروع . والعمل على على نجاحه.وقد أحسنوا في تكتمهم بادئا طريقة العمل التي تخيروها لانفسهم حتى أثمر سعيهم بوضع الخطة الاولى للسير . وقبل سعادة نجيب باشا غالي أن يكون رئيساً للجنة المشروع . وحضرة صاحب العزة مرقص بك سميكه أميناً للصندوق . ثم أعلنوا بعد ذلك عن المشروع في الجرائد اليومية بمقال أثار الحمية في النفوس . والغيرة في القلوب. وطلبوا من صاحب الترجمة الانضمام لهم . وكونوا منهم اللجنة التنفيذية التي تعمل الى الآن بهمة عالية . فأخذ الفقيد يعمل من هذا التاريخ معهم بهمة لاتعرف كللاً ولا مللاً . وبعزيمة صادقة . وحث هو واخوانه القوم وأبناء الأمة على الاكتتاب للمشروع . وجمعوا في وقت يسير مبلغاً ليس بالقليل . واستحصلوا على رضاء غبطة البطريرك على المشروع . فبعث بمنشور يحث به أبناء الامة . وبسعيهم جاد مجلس النظار بقطعة أرض كبيرة بالعباسية موضعاً للبناء المنشود . فتمهدت بذلك لهم الطرق. وانفتح أمامهم باب الفرج.واستزادوا من الاقدام والنشاط بعد ان ضموا لهم نخبة من أكابر الأمة ونوابغها . فاقترح عليهم صاحب الترجمة اقامة اجتماعات عامة بالمدن الكبيرة لاستنداء الاكف وللبذل بسخاء في هذا السبيل القويم . فقرروا ذلك . وكانت باكورة الاجتماعات

الاجتماع الذي أقيم بمدينة الفيوم في ١٧ مايو سنة ١٩١٢ . وكان المترجم قد اتفق من قبل مع أعيان الفيوم على إقامة اجتماعين أحدهما للسيدات والآخر للرجال . وذهب معه حضرة كامل بك عوض من قبل اللجنة وهناك ألقى خطبة شائقة وألقى الأستاذ ميخائيل افندي فانوس من أعيان الفيوم خطبة أخرى . وأسفر الاجتماعان عن نجاح باهر . حتى أسهبت الجرائد من عربية وافرنكية في حينها في بيان ما كان لهذا الاجتماع من الأثر الحسن . والاهمية الكبيرة . وما ظهر فيه من الاحساس والغيرة الوطنية .

ثم سعى الفقيد بعد ذلك في اجتذاب السيدات الراقيات للحث على مساعدة المشروع وكان له من قرينتي الدكتور ابراهيم افندي فهمي والاستاذ مرقص بك حنا فوتان لايستهان بهما . وقد عطرت الجرائد في حينها بذكر المساعدة الجلى التي قامت بها السيدتان . وسعيهما المشكور بمعاونة المترجم .

ثم عقد اجتماع آخر بمدينة المنيا ذهب اليه هو وحضرتا مرقص بك سميكه وكامل بك عوض. وألقى فيه صاحب الترجمة خطبة كان لها أحسن وقع في النفوس . وآل الاجتماع الى التبرع بسخاء . وبناء على اقتراحه وسعيه أيضاً اشتركت الجمعيات القبطية وتكاتفت لمساعدة هذا المشروع وأقامت أحدها حفلة بتاريخ ١٥ يونيه سنة ١٩١٢ بتياترو عباس حيث مثلت فيها رواية لويس الحادي عشر بمعرفة جوق جورج افندي أبيض. وقد كان لصاحب الترجمة الفضل الأكبر في جعل هذه الحفلة من أرقى الحفلات . وكان للسيدات فيها أكبر مظهر . وأسهبت الصحف وقتها فيما كان لهذه الحفلة من النجاح الباهر باحتشاد ألوف من الطبقات الراقية فيها. وبما ألقيت فيها من خطب رنانة . والقصائد البديعة . وازداد بعدها ميل الجمهور نحو

المشروع في مصر وجهات القطر بأجمعها وشدد ذلك عزائم رجال المشروع مما حدا باللجنة التنفيذية أن تقدم للجمهور بياناً مفيداً عن المشروع . وعن نظامه وكافة التفصيلات التي تلزم بهذا الصدد . وحث أعضاؤها الاغنياء والسراة على المباراة في الاكتتاب . وكتب صاحب الترجمة مقالاته المشهورة لحثّ الاغنياء . والتي كان لها دوي كبير . ولم ترق لبعضهم ظناً منه ان الاغنياء فوق كل حث وانتقاد . ورغماً عن محاولة البعض التأثير على المشروع أخذاً بكتابات الفقيد حجة معكوسة له في ذلك . فأن ذلك كله لم يزد القوم إلا تمسكاً بالمشروع واقداماً على الحث والتشجيع وساعدتهم الجرائد بأقلامها . وأعانهم الغيورون بيراعهم . وما حل عيد رأس السنة القبطية حتى هيئت النفوس فأقيم احتفال بمدينة الاسكندرية بواسطة جمعية الاخلاص . وآخر بمعرفة جمعية التوفيق بمصر بفضل سعي الفقيد حيث مثلت فيه رواية بديعة وخطب كثيرون من رجال الفضل والادب وأسفر الاحتفالان عن نجاح عظيم وتأثير كبير . كما تبرعت جمعية النشأة القبطية بصافي ايراد نتيجتها في هذه السنة للمشروع .

ولم يقف السعي عند هذا الحد فقد أقيم فيما بعد اجتماعان آخران احدهما بأسيوط . والآخر بتلا منوفية ذهب اليهما الفقيد مع من ذهب من أعضاء لجنة الكلية . وكان لهما من النجاح ما كان للاجتماعات السابقة .

وفي صيف سنة ١٩١٢ بينما كانت اللجنة تشتغل بوضع الخطط النهائية للعمل في تنفيذ المشروع بعد ان مهدت له الارض وبعض المال . استعان الفقيد بصديقه المسيو فوس المهندس الكبير في وضع الرسومات اللازمة . فقام بعمله بارشادات أعضاء اللجنة وأتمه مما استوجب شكر اللجنة له كثيراً .

وهذه الرسومات هي التي يجري العمل بمقتضاها الآن وقد أقيم جزء مهم من أبنية الكلية . وهو أمكنة التدريس.وقاعات المدرسة و المطالعة الى آخره.

وقد كان الفقيد لا يألو جهداً في العمل ولا تكل همته عن الاقدام ولا يترك فرصة إلا ويقتنصها . أو باباً للحث والعمل إلا ويطرقه بعجل . وكان يستنهض الهمم هنا وهنالك واستمال الكثيرين من كرام الطوائف الاخرى للتبرع . وكان لا يفتر عن الجهاد في هذا السبيل شأن الابطال المخلصين .

كتب له حضرة مرقص بك سميكه بتاريخ ٢٩ سبتمبر سنة ١٩١٢ من رمل الاسكندرية يقول: « أشكرك على تلغرافك وأتمنى لك بكل قلبي التقدم والترقي اللذين استحقهما بعملك واجتهادك وغيرتك في خدمة الامة . . . . وتأسفت جداً لتوعك صحتك من انكبابك على الاعمال وتفانيك في خدمة مشروع الكلية » .

وفي خطاب آخر حوالى هذا التاريخ كتب يقول: « رسولك وصل في هذه الساعة واستلمت منه خطابك والاوراق الثمينة المرفقة به وأشكر همتك العالية وأتعابك التي لولاها لما وصلنا للنتيجه الباهرة التي حصلنا عليها في هذا الزمن القصير »

وكان يسعى في اجتذاب الجرائد الافرنكية لقضية الكلية علماً منه ان هذا الطريق يحرض الغيورين على التفاني في مساعدة المشروع . فضلاً عن مساعيه الاخرى .

ولقد خطا المشروع بمساعيه الكثيرة ومساعي الغيورين معه الخطوة بل الخطوات التي لا تمكن الارتداد عنها . أما وقد ذهب هذا العامل الامين . وخادم بغيرة. وعقيدة خالصة واخلاص كبير. فما على العمال الامناء الآخرين

الاّ أن يستمروا في عملهم . كما كانوا يتكاتفون معه فيحققوا ما كان تصبو نفسه اليه من رقي الامة واسعادها[1] ويحققوا معه امنيته الخالصة بل منية الامة كلها في أعظم عمل وأكبر مشروع قمنا به. وليتأكدوا ان الامة معهم قلباً وقالباً في سبيل اتمام هذا العمل المجيد والوصول به الى درجة الكمال أنهم لا شك فاعلون . وانّا لهم لمعضدون

للتاريخ والآثار

عني صاحب الترجمة كثيراً بالتاريخ القديم والآثار المصرية في عصورها المختلفة . وقد كان من صغره شديد الولع بآثار الاقدمين شغوفاً بمعرفة تاريخ بلاده . وكان ينقب ويبحث عن آثارها من هنا وهنالك . واشتغل مع الكثيرين

(١) أرسلت لجنة الكلية على أثر وفاته لعائلته التعزية الآتية :

« أتشرف بأن أبلغ حضراتكم بأنه علاوة على ما أظهره حضرات أعضاء لجنة كلية البنات القبطية شخصياً من أدلة المشاركة القلبية لكم في الحزن على وفاة العامل الغيور عطيه بك وهبي رأت اللجنة أن تعرب لكم رسمياً عن شعورها العميق بعظم الخسارة التي نالتها من جراء هذا المصاب الفادح. وفي الحقيقة ان اعمال المرحوم الطيب الذكر فقيدكم وفقيدنا عطيه بك سواء في سبيل انجاح مشروع الكلية أو في الخدم الطائفية الأخرى ستظل باقية مسجلة أبد الدهر تخلد له عطر الذكر . وعظيم الفخر . وهذا هو عزاؤنا الوحيد فيه . اسبغ الله عليه صيّب مراحمه ومغفرته والهمكم الصبر على فقده . واقبلوا مع شعائر أسفي الشخصي عظيم احترامي »   رئيس لجنة الكلية

تحريراً في ٣٠ نوفمبر سنة ١٩١٣   نجيب بطرس غالي

من العلماء بمصر وفرنسا واشترك معهم في المباحث العلمية الأثرية والتاريخية وله من هؤلاء العلماء أصدقاء أوفياء في باريس منهم المرحوم المسيو ريفيو الذي ألمعنا عنه سابقاً. والذي طالما استعان بالفقيد في كثير من كتاباته ومباحثه. وكانت لا تنقطع المخابرات بينهم بخصوص المباحث التي كان يجريها العالم المذكور. ولصاحب الترجمة فضل كبير فيما كان ينشره من الابحاث العلمية الأثرية . وطالما ذكر هذا العالم فضل الكثيرين من المصريين في الاشتغال بهذه المباحث [١]

(١) جاء في مجلة العلم المصري Revue Egyptologique في السنة السابعة منها صحيفة ٢٢٣ تحت عنوان « الكتب والمجلات » بخصوص اشتراك الوطنيين في الابحاث الأثرية والتاريخية المختصة بهما ما ترجمته :

« وأن اشتراك السوريين والعرب والاقباط عند الضرورة لمساعدة ثمينة . ومن الخطأ الظن ان الروح العلمية معدومة عند هؤلاء الوطنيين . فقد عرفت في مصر خاصة مسلمين وأقباط لا يقلون عنا مطلقاً سواء كان من جهة الذكاء الفطري أو التربية العلمية. وأذكر منهم اسماعيل باشا صبري وكيل نظارة الحقانية الذي اساءه بعضهم من هـذا القبيل بادعاءات في غير محلها . وعطيه وهبي ووهبي شحاته. هذان القبطيان الذكيان اللذان لا تنقطع مراسلاتي وعلاقاتي بهما . وأحد مديري الوجه القبلي الذي تشرفت بمعرفته اثناء سياحتي في سنة ١٨٨٩ . ومحمد كردعلي مدير وصاحب مجلة المقتبس الذي يعبر فيها في ندائه « للمستشرقين » بالآتي : « ان مبدأ المقتبس هو حث الشرقيين على العلم والاقتباس من اوربا . وأن يتخذ هذا الطريق سبيلاً . وسيكون للابحاث العربية باب كبير فيه . وسننقل لمواطنينا ما تهم معرفته وما أخرجته أوربا في هذا الباب . ونقبل بملء السرور ما يتحفنا به المستشرقون من هذه الاعمال وننشر عنها متى وصلت الى أيدينا . ونسعى من جهة أخرى في نشر ما نحصل عليه من ابحاثنا الخصوصية. ولما كنا حديثي العهد بالعلم. فنحن نقبل بمزيد الارتياح نصائح الغير معتمدين في ذلك على انعطاف وتشجيع العلماء والجمعيات ومطبوعاتهم »

وقد كان من أخص أمانيه الاستعانة بالمسيو ريفيو وبغيره من العلماء كالعلامة أميلينو وماسبرو والدكتور باي وغيرهم في نشر ما يهم ويفيد في آثار وتاريخ مصر . وقد كتب الفقيد عن المسيو ريفيو في المجلة القبطية السنة الاولى تحت عنوان «رجل كثير العلم والفضل» ما يأتي :

من أشهر نوابغ هذا العصر وخيرة رجاله العلامة أوچين ريفيو مؤسس مدرسة اللوفر الكلية ومتولي إدارة متحف اللوفر الشهير بفرنسا . هذا الرجل خصص حياته للبحث في الأثريات ولا سيما ما يتعلق منها بمصر عموماً وبالأقباط خصوصاً . أسس كلية اللوفر في سنة ١٨٨١ وهو منذ ذلك الوقت يوالي الخطابة على تلامذتها في المواضيع المختلفة والشريعة القديمة وفي لغتنا القبطية . فانه عدا ما أحسنه من اللغات الاوروبية له المام تام باللغات المصرية القديمة والقبطية والعربية والحبشية وغيرها من اللغات الشرقية. له تلامذة هم الآن من فحول العلماء ومنهم من يشغل أرقى مناصب الحكومة الفرنساوية ومنهم من وكل اليهم إدارة أشهر متاحف أوروبا ومنهم مدير البعثة الفرنساوية بمصر واثنان من كبار موظفي متحف القاهرة .

طاف هذا الرجل أنحاء الارض على نفقة نفسه عدة مرات لابحاث علمية وبعثته الحكومة الفرنساوية جملة مرات على نفقتها للغرض ذاته فتوصل الى اكتشافات عظيمة الأهمية وعثر على نصوص نادرة لم يسبقه أحد لمثلها. وقد اطلعنا أخيراً على نشرة أدرج فيها أسماء مؤلفاته وعددها لا يقل عن الثلثمائة مؤلف بين رسالات مختصرة ومجلدات ضخمة جميعها نتيجة قلمه

فعلى هذه المبادئ اسس مسلمو مصر الجامعات والمدارس التي تدرس فيها العلوم الاوربية وعلى هذه المبادئ يسير مديرو الصحف القبطية التي تنشر بالعربية . والتي يكتب فيها كثيراً صديقي عطيه وهبي» اهـ.

خاصة ومن أندر وأنفس ما كتب في الأثريات .

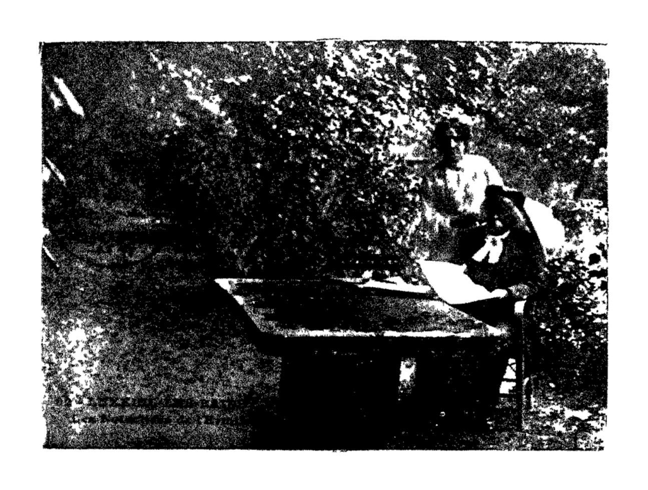
من هذه الكتب سفر مهم في الشرائع المصرية مع المقابلة بينها وبين الشرائع الرومانية وغيرها وقد تناول هذا الكتاب كل ماتهم معرفته في هذا الباب كالاحوال الشخصية والملكية والعقود والتجارة والاقتصاد السياسي عند قدماء المصريين وغيره وعدد صفحاته ١٥٦١ صفحة .

ومنها تاريخ حيوة البطريرك ثيودوسيوس الاسكندري قدتلاه المسيو ريفيو على الندوة العلمية بفرنسا سنة ١٨٧١ . وكتاب عن مجمع نيقيا طبقاً للنصوص القبطية وفيه شرح الايمان والعقائد وكتاب في أقوال دسقورس عن مجمع خلقدونيا وكتاب عن حقوق الابن البكري عند القدماء وعليه شروح مهمة وآخر عن حقوق الكلدانيات قديماً وآخر عن حقوق الامرأة في العصور القديمة وهو مجلدان كبيران .

ومنها كتب لاتحصى عن قدماء المصريين كالطلاق عندهم وكالزواج بعد التسري ومسك الدفاتر والآداب وشهادة الشهود ومحاكمة الجناة والمرافعات والحلف القاطع . وكتب عن كهنتهم ونبواتهم وضرائبهم ونقودهم ومقاييسهم ومكاييلهم وحيواناتهم وفنونهم اليدوية كالنقش والتصوير وغيرها . ومنها صحيفة عن بلاد النوبة . وبحث عن القابلة سالومة طبقاً للنص القبطي ومقابلتها مع الاميرة سالومة ابنة تيطارك فيليب . ومنها ملفات قبطية من البردي مهمة وقصص قبطية غريبة وأناجيل قبطية غير قانونية ولكنها ذات أهمية تاريخية كبرى .

أما الجرائد والمجلات التي تنشر فيها مقالات المسيو ريفيو حيناً بعد حين فهي:

الجريدة الأسيوية .Journal Asiatique



المرحوم المسيو اوچين ريفيللو والسيدة قرينته
على طاولة الكتابة بحديقة منزله

مجلة العلم المصري . Revue Egyptologique

مجلة المسائل العلمية Revue des Questions Scientifiques

ومن جملة ما نشره من عهد قريب كتاب يحتوي على انجيلين قديمين أحدهما انجيل الاثني عشر رسولاً والثاني انجيل مار برثلوماوس . هذان ترجمهما باللغة الفرنساوية تحت النص القبطي وهما يشتملان على أعظم حوادث حيوة المسيح وعلى أمور أخرى لم تذكر في الأناجيل الاربعة القانونية كصعود مريم العذراء الى السماء وكنسبة خيانة يهوذا لتحريض زوجته وغير ذلك . وانجيل الاثني عشر رسولاً كتبه مسيحي يدعى غمالائيل في الجيل الثاني وقد توخى فيه اظهار محبة المسيح لرسله وما خصهم به من البركات والكرامات ومن ثم دعي انجيل الاثني عشر رسولاً هذا وأما انجيل القديس برثلوماوس فلم يسبق نشره قبل هذه المرة . ويشهد ناشره ان فيه ضعفاً في الرواية وتطرفاً في العقيدة وهي شهادة تطابق ما يؤخذ من قراءة فصوله القصار وقد أهدانا جنابه نسخة من هذا الكتاب وأهدى أخرى لغبطة الأب البطريرك بعد ان كتب عليها الاهداء بخط يده باللغة القبطية التي هو أكثر الناس اشتغالاً بها .

ويرى القارئ مما ذكرناه من كتب هذا الرجل وموضوعاتها ما يوجب علينا اقتناؤها ومطالعتها وهذا الوجوب لوجوه شتى « أولاً » لان علاقة هذه الكتب بنا أشد منها بسوانا . « ثانياً » لانها مفيدة في حد ذاتها والفائدة ضالة العاقل . « ثالثاً » لانها مترجمة بلغة متداولة يسهل علينا فهمها دون كد أو تعب في حل رموزها القديمة فان لم يكن لنا وقت للاشتغال باللغة الاصلية ، فعلى الاقل يلزمنا أن نطلع على ما نشره الغير لفائدتنا . « رابعاً » لان انتشارها بيننا

قد يؤدي الى ابراز نظائرها من الكتب الثمينة الى عالم الوجود وانتشالها من حيث لا يعلم بها الطلاب فلا شك انه يوجد في الاديرة وعند العائلات القبطية القديمة عدد كثير من الكتب التي لو عني بجمعها وفحصها لوجد فيها ما عساه أن يسد ثلمة في التاريخ أو يكشف غامضاً من الحقائق المهمة ولكن مثل هذه الكتب دامت وربما تدوم الى ماشاء الله محجوبة عن الابصار لا يجتني ممتلكوها منها أدنى فائدة ولا يسمحون للغير باقتنائها فحبذا لو انتدب مجلسنا الملي من يعتمد عليه ليجمع ما كان من هذا القبيل وعهد نشره للجنة خصوصية فانه بذلك يكسب أحسن أجر وأعظم فخر » . اهـ

ويدرك القارىء مما كتبه عن هذا العالم ما كان له من الفضل الكبير في التنقيب عن آثار مصر القديمة . وما ألفه من الكتب العلمية الثمينة . ومما يذكر عنه انه قضي عليه وهو على مكتبته يحرر كتاباً في الآثار المصرية القديمة

ولم يقتصر عمل الفقيد على هذه الابحاث والاستعانة فيها بهؤلاء العلماء كما قلنا فقط بل كان يسعى أيضاً في المحافظة على الآثار القبطية من فنون وصنائع لعلمه انها جزء مهم مكمل للعصر القديم . وقد اشترك مع من سعوا في هذا السبيل القويم .

كتب لي صديقي توفيق افندي اسكاروس يقول: « في صيف سنة ١٩٠٩ اتحد الفقيد مع حضرة مرقس بك سميكه وسعى لتأليف جمعية خاصة بالتاريخ والآثار القبطية تحت رعاية غبطة البطريرك واشتراك بعض ذوي النفوذ . وانتخب لها من يعهد فيهم البحث والتنقيب . وكانوا يجتمعون في قاعة المجلس لملي العام فعقدت فيها جلسات لتحضير قانون وقد تشرفت بانتخابهم لي عضواً . ولكن القانون المتعلق بها أرجىء الى حين . واذكر أني حضرت اجتماعاً

لجمعية التوفيق خطب فيه المرحوم عطيه بك وذكر بوجوب تأسيس جمعية للبحث والتاريخ والآثار القبطية » اهـ.[١]

(١) جاء في جريدة الوطن بعددها الصادر بتاريخ ٢٧ يناير سنة ١٩١٠ وصف للحفلة المشار اليها ما يأتي بعنوان « المحاضرات — الآثار القبطية » :

بشرنا الامة منذ عهد قريب بأن جمعية التوفيق المركزية الشهيرة بالتنقيب عن أفضل وجوه الخدمة العملية قررت أن تدعو من آن لآخر لفيفاً من الأدباء والفضلاء لتسمعهم محاضرة فى موضوع علمي أو تاريخي أو أدبي أو اخلاقي أو ما شابه ذلك من الموضوعات النفيسةالتي تستنير بها الأذهان وترتقي العقول وتتسع المدارك وتربى بواسطتها الملكات الصالحة والصفات الفاضلة . وقد شرحنا يومئذ سمو مقدار هذه الخدمة التي تكفلتبها جمعيةالتوفيق وأوضحنا فوائد المحاضراتوحميد تأثيرها فيالمجتمع

فيسرنا اليوم ان هذه الجمعية اليقظة برت بوعدها وعقدت أمس أول حفلة لاول محاضرة فى سرايها الفسيحة بالفجالة فلبى دعوتها عدد جم من أفراد الطبقة الراقية المتعلمة في العنصرين الوطنيين ولفيف من الاجانب يتقدمهم جنابالقسوطسنالمرسل الاميركي وبعض زملائه الأفاضل وكانت الجمعية قد أعدتساحتها استعدادا يليقبالحفلة ووقف اعضاؤها يستقبلون المدعوين ويجلسونهمفى أماكنهم فما جاءت الساعة الخامسة بعد الظهر حتى كان المكان قد اكتظ بجموع موفر من أهل الفضل والعلم فى جملته عدد غيرقليلمنالسيدات القبطيات وهيالمرة الأولى التي رأينا فيها المرأة القبطيةتتقدم الرجل في حضور حفلة علمية بحتة مما تثلج له الصدور وتقر الأعين ويدل علىأن المرأة عندنا قد دخلت في أول أطوار الحياة العالية .

وفي الساعة المعينة وقف حضرة الدكتور ابراهيمبك منصور رئيس الجمعية وافتتح الحفلة مرحباً بالحاضرين ومبيناً لهم موضوع المحاضرة وهو الكلام على الفنون القبطية ومتحف آثارها ثم دعا حضرة النابغة الأديب عطيه بك وهبي فالقى محاضرة عن هذه الفنون اثبت فيها بدامغ الحجج العلمية والشواهد التاريخية انه يوجد فن قبطي مستقل بذاته عن الفنون اليونانية والبيزانتيه وانه لذلك يجب حفظ آثار هذا الفن فى متحف خاص كما تفعل الأمم الحية الحريصة على تاريخ فنونها الجميلة

ولما كانت هذه المحاضرة جليلة الفائدة فسنأتي عليها بحروفها خدمة لقرائنا الذين لم يسعدهم الحظ بسماعها بآذانهم .

وسيرى القراء الكرام من مباحثه وخطبه كيف كانت غيرته على نشر التاريخ القديم والالمام بعلوم الاقدمين لما فيها من العبر والعظات البالغة

وبعد دعي حضرة الشاب المجتهد شكري افندي صادق سكرتير نادي الفنون الجميلة بمصر فألقى خطبة فى الموضوع نفسه جاء فيها على بيان علاقة الفنون القبطية بالتاريخ وعزز حجة الخطيب السابق فى اثبات أن هـذه الفنون هي الحلقة المفقودة من حلقات التاريخ وقد وجدت الآن . وكانت خطبته نفيسة جداً استرعت اعجاب الحاضرين

واذ كان حضرة العالم الفاضل أحمد بك زكي سكرتير ثاني مجلس النظار من الذين شرفوا الحفلة دعاه الرئيس لالقاء بعض النصائح العائدة بنجاح المشروع فوقف وأثنى كثيراً على فكرة احياء الفنون القبطية وحفظ آثارها فى متحف خاص وقال أن ذلك مما يدل على تقدم ونهوض فى الاقباط يقابلها اخوانهم المسلمين بالمسرة والابتهاج لأن تقدم أحد العنصرين يؤدي حتماً الى تقدم العنصر الثاني .

ولما كان زكي بك مفطوراً على الخلق الكريمة ناشئاً على المبادئ السامية فقد تنبهت فيه وهو يتكلم عاطفة الحث على ارتباط العنصرين وقد كان هو أول داع الى هـذا الارتباط كما يذكر الذاكرون فاستطرد الى ذلك وقال أن الامة المصرية لا تنال السعادة التامة إلا اذا اتحد عنصراها والتصقا وتماسكا فكان لقوله استحسان عظيم وقام حضرة رئيس الجمعية وشكره وأمن على رأيه. ثم دعا حضرة الفاضل أحمد بك كمال العالم الأثري الشهير ومن كبار الموظفين فى مصلحة الآثار المصرية فأيد ماقيل عن الفنون القبطية وجلال مقامها فى التاريخ وسرد بعض المجهودات التي قام بها العالمان ماريت وماسبرو خدمة لهذه الآثار.

وبعـد ذلك وقف حضرة مرقص بك سميكه الذي هو أول مهتم بهذا الموضوع وقال إن الفضل في التنبيه الى فكرة إحياء الفنون القبطية وآثارها يرجع أولا الى عطوفة فخري باشا ناظر الاشغال سابقاً فهو الذي أشار عليه بذلك منذ أربع سنوات فأحل مشورته المحل اللائق بها من القبول والاهتمام وعرضها يومئذ على غبطة البطريرك المعظم فقبلها بمزيد الارتياح ومهد له الطريق الموصلة لاخراج هذه الفكرة الشريفة الى حيز العمل وفعلاً وجد المتحف الذي يرى الآن في مصر القديمة. وانما قصدت جمعية التوفيق بهذه الحفلة أن توجه اليه التفات الجمهور العارف بقيمة هذه الآثار لكي يساعد على توسيع نطاقه وترتيبه وتنظيم أقسامه وجعله في الصف الاول من متاحف الآثار. ومما قاله أن المرحوم ازمنيوس بك حنا مراقب البطريكخانة السابق كانت له يد طولى في إيجاد ذلك المتحف.

المرأة الفرعونية [1]

بحث علمي تاريخي — حديث لايمال

بحثي واسع الاطراف ولكنه شهي لذيذ يحلو فيه الكلام وتصبو اليه نفس كل أديب أريب لأن له مساساً بالجنس اللطيف وكل ما يقال فيه يدعو الى عظيم الاهتمام ويبعث في فؤاد محبي الانسانية روح العطف والحنان

هذا البحث يهم على نوع أخص عشاق الآثار القديمة ولكنه يفيد على العموم جمهور الباحثين. وفيه على ما أرى حل لمسألة اجتماعية من الاهمية بمكان إذ يتوقف على نتائجه الحكم في آراء الذين يقولون أن المرأة أن لم تكن أسمى من الرجل فهي على الأقل مساوية له في كل حال

فأنا اذا بحثت اليوم عن حالة المرأة في الزمن القديم فاني أبحث عن السيدة عند أقدم الأمم واشهرها أعني في مصر ذلك البلد العزيز الذي كلما ذكر أسمه عاد للذهن ذلك المجد الأثيل وتلك الآثار العجيبة التي تبسط أمام الامم الحاضرة من آيات الاقتدار والافتخار ما يدهش العقول ويبهر الأبصار .

وسوف نرى أن المرأة لم تكن في قديم الزمان من سقط المتاع ففي ذلك الوقت الذي بلغت فيه الامة في جميع مظاهر الحياة المادية أسمى مراقي التقدم كانت المرأة ليست فقط مساوية للرجل بل كان لها عليه نفوذ لم يسمع بمثله إلا في الهيئات التي نالت من الرقي نصيباً يمكنها به أن تقدر المرأة حق

---

(١) ترجمة المحاضرة التي ألقاها بالفرنسية بالمجمع العلمي المصري بتاريخ ٢ فبراير سنة ١٩٠٣ ونشرت بمجلة المحيط في سنتها السابعة

قدرها . ولست أبالغ اذا قلت أن الأمة المصرية هي الشعب الوحيد بين كل الشعوب الذي وفى المرأة حقوقها واعترف لها بحق المساواة معزوجها •

وقبل أن أشرح الوقائع التي تؤيد ذلك أرى لزوم الاعتراف بفضل جناب المسيو ماسبرو وغيره من العلماء أخص بالذكر منهم جناب العلاّمة المسيو اوجين ريفيو . فهؤلاء هم الذين توصلوا بالبحث للوقوف على حالة المرأة المصرية وما كان لها من المركز في الزمن القديم . وإذا أردنا أن نتتبع حالة المرأة منذ البداءة لزمنا أن نرجع الى زمن الاستعمار الاول وعنه قال الجغرافيون والمؤرخون أن مصر في حالتها الأولى لم تكن صالحة للمرعى وانما كانت تصلح للتجارة بسبب ما يسهله لها النيل من وسائل النقل والمبادلات التجارية. فمن القديم تبودلت المعاملات التجارية بين آسيا وافريقيا وكان من سواحل البحر الأحمر الى شواطئ النيل لا بدّ للمنقولات من أن تجتاز الصحراء حتى تصل الى طيبه حيث كان مجرى النيل صالحاً للملاحة وكانت أرض الأودية جلداً صالحة لسير القوافل والابل الحاملة الاثقال . وهذه الطريق التي اجتازتها التجريدة المعينة من مصلحة السكة الحديدية سنة ١٨٩٧ والتي كنت عضواً بها لا تزال ظاهرة معروفة بآبارها واحواضها المنتشرة في انحائها . وفي منف كانت تسير القوافل بطريق واحة أمون الشهيرة للسفر في البحر الأبيض المتوسط وفي كل هذه الاحوال كان الجمل مركب الصحراء الذي لا يستغنى عنه

ومعلوم أن هذه الأقطار معروفة بجدبها وندارة مائها . أما الجدب فيبين لنا لماذا كان الجمل هو الحيوان الوحيد الذي تمكنه المعيشة على القليل من النبات . أما ندرة الماء فهي السبب الذي كان يضطر القبائل الى أن تتفرق فرقاً

صغيرة وتنتقل الواحدة منها من محطة الى أخرى وهي تقطع مراحل طويلة وتقف وقتاً قصيراً . فهذا التفرق (الذي أستدعى له الالتفات بنوع أخص) وغياب رب العائلة غياباً مستديماً لاشتغاله في القوفل الطويلة الاسفار هما اللذان أنزلا المرأة عند المستعمرين الاولين منزلة ممتازة خصوصية لانه لما كانت منوطة بها وحدها ادارة اعمال المرعى وهي الفن المهم كانت المسئولة والآمرة وبالنتيجة كانت لها حقوق راهنة وأهمية شخصية لا يمكن سلبها منها

كان للابنة على قول ركلوس مركز يساوي على الاقل مركز الاولاد الذكور. فكان لها مال مقتصد كما لاخوتها. وعند موت الأم كانت تؤول ثروتها المكتسبة من ادارتها ومن المرعى الى أولادها وتقتسم بينهم على السواء. وهذا المال هو الذي يدعى بالمال الشرعي .أما المال الغير الشرعي فهو ما اكتسبه الاب وهو يبقى ملكاً لافراد عائلة أمه هو . فهذه هي الطريق التي اكسبت المرأة منذ البداءة أهمية واستقلالاً شخصيين في وادي النيل . فيا ترى هل دامت هذه الصفة الخصوصية تتعاقب في الأجيال المصرية القديمة : هذا هو موضوع بحثنا فيما يأتي :

ولنبدأ بالبحث عن حالة المرأة في الحياة العمومية . فكل من الآثار القديمة والبردي مفعم بما يؤيد أن انتقال الميراث عند ملوك وأعيان المصريين كان يجري طبقاً لعوائد التوريث في سلسلة القرابة النسائية وقد أوضح ذلك أيضاً بأجلى بيان الموسيو دي برفيل في بحث مهم نشره بباريس منذ ثماني عشرة سنة. هذا عدا ماهو معلوم لدينا من ان ملوك الفراعنة كانوا يتزوجون باخواتهم لكي يحفظوا بذلك لابنائهم حق الملك

ومعلوم أيضاً أن جملة عائلات مالكية أثبتت بتمليك امرأة كانت إمّا

أخت الملك السابق أو أرملته. وحسبي أن اذكر الملكة ميتوكريس من العائلة السادسة وسميوفريس من الثانية عشرة وهاتوسو من الثامنة عشرة وطاى من التاسعة عشر

وكان أذا تزوج أحد الملوك الفراعنة بأخته تقل لابنتها صفة ابن اخته البكر (أي اخت هذا الملك البكر) أما اذا لم تكن للملك أخت فكان يبحث له عن بكر ابن آخر من أخت بكر لخالات الابنة المخول لها حينئذ حق الملك

وقد جاء في التاريخ ان مقاطعتي مه ومنات خوؤ أورثتهما السيدة بكيت في عهد أومرتسين الاول لابنها نوحوتيب وهذا الاخير رزق من زوجته السيدة خيتي الوارثة للمقاطعة السابعة عشرة ولداً يدعى نخت الذي صار أميراً على مقاطعتي مه ومنات خوؤ بحق الوراثة من جدته وعلى المقاطعة السابعة عشرة بحق الوراثة من أمه . وواضح من آثار بني حسن استمرار طريقة التوريث في سلسلة القرابة النسائية عند أعيان المصريين . وعادة نقل الأم للميراث كانت أيضاً متبعة في كل طبقات الاهالي . فهذا الحق القديم الذي كان لابن الأم والذي كان يكسب المرأة المصرية أهمية كبرى لبث مجهولا مدة الخمسة القرون التي ملكت فيها الرعاة فلم تكن المرأة حاكمة بنفسها على المقاطعة ولكن كان ممكناً لها أن تصير مالكة حقيقة بمجرد التحائها بلحية صناعية كما يرى ذلك في الآثار . أفلم يكن غرضها من ذلك أن تظهر بما في امكانها مساواتها للرجال .

وعلى كل فان عادة نقل الميراث بحسب سلسلة القرابة النسائية لم تسر وتعم إلا في بدء العائلة الثامنة عشرة بعد طرد الهكسوس فطبقاً لما قاله شمبوليون فيجاك (في كتابه الموسوم بمصر القديمة صحيفة ٣٠١) قد تزوج

أموسيس « مؤسس العائلة الثامنة عشرة الذي أخلف الرعاة » بأميرة نوبية اقترن اسمها بألقاب نخيمة وهي : الزوجة الملكية العظمى والأم الملكية وسيدة الانام . وقد ولت هذه الملكة على العرش ابنتها أهموس نوفره أطارى ثم تلتها حفيدتها هاتاسو زوجة طوطميس الثاني أخيها وملكت وحدها بعد أخيها المذكور .

وقد ظهر أيضاً أن هذا الحق الذي لابن الأم قد ساد وعمّ في العائلة الفرعونية الحبشية لان أمينيريتيس أخت سبكا هي التي نقلت الى طهراكا اللقب الفرعوني. وكما قال جناب المسيو ماسبرو هي التي دعيت الحاكمة العظمى وأميرة البلدين وسيدة كل الامم . وعلى هذا المبدأ أيضاً تزوج بساميتيك شاهينتيب ابنة أمينيريتيس حتى تثبت بذلك قدم العائلة السادسة والعشرين التي هي آخر العائلات العظمى الوطنية واندمج بهذا الزواج في سلك التقاليد المصرية ونهج منهج الفراعنة الحقيقيين .

ان الاسباب التي دعت الفرس الى افتتاح مصر تظهر لنا أيضاً مقدار محافظة الفراعنة على حق الوراثة بسلالة الامراء وهذه الاسباب ظاهرة في المشاجرة العائلية التي حصلت بين كمبيس وأماسيس فلنرجع اليها معتمدين على ماجاء عنها في الكتاب الثالث من تاريخ هيرودوتس :

استقدم كورش من مصر طبيب عيون فأرسل له أماسيس رجلاً ماهراً في هذا الفن ولما رأى هذا الطبيب أنه مضطر الى أن يترك وطنه وعائلته تألم فؤاده لذلك وأصرّ على أن يأخذ لنفسه بالثأر . فأشار على كمبيس الذي صار حينئذٍ ملكا أن يأخذ ابنة أماسيس زوجة له وكان قد ترك أبرياس سلف أماسيس ابنة تدعى فيناتيس ذات قوام مليح وجمال بارع فأرسلها

أماسيس لـكمبيس باعتبار انها ابنته وبعد ذلك بمدة علم كمبيس الخديعة التي نصبت له فـكان ذلك سبب الحرب التي نشبت بينهما .

فلو كان أماسيس زوج كمبيس بابنته كان لابد له أن يورثه ابنها بهـذا الزواج حق الملك أما وقد أعاضه عنها بالاميرة ابنة أبرياس فلم يورث الفرس من الملك شيئاً ومن ثم تعلم الاسباب التي دفعت الطبيب الحاقد الى ما أشار به والتي ساقت ملك مصر الى مافعل .

كان الفاتح طبقاً لقول المسيو بريفيل يأخـذ الخرطوش المضاعف (الخرطوش هو كتابة تبين القاب الملك) واللباس الملـكي الفرعوني . أما كمبيس فبسبب كيانه الاول وحصوله على السلطة الملوكية التي ورثها من سلالة الماديين لم يهنأ بعرش الفراعنة. وبعكسه بطليموس فقد اتـكأ على العرش الفرعوني ووجد فراشه وثيراً وكل البطالسة عند جلوسهم على هـذا العرش عرفوا كنه موقفهم والنهج الذي يقتضيه . فنسجوا أعمالهم على منواله حتى بلغ منهم أن ينقلوا الى عائلاتهم الخصوصية طريقة التقسيم العائلي في السلالة المصرية فتركوا حقوق الوراثة المقدونية الجارية على نظام البكورية واتبعوا طريقة انتقال الحق الملكي من البنات الى الذكور وبالعكس وهي العادة الفرعونية مع مايتصل بها من زواج الملك بأخته .

وقد خبا مصباح التمدن المصري وانطفأت جـذوته مع ملك أخر ابن بكر للفراعنة فقد لاشى الفتح الروماني كل النظامات الملكية الفرعونية ومعها تلاشى حق الوراثة في السلالة النسائية .

ويُرى مما تقدم أن المرأة كان لها الدور الاهم في الحياة العمومية بمصر القديمة وأنه مامن مرة هضمت حقوقها إلا وسقطت البلاد في وهدة

الانحطاط وأشير بذلك خصوصاً للنتائج الوخيمة التي عقبت اغارة الهكسوس والفتح الروماني

ولنتقدم الآن لذكر حالة المرأة المصرية في الحياة الخصوصية ومنزلتها في الهيئة الاجتماعية . ومما تجب ملاحظته بادئ بدء ان الملكة في مصر كانت أيضاً رئيسة للطائفة الدينية التي كان هيكلها القصر الملكي وأفرادها المؤمنون هم الاهالي وكان الملك رئيس كهنتها .

قال جناب المسيو ماسبرو في صحيفة ٢٧٠ من تاريخه القديم عن مصر والكلدانيين ان الملكة كان لها بيت خاص بها ولها من الخدم والحشم بقدر ما للملك وكانت مطلقة الحرية في دخولها وخروجها وكانت تحضر الحفلات العمومية إما مع زوجها أو بدونه .

وقال جناب المسيو ريفيو ان آثار العائلتين الثالثة والرابعة تثبت ان المرأة كانت لها رتب كهنوتية ومدنية فان أمتنس (وهي احدى المصريات) كانت شاغلة مركزاً اجتماعياً سامياً باعتبار كونها موظفة في الحكومة وصاحبة أملاك

وقد ظهرت المساواة بين الرجل والامرأة في أحوال أخرى خارجة عن الملكية والمراتب الكهنوتية فان عائلات الاشراف والكهنة كانت ترجع سلالاتها في الغالب الى السلسلة النسائية وكانت تؤرخ الاوراق الرسمية بأسماء الكاهنات (انظر الصحيفة ٢٩ من كتاب شارب) ويبين في العقود اسم أم فريق من المتعاقدين ولغاية حكم بطليموس فيلوباتر كان الذي يقسم التركات بين الاولاد هو الام وليس الاب — وكان للامرأة صفات تؤهلها لأعمال خصوصية ليست للرجال . وقال المسيو ماسبرو عند كلامه عن الامرأة التي

تشتغل بالسحر «كانت عيناها تريان وأذناها تسمعان ما لا يراه الرجل ولا يسمعه . صوتها بما له من اللين والوضوح أكثر مما للرجل كان يصل الى مسافات أبعد فكانت بالطبيعة سيدة ورئيسة في فن مناداة الكائنات الغير المنظورة وابعادها » .

كان ممكناً للمرأة أن تشغل مركزاً شريفاً مستقلاً عن مركز زوجها فكانت تقام بعد زواجها وقبله نبية لاله من الآلهة واذا كانت من عائلة ملوكية تلقب بلقب الابنة الملكية أما اذا كانت من عائلة شريفة فكانت تعتبر من الاشراف مهما كان مركز زوجها .

لاريب ان أجدادي كانوا يجلون المرأة ويحترمونها نظراً لكونها مركز العائلة وأصلها ومن أراد أن يتأكد ذلك فما عليه إلا أن يطوف قاعات المتحف الجديد فيرى الزوجين جالسين على المقعد الواحد . وأجمل مثال لذلك هو تمثالا الامير داحوتيوا والاميرة نوفريت (من العائلة الثالثة) الكائنان في وسط القاعة . وليلاحظ مع ذلك ان الزوجة الشرعية وربة المنزل هي التي كان لها هذه المنزلة . أما الزوجة ذات الدرجة الثانية فلم تكن إلا بمنزلة خادمة بسيطة وأولادها ينسبون الى الزوجة الشرعية ومن هذا القبيل قصة هاجر المصرية التي طلبت منها سارة ان تحل من ابراهيم محلها لكي ترزق بذلك ابناً منها

ومتى بلغت الابنة سن الرشد قبل زواجها كانت تعتبر كفؤاً للقيام بأعمال الحياة المدنية فكان يمكنها في كل حال ان تقوم مقام الابن « وكان يعتبر من مات ولم يخلف سوى البنات انه رقد مطمئناً كمن له أولاد ذكور ».

قال المسيو باتوره في كتابه المطبوع سنة ١٨٩٦ عن الحالة الشرعية للمرأة في مصر القديمة ان الزواج كان عقداً مقدساً يجعل المرأة والرجل

سواء بسواء فكانت المرأة في الحياة المنزلية مساوية للرجل. وكانت الاولاد هم الغاية والمنى من هذا الاقتران. وكانت الامانة موجبة على كل من الزوجين ولم يكن معروفاً في مصر الفرق الذي وضعتــه الشرائع الحديثه بين الرجل الزاني والمرأة الزانية. وكان للمرأة الحق في الطلاق كما كان للزوج وكانت لها الحرية في اختيار من تتزوجه . ولم تُقسر على التزوج بطالبٍ ما كما يحدث الآن كثيراً بمصر. وكانت تجرد ذاتها من كل شيء بقصد أن تكون مع من اختارته لنفسها شخصاً واحداً

وقد نتج عن مبدأ المساواة بين الرجل والمرأة في العائلة هـذه النتيجة اللازمة وهي تساوي المرأة في حقوق الميراث مع اخوتها الذكور بحيث كانت حصص الميراث جميعها متساوية وعليه فما كان للبكر منهم مزية خاصة به ولا كان يسقط حق امرأة بسبب جنسها النسائي

كان للزوجة ميراث خاص بها وهي التي تديره بنفسها وتتصرف فيه كيف شاءت. وكان لها الحرية أن تشارط بنفسها من شاءت وان تشترط في عقد الزواج هدية زوجية ومعاشاً سنوياً ومبلغاً وفراً يدفع لها تعويضاً عنــد الرجوع عن الزواج ومن ثم يظهر لنا أن المرأة المصرية كانت تقصد أن تدوم مرتبطة مع زوجها وكذا كانت تشترط عليه شروطاً ثقيلة حتى تمنعه عن فسخ تلك الرابطة المقدسة فالأم ربة المنزل كان لها عمل خاص بها وهو التفرغ للامور المنزلية وكانت تشتغل شغلاً خصوصياً لها الحق والحرية في استبدال نواتجه

وقد اضرّت اغارة الرعاة بهذه الحياة الخصوصية كما ضرّت بالعمومية

ركز المرأة المدني قد تغير في حكم العائلة الثانية عشرة فلم تعد المرأة وارثة الاصالة عن نفسها ولم يكن لها شيء من ملكها الخاص بل كان الرجل يدير نها الاعمال وبعد جلوسها بجانبه كانت ترى جالسة عند قدميه .

قال العلاّمة الأثري الشهير المسيو اوجين ريفيو في كتابه الحديث لمهم المسمى بخلاصة القانون المصري ومقابلته بالشرائع الأخرى القديمة صحيفة ٩٨٠ ما يأتي :

كان يوجد في الطبقات العليا ميل لمعاملة المرأة كما يعاملها أغلب الشعوب لشرقية بحجزها في المنزل والمحاولة في جعل مقامها به مستحباً لها

وقال الامير بتاح هوتيب لمعاصريه : اذا كنت حكيماً فأنت مدبر بيتك وتحب زوجتك فيه املأ بطنها واستر ظهرها . ان علاج اعضائها هو الروائح العطرة التي تسر قلبها .

وعلى كل حال فمن المؤكد أن مركز الأمرأة دام منحطاً بدوام حكم الرعاة المشؤوم ولم ترجع البلاد لرفاهيتها الاولى ولا استرجعت المرأة منزلتها الجديرة بها في الهيئة الاجتماعية إلا بعد زوال حكم أولئك الظلمة العتاة .

وقد دلت الآثار أن رعمسيس الثاني بعد أن اصطلح مع أمير الخيطاس تزوج من ابنته في حفلة دينية قضت بمساواة الزوجة بزوجها مع تخويلها الحق في الاشتراك معه في كل متاع وهذه الحفلة الدينية كان من شأنها أن تجعل الاقتران مقدساً غير قابل للفسخ وكان الوفاق والتودد في عهد الملوك الرعمسيسيين سائدين في العائلات المصرية كما دلت على ذلك المراثي التي ترجمها جناب المسيو ماسبرو منها ما كتبه رجل أرمل مظهراً كيف كان يعامل زوجته قال : « تزوجتك وكنت شاباً ولبثت معك ورقيت مناصب

عديدة وبقيت معك . ما غادرتك ولا أحزنت قلبك قط بل سرت طبق مشيئتك . نعم هذا ما فعلت فقد كنت أدعو لبيتي قواد الملك ورؤساء جنوده المشاة والفرسان وعند حضورهم وسجودهم أمامك اذا كان شيء حسن فيما أتوا به وضعته بين يديك ولم أخف منه شيئاً لنفسي ولم أكن لك رفيق سوء حاذياً معك حذو سيد »

ومنها أن المرأة التي فقدت بعلها كانت تنوح عليه نوح من فقدت أمها فتقول « إن التي تبكيك أصبحت كاليتيمة التي أضاعت أمها » ثم تتمرغ حول فراش الفقيد وتصرخ قائلة « أيها العظيم لا تتركني واذا ابتعدت عنك فماذا يكون من أمري . إذا ذهبت عنك بقيت وحدك من الآن فصاعداً فهل من أحد يؤنسك. فيا من كنت تهوى المحادثة معي أراك صامتاً لا تنبس بكلمة »

وفي عهد الشارع العظيم الملك بوكوريس (من العائلة الرابعة والعشرين) كانت تتصرف المرأة في الاعمال على نوع يدل انها ليست دون الرجل في الكفاءة فالمرأة التي كان لها مركز مهم في مدة المملكة القديمة استرجعت حالتها الاجتماعية الأولى ففي عهد هذا الملك لم تظهر النساء في العقود كفريق متعاقد فقط بل كشهود أيضاً وهو مما يدل دلالة واضحة على تساوي الجنسين . وليلاحظ هنا أن هذا الحق لم يمنح للنساء في فرنسا إلا منذ سنين قلائل . وفي عهد الملوك الابسامتيكيين كانت الحالة هذه بعينها

وكانت أماسيس (من العائلة الخامسة والعشرين) من الملوك المولعين بالانقلاب والتغيير نخالف على نوع ما شعائر العائلة السالفة وتقليدها ولحق الضرر من ذلك بالمرأة وحصل في عهد الفرس ردّ لهذا الفعل ففي عقود

الزيجة كانت تفوز المرأة بنصيب الأسد وكان ضعف الجنس اللطيف ينتصر دائماً على قوة الجنس النشيط

أما في عهد البطالسة إذ تعاظمت سلطة المرأة على الرجل فالزوج الذي أصبح مسكيناً بطبيعة الحال كان مضطراً بعوامل الآداب العمومية أن يترك كل أمواله لعروسه مجرداً نفسه من كل شيء وبعد أن يفعل ذلك يضع نفسه تحت تصرفها التام ويقول «اليك أنت مرجع العناية بي في حياتي»

قال جناب مسيو ماسبرو « في النظام العائلي الجاري على هذا المنوال كان للمرأة الدور المهم والمركز الاول فيظهر أن الزوج كان يدخل بيت الزوجة أكثر مما تدخل هي بيته فبدأ من ذلك للعيان أن الرجل أدنى من المرأة وكان هذا المظهر محسوساً بهذا المقدار حتى انخدع به اليونانيون فقالوا مؤكدين إن المرأة كانت تحصر في وقت الزيجة ملكة إذ كان يعدها الزوج بأن يطيعها ويصدع لأمرها ويتعهد كتابة ألاّ يبدي أدنى معارضة على كل ما عساها أن تأمره به »

وكانت النسوة طبقاً لما قاله سوفوكل وهيرودتس يشتغلن بالتجارة والاعمال العمومية بينما كان الرجال جالسين في البيوت يشتغلون في صناعة النسيج . فهذا على ما يظهر لي فيه شيء من المبالغة فكل ما يمكن أن يقال هو أن النساء أصبحن سعيدات سائدات ذوات شوكة قوية . نعم أن بعضهن ظهر بمظهر الشراهة والجشع ولكن كثيرات منهن لم يتعدين حدودهن ولم يظهرن نياتهن بل كنّ يخصصن أزواجهن بالتودد الصحيح والحنو الفائق كما تظهر ذلك جلياً أغاني العشق ودونك مثالها

« يا أيها المحبوب الجميل المحياء مناي أن أصبح زوجتك مالكة أموالك

فتضع ذراعك فوق ذراعي وتتنزه كيف شئت وحينئذ أناجي قلبي الكائن في صدري بسؤلي اذا لم يأتني حبيبي الأسمى ليلاً أشبهت سكان القبور . ألست أنت الصحة والحياة المبهج بصحتك قلبي الذي يهواك . نصوت لحمامة يرن وهي تقول «الفجر لاح فأين طريقي» فأنت هو الطائر تدعوني. وجدت أخي في غرفة النوم التي له ففرح به قلبي ولن أفارقه بل نتمشى ويدي في يدك ومعك أكون سعيدة في كل مكان . لأنه يجعلني أسعد الزوجات ولن يجرح قلبي البتة . لأضعن رأسي على الباب الخارج فهوذا أخي اذ عيناي شاخصتان نحو طريقه وأذني مصغية لوقع خطاه في الحوش لأني جعلت حبي لأخي ذخري الوحيد وقلبي لا يهدأ عن ذكر اسمه

وبقدر ما كان يتزايد مركز المرأة المدني بسبب آداب المصريين العمومية كان يتناقص في عهد اليونان بفعل الشرائع فكان للنساء غاية عهد كليوباترا الحرية والاستقلال الفائقان في تصرفهن سواء كن متزوجات أو لسن كذلك. فمنذ ظهور العائلة الشهيرة التي أصدرها هذا الملك البطليموسي خضعت المرأة لسلطة الزوج ولم يكن في مكانها أن تمضي عقداً بعد زواجها إلا برضى زوجها واشتراكه معها في ذلك العقد .

فهذه كانت حالة المرأة الفرعونية في حياتها العمومية والخصوصية ومنها يرى كيف كانت راقية ومغبوطة . ولكن مما يجب الاعتراف به أن هذه المرأة لم تحظ بهذه المنزلة إلا لاتصافها بصفات سامية جعلتها أهلاً لها فلم تكن جميلة ورشيقة فقط ولكنها كانت أيضاً نشيطة زكية متعلمة وذات أقدام وهذا مثال ذلك :

الملكة نيتوكريس التي من العائلة السادسة والملقبة بذات الوجنتين

الورديتين كانت شهيرة بفرط ذكائها. أفليست هي التي أرادت أن تأخذ بثأر أخيها وزوجها المقتول فأمرت ببناء قاعة تحت الأرض وأولمت بها وليمة ودعت اليها جميع الذين تسببوا في الجريمة واهلكتهم عن آخرهم بادخالها الماء في تلك القاعة بواسطة قناة مخفية أثناء تناولهم الطعام والشراب

جاء في رواية ستنا أن ابن رعمسيس الثانى كان يتنزه قرب هيكل فتاح وإذا بفتاة ذات جمال باهر عديم المثال محلاة بكمية وافرة من الحلى الذهبي تصحبها فتيات واثنان وخمسون رجلاً يسيرون في خدمتها وهي طابوبو ابنة نبية الآله بصط ذهبت هنالك لتقدم العبادة لفتاح الآله الاعظم

فلما ابصرها ابن رعمسيس فتن بحبها وأصبح لا يعي مكان وجوده فاكثر من استعطافها ولكنها لم تعطف عليه إلاّ بعد أن سمح أن يتنازل لها عن جميع أمواله باتخاذه اياها زوجة له

وكانت الملكة هاتاسو شهيرة بطمعها وقوة عقلها وجأشها فكان لها جمال النساء ورشاقتهن مع شجاعة الرجال وشهامتهم .هذه قبضت على زمام الاحكام فاصبح ملك زوجها موفقاً سعيداً وقد صورت على مسلات الكرنك لابسة ملابس الرجال وجاثية امام الآله امون لتنال بركته ولا يزال هيكل الدير البحري على توالي الاجيال شاهداً على اقتدار هذه الملكة الشهيرة وحبها للفنون والآثار الجليلة . ولا يخفى أن الملك سليمان وهو متقدم في السن ضاف الى زوجاته ابنة ملك مصر التي قال عنها شارب انها فاقتهن جميعاً بجمالها وظرفها وقد انشيء زبور بالعبرانية احتفالاً بزواجها

والكسندرين هيباسي ابنة ثيون الرياضي كانت ذات جمال شائق مع احتشام ورشاقة وعلم وفصاحة . ولما كان لها القدح المعلي في العلوم والمعارف

أخذت تعلم الفلسفة بطريقة علنية في مدرسة الاسكندرية السهيرة فكان علماء الأجانب يقصدونها ليستعينوا بانوار معارفها على حل ما أغمض عليهم من المسائل الفلسفية

ويوجد في المتحف البريطاني نسخة من العهدين القديم والجديد مرقومة بخط اليد على جلد الغزال فهذه النسخة كتبت توًّ بعد مجمع خلقدونية (المنعقد سنة ٣٢٥ بعد المسيح) بيد سيدة مصرية شهيرة تدعى تكلا وفي الامكان ايراد أمثلة اخرى كثيرة من هذا القبيل ولكني أظن ان الذي أوردته منها كافياً لبيان درجة الرقي والكمال التي بلغتها الامرأة المصرية

اما المرأة المصرية العائشة في هذه الازمنة الحديثة فلاريب أنها تكتفي ببعض من مزايا أولئك السيدات اللواتي سكنّ قديماً وادي النيل وانما عنعها خلودها الى السكينة الذي عرفت به من ابداء أي عمل في هذا السبيل ولكن ما يبثه الآن التقدم الحديث من روح تحرير المرأة وما تسوقه اليها البلاد الاجنبية من تيار الافكار العصرية وما لها من الصلات مع العائلات المختلفة القاطنة في هذه البلاد لاتلبث ان تلقنها وتنشيء فيها حتى م ذ بها فيكون مثلها مثل « ممنون » بان لاتبقى طويلاً مغضية عن أشعه الفجر الحديث

والواقع الآن أن الرجل هو الذي يدافع عن حقوق المرأة فاننا لاننسى تلك النهضة التي سيق لاحداثها بعامل الانسانية المصلح الكبير الخالد الأثر قاسم بك امين بقصد تحرير المرأة المصرية . هذا الرجل قال في هذه كتابه الموسوم بالمرأة المصرية ما معناه « أرى أن الحياة ليست كلها مرارة بل فيها لمن يدرى قيمتها ساعات ملاءى بالحلاوة . ومن ثم نتج أن لو وجد ذا تمكن بين الزوج والزوجة كانت في الحياة ساعات احلى بكثير وهذا هو سر السعادة

الذي ابوح به واهديه الى معاصريّ رجال ونساء »

فهل هذه السعادة موجودة في العائلات المصرية ؟ والجواب على ذلك عند لمؤلف نفسه حيث يقول في الصحيفة ٣٠ من كتابه ما معناه « في الهيئة الاجتماعية المصرية الرجل والمرأة عدوان لاوفاق بينهما الاحيظات يعودان بعـد انقضائها لى معترك دائم فالرجل يستعين بضعف المرأة وجهلها على تجريدها من كل ماتملكه والاستئثار بكل فائدة أما المرأة فتحاول أن تدافع عن نفسها لمنع ذلك الاغتصاب ولكن لا تجديها محاولتها شيئاً » ثم قال في الصحيفة ٢١٥ ما معناه « لا يكون للمصريين مكانة في العالم المتمدن إلاّ اذا اصبحت بيوتهم وعائلاتهم ذات وسط راق يؤهلهم الى المدنية ولا يمكن ايجادهذا الوسط الراقي في البيوت والعائلات الا بتربية المرأة التربية الضرورية واشتراكها مع الرجل في افكاره وآماله وآلامه أن لم نقل في اعماله أيضاً »

ولا اكاد أرى حاجة للقول ان الازواج المصريين وبالاخص الشبيبة الحاضرة المتطلعين الى الزواج يلهجون بهذه الأفكار عينها ويعللون النفس بعين هذه الاماني

وقد صادفت الشكوى من هذه الحالة اذناً سامعة من الحكومة المصرية فقد بدأت وهي تخصص في ميزانيتها مبلغاً اضافياً لتوسيع نطاق التعليم النسائي

بالاجمال فان توارد المساعي من كل جهة يؤذن بترقية المرأة المصرية ولي الأمل أن هذه النهضة لاتقف بل يبقى تيارها متواصلاً فتتوفق المرأة الى استرجاع ما كان لها من المكانة والشرف والمزايا الجديرة بها بل سوف تعيد لنا في المستقبل امرأة العصور الماضية

تصحيح . اقرأ في ص ٧٢ سطر ١٣ بعد كلمة وسط القاعة حرف « F »

الاقتصاد السياسي

عند قدماء المصريين [١]

حضرات السيدات والسادة

من أهم ما فكر فيه مؤسسو الجامعة المصرية لاعلاء شأن العلوم بيننا هو في نظري محاضرات السيدات كوفرير . وبجانبها في الاهمية محاضرات المسيو جرمان مارتن عن الاقتصاد السياسي . أما وقد سبقت فبينت لحضراتكم قبل السيدة كوفرير المنزلة العليا التي وصلت اليها المرأة المصرية القديمة سواء كان في العائلة « كسيدة المنزل » أو بين صفوف الامة كحاكمة البلاد أو امرأة أو موظفة في الحكومة الى آخره فاني احدثكم اليوم عن الاقتصاد السياسي عند قدماء المصريين . ولقد اشتغل بهذا البحث المفيد بعض المؤلفين بعد أن كان موضع الاهمال . على أنه لم يظهر بينهم الآن من دقق النظر وأوفى الموضوع حقه من العناية اللائقة به . ولقد وضع من بضع سنين المسيو متسيل ماريني مؤلفاً في ثلاثة أجزاء موسوماً « الاقتصاد السياسي عند الأمم القديمة » واذا أمعنا النظر في هذه المؤلفات نجد ان المؤلف لم يأخذ إلا أطراف هذا البحث . غير ان الاكتشافات التي ظهرت أخيراً تمكننا من درس الموضوع بطريقة أوضح . ويجد عشاق التاريخ القديم في المطبوعات الحديثة للآثار المصرية وأخصها ما نشره صديقي الفاضل الاستاذ وجين ريفيو معلومات ثمينة عن النظامات التشريعية والاحكام الاقتصادية كما كان يمارسها قدماء المصريين

(١) ترجمة المحاضرة التي ألقاها بالمجمع العلمي المصري بتاريخ ١٠ يناير سنة ١٩١٠

ولما كانت محاضرتي لا تستغرق إلا بضع دقائق معلومة لا تكفي بالطبع لتمام الاحاطة بطريقة المعيشة عند الشعب المصري . لذلك اقتصر بايراد المبادئ الاقتصادية بوجه عام عند سكان وادي النيل في العصور الخالية .

وكلما وقفنا على سرار التاريخ المصري الذي يستخلصه لنا المسيو ماسبرو وزملاؤه ومكاتبوه من وقت لآخر كلما بان لنا علو شأن ما بلغ اليه المصريون القدماء في الشأو وفي المدنية وتلك الروح الشريفة التي غرست في أفئدتهم وتناولت مجتمعاتهم

ومتى عرفنا درجة الرقي الاجتماعي لهؤلاء السكان في جميع مظاهر الحياة الانسانية بقى علينا أن نتساءل عما زادته حضارة اليوم بعد مرور تلك السنين العديدة . وعليه قد تعرض على لسان البحث مسائل اجتماعية اقتصادية من حسنات الحضارة القديمة لكي ندرسها لا بروح الانفعال والمناظرة بل بروح الواجب وتبادل المنفعة المشتركة . ولا بأس قبل الاسهاب في الموضوع من القاء نظرة عمومية في تاريخ الاقتصاد السياسي

يعد كما تعلمون علماء العصر الحالي الاقتصاد السياسي من العلوم الحديثة . ويقولون أن هـذا الفرع من العلوم الاجتماعية الذي هو عبارة عن درس مصالح الاجتماع المادية يبتدئ تاريخه من القرن الثامن عشر حيث وضع بعضهم قواعد وأصول استخلصوها من الحوادث الاقتصادية وكوّنوا منها فناً مخصوصاً . وقال البعض أن آدم سميث هو أول من أسس هذا النظام وقال آخرون ان الموسيو يوحنا بابتست ساي هو الذي فرق ما بين السياسة أي علم « نظام الاجتماع » و « الاقتصاد السياسي » الذي يعلمنا كيف تتكوّن وتوزع وتصرف موارد الرزق بحسب ما تقتضيه حاجات الجماعات . ولو ألقينا بنظرنا بعيداً في بطون التاريخ لوجدنا انه كان للحكومات في تلك الازمان

مبادئ اقتصادية مؤسسة على الاختبار العملي أو على نظريات وتخمينات أرادوا السير بمقتضاها . فللكلدانيين الفضل بمعاهدهم العلمية في قانون التجارة الحديث . ولم تفت أدق المسائل الاقتصادية عن أفهام اليونانيين والرومان . ولاسبرطا وروما اقتصاد سياسي كما لانجلترا وفرنسا اليوم. ولا تقل مؤلفات بلاتو وارسطو في الاهمية على مؤلفات آدم سميث ويوحنا بابتست ساي. وفي العصور الوسطى أي ما بين القرنين الخامس عشر والرابع عشر أيام الاشراف كانت السلطة لاهل الفلاحة والجند فاهملت الصناعة وضاقت دائرة التجارة. وفي القرنين المذكورين أظهرت الكنيسة في منازعاتها المتوالية مع السلطة الزمنية عدم كفاءتها في ادارة الشؤون الدنيوية وحكم العالم. وابتدأت قوة الافراد في الظهور . وازدادت طبقات العمال في الأهمية فانتشرت الصناعة ووضع أساس المصارف العمومية بعد ان أخذت التجارة في بلاد ايطاليا شأناً عظيماً

وفي القرنين الخامس عشر والسادس عشر ابتدأ تاريخ التمدين الصناعي الحديث فاكتشفت اميريكا واتسع نطاق الملاحة وسير السفن البحرية وخصوصاً التطبيقات العلمية والعملية .

وفي القرن السابع عشر بيّن بعض الفلاسفة ان ثروة الأمم ليست نتيجة وجود المعادن الثمينة فقط بل هي نتيجة موارد الطبيعة وعمل الانسان معاً

ولننظر الآن كيف كان الحال في أرض الفراعنة العظام. ولنقتف أثر الرقي الأهلي متبعين بالأخص هذه الحالة بحسب الاشكال التى تخذتها تحت قيادة رؤساء الشعب في الأزمنة المختلفة من ملوك وكهنة ورجال الجيش قبل أن نصل منها الى تكوين عشائر الاشراف تحت زعامة رمسيس الثاني. ونرى بعد كيف تلاشى شيئاً فشيئاً هذا النوع من الحكومة خلف سلطة الاشراف

الشخصية . ونرى أخيراً التغييرات التي أحدثها بوخريس ورمسيس في سبيل الحرية الشخصية . نجد في بدء تاريخ مصر أنها كانت خاضعة لسلطة الفرد أي انظام حكومة ملكية . وكانت تحصر موارد المعيشة في ذلك الوقت من وجهة اقتصادية في محصولات الأرض الطبيعية . وكانت عوامل المحصولات من جو وأرض وعمال متحدة ومرتبطة لانماء موارد الرزق في أرض الفراعنة وقد كان وادي النيل في الأصل عبارة عن أرض يغيّر الفيضان في كل سنة حالتها من حيث علاقتها بالمحصولات . وكان عندهم قاعدة مخصوصة لمسح الأراضي كانوا يلتزمون باعادة تطبيقها من جديد بعد هبوط الماء . ومن هنا ظهرت في مصر أهمية المساحة وفك الزمام . وعلا كعبهم على مر الأيام في هذا السبيل حتى أن يوليوس قيصر أحضر بعض المساحين من مصر لكي يقوموا بمساحة أرض الغال (فرنسا الآن) التي فتحها حينذاك . وكان لا بدّ لكل مشتغل في الأرض من شريك له في العمل . وهذا الاشتراك لا يمكن تطبيقه على نقطة أو جزء معين بل على كل وادي النيل . ومن هنا نشأت الحاجة لادارة عامة أي السلطة التي تصدر تعليمات واحدة تنطبق في كل جهة ومكان . وعليه صار تجنيد طائفة من العمال خاضعة لهيئة تشريعية تحل الصالح العام المحل الاول من الاعتبار

ولو أن الزراعة كانت في ذلك الزمن هي ثروة البلاد إلا أنه لم يكن نظام الطبيعيين « Physiocrates »[1] هو الوحيد المتعارف بينهم بل كان للصناعة أهمية كبرى بازاء الزراعة أيضاً . فالنظام كان نظاماً اشتراكياً للحكومة . والتاريخ ذاته يدلنا على أن حكومة الفراعنة الملكية كانت عاملاً قوياً في رقي البلاد . ولم تكن

---

(١) ان الطبيعيين هم الذين اتبعوا مبدأ العالم كويسانى القائل بأن للزراعة الكعب الاول وان طبيعة — أي هي الأرض عندهم — هي أهم بل منبع موارد الثروة

الحكومة إلا نوعاً من جماعات متضامنة تحمي المصالح العامة من اغتيال الافراد

فاهتمام الأهالي كان موجهاً بصفة خصوصية نحو الزراعة وربما لم يكن هناك ما هو أكثر تقدماً منها . وكانت التجارة وقتئذ ضئيلة جداً بخلاف ما كانت عليه عند الكلدانيين لأنه لم يكن للمصريين علم كبير بالتجارة . وكان الشعب المصري بطبيعته محباً للسكينة والهدو لا كما قال منسيل ماريني عنه انه « شعب معربد صعب الانقياد للحكومات » وذلك خلافاً للمدن القديمة التي كانت مقراً للحروب المستمرة هجوماً ودفاعاً . فمصر كانت كما هي الآن بلاد الهدو والعمل والنشاط والفضل في ذلك راجع للري حيث كان من الممكن زراعة أشياء كثيرة مختلفة حتى في الوجه القبلي .

فثروة مصر وكنوز أرضها كانت ثمار أعمال أولئك الفراعنة الاقدمين فكان الفراعنة أصحاب الأرض على مثال الخليفة في الشريعة الاسلامية الغراء . وتعهد فلاحة الأرض لرعاياها . على ان أولئك المزرعين المجتهدين لم يكونوا تحت رحمة مطامع السيد بل كانت هناك قواعد نظامية مرعية . والشريعة الدينية كالمدنية على السواء تحرم قطعياً ان يحمل الرجل فوق ما يحمل وكان عمل الرجل مقرراً بقوانين ملوكية .

وكان النشاط عاملاً في طول البلاد وعرضها . فكنت ترى في كل مكان فرقاً مؤلفة من خمسة أو عشرة مزارعين وكان الرئيس في عمله كالعامل البسيط إلا انه كان يعطي له عمل أقل منه نظير مراقبته . وكانت الاعمال واحدة سواء كان في أرض الملك الخاصة أو في الارض الممنوحة للموظفين الحربيين والدينيين . وكان يعمل عن الجميع حساب دقيق فيقيد الفلاحون المشتغلون في فلاحة الارض كما تقيد الأراضي نفسها وما يستغل منها . وكان

للحسبة في كل الازمنة شأن خطير في الادارة وخصوصاً في الاقتصاد السياسي عند المصريين . فعند القدماء كان الكتبة يقعدون القرفصاء . وأما الكتبة والكتبة الاول اليوم فيجلسون على مقاعد. والكل يشتغلون على الدوام بذات النشاط وبذات الأيدي. فاذا أدى الكاتب الامتحان وحصل على الشهادة صار مرشحاً لتولي أعلا المناصب . فيمكن أن يصبح وزيراً أو والياً أو قائداً ولو انه ابتدأ عاملاً بسيطاً .

وقد ذكر المسيو ريڤيو أن الأراضي الزراعية كانت تحت مراقبة الملك مباشرة . ويقوم بفلاحتها جماعة من المزارعين يرأسهم ناظر . وكانت هذه جماعات تقدم محصولات الارض للملك. وعلى هذا النظام كان يسير القائمون بالأشغال العمومية وأصحاب الحرف والصنائع . فينقسمون فرقاً فرقاً عدد كل منها ٥ أو ١٠ رجال. ويعطي لكل من العمال نصيبه من الغلة من مخازن الملك

فكانت معاونة وتضامن الافراد ضرورية وخصوصاً في بلد كمصر حيث كان العمل الاشتراكي لازماً

وكان أول واجبات المصري الفلاحة واقامة الجسور وحفر الترع والخلجان وغير ذلك . ويلي ذلك واجباته نحو عائلته ومواطنيه أعني زملاءه في العمل . ثم واجبه نحو الجميع

وكان يفتخر ملوك وحكام المملكة في الزمن القديم بأنهم نشروا الوية العدل والاحسان وآسوا الفقير والارامل والايتام غير تاركين فرداً يئن تحت اثقال الحاجة والفاقة . وبأنهم كانوا ذوي دماثة ورقة في الاخلاق .

وكان الملك بينهم آلهاً منظوراً . هو المدبر لأمور الزراعة والصناعة بطريقة لا تدع محلاً لسخرية رجال الاجتماع في العصر الحالي .

ولنا في حسن ادارة الوالي اميني من العائلة الثمانية عشر مثال حسن .

لما عين الملك هذا الوالي رئيساً لاحدى العشائر قال بأنه أفلح لارض جهد استطاعته لكي تنتج محصولاً جيداً لغذاء الاهالي. وكان في ايام القحط يعطي للأرملة كالمرأة المتزوجة وللفقراء كالاغنياء على السواء . ولم يدخر لنفسه شيئاً عند وفرة المحصول. ويرسل الى الملك مايأتي اليه . ويترك للملاك ولرؤساء الفرق مازاد من المحصول الذي استثمروه بمعاونة عمالهم .

وقد آلت الاراضي الزراعية في عهد الامنوفيسيين لديتوقراطي لاصل الى ملكية الانتفاع . وصارت في عهد الرعامسة شبه ملكية . أما اراضي الملك الخاصة فقد بقيت على حالها بدون ادنى تغيير لنفوذ السلطة الملوكية . على ان ماأعطاه الملوك لاقاربهم. ومامنحه الملوك الفاتحون لولاتهم. وماجادوا به أيضاً على اتباعهم المستحقين من الاراضي المعفاة من الخوارج . كل هذ كان سبباً للخروج عن القاعدة المألوفة وآل الى نزع الملكية تدريجيا من يد الملوك. وهذه الاحوال الاستثنائية الجديدة سهلت الاصلاح على عهد رمسيس الثاني وأدت الى ملكية الافراد وازداد ذلك تدريجيا الى أن افضى الى الاصلاح الذي اجراه بوخوريس وامازيس في هذا الشأن. وبازاء مسألة الملكية تعرض مسألة الوراثة بواسطة العشائر وهي من الاهمية بمكان . فانه لم يحصل تغيير في عوائد البلاد من حيث حالتها الاجتماعية . فالابن كان يجب عليه ان يكون كما كان أبوه . ولا يمارس إلا ما كان يصنع هذا الاب . ولذلك نرى انه قد حافظ ابناء في عائلات كثيرة بطيبة وممفيس على عهد جدودهم في الصناعة مدة أجيال عديدة. وقد بين هيرودوت وسقراط وبلاتوا و سترابون وديودورس على نوع ما عدد تلك الطوائف المصرية واقدم هذه الطبقات

طائفة الكهنة . وعلى مثالها ظهرت فيما بعد طائفة العسكرية . وانتظم حال هذه الطبقات في زمن الرعامسة . واختص رجال الدين شيئاً فشيئاً باسراره وأسرار العلوم . وقبضوا على زمامها بايديهم وأبوا أن يلقوا بمفاتيحها لمن ليس من طبقتهم . وحفظوها لابنائهم من بعدهم . وكان رؤساء هيا كل ممفيس وسايس يقومون بتأدية الوظائف المختلفة للملك . فكان للكهنة أعظم شأن بين الناس بعد الملوك . وأما اجراء العدل فكان معهوداً لهم . فقويت بذلك شوكتهم لدرجة امكن بها قسوس طيبه وآمون خلع الرعامسة . وأسسوا بانفسهم بعدها العائلة الحادية والعشرين .

أثبت التاريخ أن رمسيس الثاني هو أول من أسس نظام العسكرية ووضع له خطة مخصوصة يسير بموجبها وقد أفرد لطائفة العسكرية قسماً كبيراً من الاراضي المصرية توزع على أفراد هذه الطبقة ويكون لهم حق الانتفاع بها . ولم يفعل سيزوستريس ذلك مكافأة للعساكر لقيامهم بواجب الدفاع وحماية الوطن من الغارات الاجنبية بل لانه كان يعمل على استخدامهم في الفتوحات العتيدة وشن الغارات الشعواء على جيرانه كما ذكر ذلك شاعر رمسيس الثاني في قصائده التي وجدت في جداول الكرنك. وقد وهب هذا الملك لعساكره جانباً كبيراً من أملاكه وأراضيه الخصوصية التي آلت اليه من طريق الأرث . ووجدت بين الآثار أوراق تثبت أن وظائف القيادة العسكرية كان يتوارثها الابن عن أبيه وكان يمكن لاحقر جندي أن يصير ضابطاً أو رئيساً كبيراً في الدرجات العسكرية اذا أظهر كفاءة أو مقدرة في حمل السلاح والقيام بالمهام الحربية وكان باقي الأهالي في عهد حكم رمسيس المومي اليه لايملكون في الحقيقة الا المواشي وأما الأراضي فكلها

كانت ملكاً للملك ولهم حق تفليحها والانتفاع بغلاتها وثمراتها فقط . ولكن في عهد بوخوريس تغير هذا النظام حيث وزع هذا الملك الاراضي على الاهالي وجعل لها حدوداً معينة ونظاماً مخصوصاً ومن هذا الحين عرف المصريون حق الملكية بعد أن كانوا لايعرفون غير حق زرع الارض فقط .

وقد ترتب على تخويل حقوق الملكية والانتفاع لبعض الطوائف المصرية مثل الكهنة والعساكر تقييد باقي الطبقات الاخرى من الأهالي وحصر الانتفاع في تلك الطوائف الممتازة .

ولايفوتنا هنا أن نقول كلمة عن الطريقة التي كانت متبعة في نظام الوراثة عند قدماء المصريين لما فيها من النفع والفائدة والمزايا الخصوصية . فأن انتقال حقوق امتلاك الاراضي والمواشي والمحاصيل من ذرية الى أخرى بلاانقطاع كان من شأنه أن يزيد في الخصوبة والنماء وهذا هو السبب الحقيقي في تقوية تلك الطوائف المصرية التي تملك الاراضي فأن حصر الوراثة في ذريتها كان على الدوام سبباً لخصوبة الأرض وتكاثر المحصولات وزيادة عدد المواشي وحسن تربيتها وقد يخطئ الذين يظنون أن السبب الوحيد في تقوية هذه الطوائف هي لاغراض سياسية أي حصر حق الملك وحوزة الأراضي في أيدي فئة من الناس استأثروا بكل مرافق الحياة وخيرات الارض

وعلى كل حال فان تقسيم الشعب المصري الى طوائف مختلفة ترتب عليه بالتالي تقسيم الأراضي التي كان يتملكها الملك ذاتياً والكهنة والعساكر وبهذه الطريقة تحولت الاملاك الذاتية الى شبه التزامات متجددة .

وفي حكم العائلة الثانية عشر سلمت بعض لممتلكات الخاصة بالملك

وبالكهنة الى بعض الأخصاء للانتفاع بها واستغلال ريعها. ولا شك أن هذه الأملاك نفسها هي التي جرد منها فرعون يوسف الرعاة كما جاء في التوراة.
وبعد طرد هؤلاء الرعاة ابتدأ تقسيم الأراضي على الصورة التي مر ذكرها آنفاً ومن المرجح أن فرعون مصر الذي كبر في عهده شأن موسى هو رمسيس الثاني أوسيزوستريس وهذا الملك هو الذي يعزى اليه تقسيم الأراضي المصرية وتوزيعها على طوائف مختلفة ووضع ضرائب مخصوصة لها .

ومع أن البلاد كانت منقسمة في ذلك العهد الى قبائل وطوائف مختلفة فأن روح التعاون وتبادل المنفعة كان سائداً بين هذه الطوائف والقبائل حتى كان يخال للناظر الى حالتها العمومية أنها أفراد عائلة واحدة .

وفي عهد العائلة الحادية والعشرين الدينية والعائلة الاثيوبية التي أعقبتها كان الملك الحقيقي والاله في مصر (آمون) الذي كان قابضاً على السلطتين الدينية والمدنية معاً وفي ذلك العهد أخذت تتقلص المبادئ الاقتصادية التي وضعها ملوك مصر من عهد رمسيس وكذلك سقط مبدأ فصل السلطات المختلفة عن بعضها من ذلك العهد واختلطت أموال الملك بأملاك الكهنة وأصبح رجال العسكرية بمثابة خادمين ومنفذين لأوامر هؤلاء الكهنة وأما طائفة الأشراف فأخذت في الزوال والاضمحلال. وفي ذلك العهد صار رب كل عائلة هو صاحب النفوذ الأعلى والمرجع الأخير وهو بالاشتراك مع زوجته الشرعية يستخدم من شاء في تفليح أرضه واستغلال خيراتها .

وفي عهد آمون الاله والملك في العائلة الحادية والعشرين والعائلة الاثيوبية كان له أخصاء وأصدقاء في منزلة أشراف المملكة هم بمثابة حاشية خصوصية له وأما باقي المزارعين والعمال وغيرهم من طبقات الشعب فلم يكونوا وقتئذ

إلا خداماً للاله . وكانت توزع عليهم سنوياً الأراضي للاشتغال فيها وكان الوسيط بين هؤلاء الفلاحين وبين الملك هم هؤلاء الأخصاء والأصحاب وقد وجد هذا النظام في عهد أمازيس أيضاً وهذا الحاكم كان يمثل صورة رب العائلة في طبقات العامة . وقد ترك هذا النظام الخاص بطبقتي الاشراف والعامة أثراً ظاهراً محسوساً في أخلاق الامة . وبالجملة فأن شكل تقسيم الامة الى طوائف وقبائل مختلفة الطبقات في وادي النيل ابتدأ في عهد بوخوريس هذا ثم في عهد أمازيس الذي في وقته انشئ نظام الطوائف والقبائل ووضعت القوانين لحماية العمال من أضرار المبادئ الارستوقراطية (سطوة الاشراف) وقد وضع أمازيس في قوانينه كل ما يهم من النظامات الخاصة بالاقتصاد السياسي

وبين هذه القوانين الاقتصادية السياسية وضعت قوانين خاصة بالعمل

وقد استعان الملك أمازيس في عهده بجمعية وطنية للنظر في ما يلزم ادخاله من الاصلاحات العمومية في البلاد وهذا ما ساعده على حفظ مركزه أمام رجال الدين وأصحاب المبادئ الأرستوقراطية . ومن مآثر هذا الملك أيضاً أنه وضع نظاماً آخر لتوسيع دائرة الحرية الشخصية وبيان ذلك أنه كان يوجد قبل عهده في كل هيكل من الهياكل المصرية سجل خاص تذكر فيه إحصائيات دقيقة عن عدد الأهالي في كل قسم والأراضي التي يمتلكونها . وكان في كل قسم هيكل خاص كان إلهه هو سيد هذا القسم وحاكمه فرأى أمازيس أن يلغي هذا السجل ويجعل الاقسام كلها موحدة وتابعة لسلطته العليا . ولكن سجلات الهياكل التي نحن بصددها بقيت طول مدة حكم العائلات الأثيوبية موجودة الى جانب السجلات الملوكية التي أنشأها ذلك الملك . ولنتكلم الان قليلاً عن طريقة التعامل والبيع

والشراء التي كانت جارية في عهد المصريين القدماء .

كان المصريون يتعاملون في أسواقهم بطريق التبادل بالأشياء مع جعل القمح الاساس في المعاملة لأنه من أهم الحاجيات وأما المعادن ذات القيمة فكانت تحفظ لذوي السلطة و المقام وقد أخذ المتشرعون الاحتياطات اللازمة ليجعلوا النقود من مظاهر الأبهة والعظمة في أيدي الكبراء فقط.

وفي أول عهد المصريين القدماء لم تكن النقود معروفة بالمرة وبقيت طريقة التبادل بالاشياء ذات القيمة جارية ومستعملة عندهم مدة طويلة وعلى ذلك كانت مبادئ الاقتصاد السياسي في عهدهم غير مؤسسة على مبدأ المعاملة بالنقود باعتبار أنها مقياس لقيمة الاشياء المبنية على قاعدة الأخذ والعطاء بل كانت مبنية على مبدأ الواجب والاحسان .

ومن جملة المبادئ الاقتصادية التي تقررت في ذلك الوقت أنه لا يجوز تثمين الأراضي وبيعها بالنقود وعليه لم تستعمل النقود في المعاملات إلاّ في عهد امازيس هذا ومن ثم صارت العقود كتابية وبالنقود .

على أن كل هذه النظامات والقوانين الجديدة لم تغير شيئاً من نظام الاقتصاد السياسي الذي كان معروفاً منذ القدم في هذه البلاد بل إن مصر بقيت مدة طويلة تتخذ القمح أساساً لمعاملاتها الاقتصادية حتى انه بعد استعمال النقود بقي القمح حافظاً قيمته باعتباره من أهم الاشياء المستعملة في التعامل والتبادل وبقي في مصر القديمة خزينتان احداهما خزينة النقود والأخرى خزينة الغلال وهي المخازن الملوكية .

ويظهر أن التقاليد والمبادئ الاقتصادية التي كان يعول عليها المصريون القدماء هي التي جعلها الرومان واليونان في ما بعد أساسا لمعاملاتهم وخصوصاً

في عهد الملك قسطنطين . وقد وجدت في آثار البطالسة كتابات كثيرة ذكرت فيها كيفية تقسيم الأرض في ذلك الزمن القديم على نحو ما أوضحناه سابقاً ووجدت مثل هذه الآثار في رشيد .

وقد اقتبس الرومانيون من شريعة أمازيس كل ما يتعلق بسلطة أصحاب الأموال وأسياد القبائل والعائلات وتحديدها وما يتعلق بتوسيع دائرة الحرية الشخصية بعد أن كانوا قد تركوا هذه النظامات وصارت منسية .

ومما يهم ذكره هنا اتماماً للفائدة أن آثار هذه المبادئ الاقتصادية بقيت معمولاً بها في مصر الى نحو القرن الثامن عشر وخصوصاً فيما يتعلق بممتلكات الملك الحاكم حيث كانت الاراضى توزع سنوياً وكان نظام الماسبجي والمحتسب والملتزم عندهم من بقايا ذلك النظام المصري القديم . والأراضي التي كانت توزع على الفلاحين سنوياً يقومون هم بتفليحها وزراعتها ويدفعون الخراج عنها وكذلك في الوجه البحري والى ذلك العهد أتبع النظام نفسه الذي كان معمولاً به في عهد الملك أمازيس . وهذا مما يدل على أن علم الاقتصاد السياسي كان في إبان تقدمه في ذلك العصر القديم وهو كغيره من الفنون والعلوم المصرية القديمة بلغ أوج التقدم والنجاح . ومنه اقتبست الأمم والشعوب المتأخرة ما مهد لها السبيل في جعل هذا العلم من العلوم العصرية المستقبلة وقد وضعت في هذه الايام المؤلفات الكبيرة والمجلدات الضخمة في شرح مبادئ هذ العلم والفضل في ذلك كله لأجدادنا المصريين القدماء كما يشهد التاريخ

صدى بحث تاريخي

عن قدماء المصريين

نشرت جريدة مصر بعددها الصادر بتاريخ ٨ فبراير سنة ١٩١٠ بالعنوان المتقدم ما يأتي

نشرت جريدة لابورص اجبسيان تحت هذا العنوان مقالة هذا تعريبها :—

أن العبارة التي نشرتها الاجبسيان غازيت في ١٢ الماضي بشأن الخطاب الذي ألقاه عزتلو عطيه بك وهبي في المجمع العلمي المصري في ١٠ منه أفضت الى بحث جدلي في نقطتين مهمتين (احدهما) قول حضرة الخطيب ان النقود تداولت في المعاملات بمصر قديماً في عهد أمازيس الثاني (والثانية) اطلاق حضرته اسم سيزوستريس على رعمسيس الثاني . فاعترض صاحب المقالة في الغازيت عن الاول بأن تداول النقود في هذا العهد مما يرتاب فيه وأن ادخال النقود في مصر لايمكن أن يكون قبل عهد البطالسة

وقد رد حضرة عطيه بك على الاعتراض الاول بقوله إن مؤلفات كل من العلماء ماسبرو وشباس وريفيو دلت على أنه وجد قبل ذلك العهد بمصر اوزان وسبائك كانت تستعمل بصفة نقود بعد فحصها وقسمتها الى اجزاء صغرى . وأن في عهد العائلات الثانية عشرة والسابعة عشرة والثامنة عشرة كانت تقدر زنة النقود من كل معدن باعتبار النسبة التي بينها وبين نقود معدن آخر . وقد بين المسيو ريفيو في بحثه عن بردي كتب بلغتين في عهد فيلوباتور ن في عهدي ضوضميس و مينمحمت كان لكل معدن وحدة خصوصية. وقد أورد العالم المذكور لالفاظ المصرية العامة اليونانية التي تؤيد المشابهة بين

النقود اليونانية والمصرية . وفي عهد البطالسة كان الكاهن الشرعي يفرض برسم الهيكل على المبيعات ضريبة عشرية من النقود وقد ورد ذكر هذه الضريبة العشرية بصريح العبارة مرقوماً على عامود نوكتانبو الثاني الذي اوضح غوامضه المسيو ماسبرو سنة ١٨٩٩ وهناك دليل آخر على وجود النقود بمصر قبل عهد البطالسة وهو أنه منذ العائلة الثامنة عشرة كان للحكومة خزينتان احداهما للقمح والاخرى للنقود .

وبالاجمال فأن طريقة النقود التي اختارها المقدونيون كانت موجودة من قبل عهد امازيس وأن في عهد هذا الملك المتشرع كمل ظهورها فوجدت عقود رسمية واتفاقات بين المتعاقدين على شيء معلوم من النقود

أما نقطة البحث الثانية وهي بشأن اسم سيزوستريس الذي حذا حضرة عطيه بك حذو جمهور العلماء في أطلاقه على رعمسيس الثاني فاعترض صاحب العبارة الواردة بالغازيت بقوله ان ما يسميه اليونانيون بسيزوستريس انما هو أوزرتسين من العائلة الثانية عشرة

ولما كان حضرة عطيه بك موقنا انه على جلية مما ذكره لم ير أفضل من الاستعانة برأي العالم الاثري الكبير المسيو ماسبرو ودونك نص ما كتبه هذا العالم اليه موضحاً به أسباب الالتباس في هذا الصدد مع ايراد نتائج ابحاثه فيه وهو :

الاقصر في ٢٨ يناير سنة ١٩١٠

سيدي العزيز

المسألة متشبعة الأطراف واستيعابها يستلزم شرحاً مطولا ودونكم بيانها بالاجمال فيما يجيء :—

سمع هيرودوتس وهو في منف رواية نصف تاريخيه روتها تراجمة تلك

البلدة مفادها ان احد الفراعنة المدعو سيزوستريس (والذي ورد بعدئذ في أقوال المؤرخ ديودوردي سيسيل باسم سيزوريس) بعد أن ذهب لافتتاح العالم كاد يقضي عليه عند دخوله مصر بخيانة من اخيه الذي كان قد عهد اليه حكومة مصر في غيبته . فهذه الرواية التي رويت بنوع شائق اعجب بها اليونانيون وعدوا سيزوستريس بطل الرواية أحسن انموذج لكل فرعون وان ذكره ينسي كل فاتح أو شارع من الفراعنة ثم طار صيته وامتد الى القرن الثاني قبل المسيح وفي ذلك الحين كتب مانيثون تاريخه للبطالسة عن سبنتوس من مصر فصدق الخبر واخذ يبحث على من يشاكل هذا البطل بين الملوك الذين حفظت له اسماؤهم الاهلية وقد لاح له ان اسم سيزوستريس يجانس اسم ملوك كثيرين من العائلة الثالثة عشرة وهو سانوسريت سينوسيري الذي يقرب في صورته اليونانيـة من سيزوستريس فانقاد مستسايا لهـذه الجانسة البسيطة الى وضع سيزوستريس الذي ذكره هيرودوتس بماله من الفتوحات في العائلة الثانية عشرة

ولما أخذ المتأخرون في وضع ترتيب جديد لأخبار مملـكة مصر القديمة أبهم عليهم الأمر ولم يعرفوا من هو سيزوستريس ولـكن لما قارن شامبوليون رواية هيرودوتس بفقرة عزى فيها تاسيت المؤرخ الى رعمسيس (وهو ثاني ذلك الاسم بالتأكيد) ذات الفتوحات التي نسبها المؤرخ اليوناني الى سيزوستريس وحينئذ ظهر له أن سيزوستريس هذا هو ذات رعمسيس الثاني

وفي سنة ١٨٤٧ مال المسيو روجيه في بادئ الامر الى تصديق رواية ..نيتون ولـكن عاد فبرهن في سنة ١٥٨٤ في مقالة عنوانها سيزوستريس الحقيقي أن رعمسيس الثاني كان قد كناه معاصروه بكنية سوسو وسويسري

وسيسوري وهي على اختلاف اشكالها تطابق اسم سيزوستريس الذي ذكره هيرودوتس واسم سيزوريس الذي ذكره ديودور فقبل رأيه كل الناس تقريباً لغاية سنة ١٩٠٠ (قد لا يكون التاريخ مضبوطاً لاني اعتمدت فيه على ذكرتي لعدم وجود مؤلفات هنا أرجع اليها). حينئذٍ عاد أحد زملائنا بالمانيا لمسيو زيته الى رأي مانيثون وحاول ان يثبت في بحث مهم أن سيزوستريس ليس الا سانوسريت أو سانوسيري الثالث من العائلة الثانية عشرة وقد ناقشته انا في رأيه بمقالة طويلة في المجلة المعروفة بجريدة العلماء التي ظهرت على ما أذكر في سنة ١٩٠١ ثم اجملت مناقشتي في النتيجة الآتية

(١) أن سيزوستريس الذي ذكره هيرودوتس هو ذات سيزوستريس سسوسري ابن رعمسيس الثاني

(٢) ان مانيثون قبل رواية هيرودوتس دون أن يلتفت لى شكلها القصصي ولجهله بكنية رعمسيس الثاني التي كناه بها معاصروه عتبر سيزوستريس انه أحد المدعوين سانوسريت وهو الثاني أو الثالث الملقب بهذا الاسم.

(٣) أن قيمة هذا الاعتبار تساوي في سوق التاريخ الحقيقي قيمة بعض الاراء التي نخوض فيها كل يوم معتمدين على أدلة غير وافية ولكنها لاتعلو على الادلة التي أتى بها روجيه واذا كان زملاؤنا في برلين ينزلون هذه الآراء منزلة اليقين فهي لم تقبل كذلك عند غيرهم ويحتمل أن يقوم يوماً ما أحد الناقدين ويفحص هذه الآراء فيصرفهم عن اعتقادهم هذا كما انصرفوا عن غيره من قبل.

أما بحث المسيو زيته ومقالاتي التي ادرجت في جريدة العلماء بهذا الصدد فتجدونها في المكتبة الخديوية.

وأخيراً تقبلوا فائق احترامي. الامضا — ج — ماسبرو

الفنون القبطية [1]

وعلاقتها بالفنون القديمة

حضرة الرئيس وحضرات السيدات والسادة :

قد خترت الفن القبطي موضوعاً للرسالة التي أتشرف بعرضها على حضراتكم وذلك ليس فقط لان هذا الفن من المواضيع التي يؤثر البحث فيها لما تقتضيه وجهته الفنية من اتصال البلاد الاخرى القديمة بمصر بل لانه أيضاً بحث عظيم السعة والطلاوة وكبير الأهمية من حيث هو في ذاته .

أن الذين رتبوا مواد المؤتمر قد أدرجوا الفن القبطي ضمن الآثار البيزانتية ولكن ترون حضراتكم فيما يجيء أن الفن القبطي لا يلتئم إلا بأصله ومصدره الذي هو الفن المصري القديم وأن نسبة الفن القبطي للآثار البيزانتية ليست إلا زمنية عرضية .

لو تتبعنا سير الفن في كل أدواره التي اجتازها وطبقاته التي حل بها في خلال القرون والاجيال رأيناه قد انتقل من (طيبه) وهي صعيد مصر الى بلاد اليونان ومنها الى روما ثم اتجه الى القسطنطينية ومن ثم عاد فألقى عصاه في وادي النيل . وهو مقره ومنبته . وفي أثناء هذا التجوال أقتبس الفن اليوناني من المصري . والروماني أخذ من اليوناني . أما الفن المسيحي فقد يظهر أنه تحتم عليه أن يستعير قواعده وطرائقه من الفن البيزانتي ولكنه لم يلبث كذلك

---

(١) تعريب المحاضرة التي ألقاها بمؤتمر الآثار الدولي بالجلسة المنعقدة في يوم ١٢ أبريل سنة ١٩٠٩ . بفندق سافواي برئاسة المسيو لامبروس أوسبنسكي مدير متحف الآثار الروسية بالقسطنطينية.

ونشرت بجريدة الوطن بالعدد ٤٤٩٩ بتاريخ ١٩ نوفمبر سنة ١٩٠٩ .

برهة من الزمان حتى أتيح له التخلص من ربقة ذلك الفن نخلع عنه القواعد اليونانية وظهر في مظهره الخاص به بحيث عنا له الفن العربي الذي هو فرع منه. وفي عهد مصر القديمة كان الفن وهو متجلى النشاط العقلي منكيفاً بتأثير الاحوال الجوية والدينية . فكان الساكن في وادي النيل يرى في شروق الشمس وغروبها رمزاً ومثالاً للحياة بأكملها . ولم يكن الموت في اعتباره سوى انتقال من مسكن الى آخر. وكان الدين عنده الغاية القصوى والقبر مستقره الابدي. ولما كان الفن مرتبطاً بالدين كل الارتباط جعل كل فرد يجتهد ويحتال لان يحرز لنفسه في الحياة الاخرى الشكل الذي كان له في الحياة الدنيا. ولذا كان يتنافس أهل الفن في ايجاد المشابهة التامة فيما يصنعونه مراعين الدقة فيه من كل الوجوه وكانت أفكار اليونانيين الدينية تخالف تلك التي للمصريين. فاليونانيون لم يعتبروا الآلهة قوات سامية تفوق الطبيعة بل كانت الآلهة في اعتقادهم كائنات شبيهة ببني آدم . وهذا ما أدى بهم الى تغيير الفنون تغييراً محسوساً فبنوا طريقهم وأشكالهم الفنية على مايشاهد في الطبيعة نفسها .

قد مد الاسكندر الاعظم أطناب التمدن اليوناني حتى بلغ به صحراء أفريقيا ودخل الرومان بلاد اليونان وأوغلوا فيها فكان من السهل أن تؤثر فيهم مخالطة أهلها وأن يجروا مجراهم في أساليبهم اليونانية . ثم تضعضعت الوثنية في مصر عقب الفتح الروماني لتخلي مكاناً لهيئة حديثة أخذت تنمو وتتزايد عظمة وكانت تختلف في رغائبها وأفكارها . فاتجهت الفنون في مصر الى النمط الروائي وأشكال الأقاصيص ومال أهل الفن الى المعاني الروحية الرمزية ليعبروا بها عن تصوراتهم وما جال في خواطرهم من دقائق الافكار. فاتجهت النفس البشرية الى أمر واحد وانحصر فكرها فيه وهو اتحادها

بحالتها. ثم فشا حينئذ ميل الى رفض الوثنية اليونانية وأصبحت الديانة المسيحية تحبب للناس عبادة الاله الواحد وتقبح لهم عبادة الأوثان وتقضي على عبدتها بسوء المصير . فكان لا بد من فن جديد ليمثل الدين الجديد ويدل عليه فماهو يا ترى ذلك الفن. أهو البيزنتي. أم القبطي. هذا سؤال يجاب عليه فيما يجيء.

أن ماري مرقس الانجيلي الذي كان مسقط رأسه الخمس مدن الغربية جاء للاسكندرية في منتصف القرن الاول وأذاع بها بشرى الانجيل ولكن مما يجب الاعتراف به أن أكثر بلاد الصعيد لبثت متمسكة بعبادتها القديمة الى عهد الملك دقلديانوس. ولا مشاحة في أن المبادئ الادبية المسيحية والغيرة الروحية التي استفزت قلوب الملوك والحكماء في القرن الاول كانت قد ضمحلت في ذلك العهد. ولكن الكهنة والطبقة المتعلمة من الاهالي كانو يؤمنون بالله واحد ذي ثلاثة أقانيم وهو مصدر كل خير وصلاح وإن بقية الآلهة ليست الا صورة تمثله ومظهراً له مشهوداً يتجلى فيه. ثم أتى السفاح الشهير الذي بالغ في نكاية الاقباط واضطهادهم وترك عهده في تاريخهم أثراً سيئاً لا يمحى فهرع التابعون لذلك الدين الجديد أفواجاً يتسابقون لنيل الشهادة عن رضى وطيب نفس .

وفي ذلك الآن انتشر الزهد والتعبد أي انتشار واكتظت الصحراء بالنساك المتوحدين وكان هؤلاء الزهاد مزودين بفيض من التقوى ومضطرمين بنار الغيرة والرغبة في إعلاء ذلك الايمان الحديث وتوطيد أركانه وكانوا كثيراً ما يحضرون الى الاسكندرية يناضلوا عن البطاركة ويدفعوا عنهم هجمات الخرطقة والملوك البيزنتيين فأصبحوا ولهم اليد الطولى والكلمة الاولى في المجامع الدينية .

وقد اتصف القديسون مقار وباخوم وشنوده وجملة من أشياعهم بالفضيلة والصلاح ورزقوا نصيباً وافراً من المعارف والهبات الفنية. ولم يذكر لهم التاريخ إلا عيباً واحداً وهو قلة كياستهم وظرفهم. وذلك لأنهم لما قصدوا أن يتجردوا من الاميال القلبية اعتقدوا أن الحب من أعمال الشيطان وخالوا جمال المرأة شركا ينصبه ابليس ليتصيد به الناس في حبائله ومن ثم كانت العلوم الادبية تحفل بالجمال النسائي وتتغزل فيه بعكس الفنون فانها قصرت عن تمثيل ذلك الجمال .

وقد تهيأ للاقباط في القرن الخامس قبيل انعقاد المجمع الخلقدوني أن يتخلصوا كل التخلص من ربقة النير البيزانتي لاختيارهم القول بالطبيعة الواحدة في المسيح وانفصالهم بهذا الاعتقاد عن بقية المسيحيين وعليه أصبحت الكنيسة المصرية بحصر المعنى خالصة من كل نزعة يونانية واتخذت الحرية رائدها في إدراك حقائق الدين المسيحي وسارت في ذلك على طريقتها الخصوصية ومنهجها المختار .

وقد استمدت الفنون القبطية من اليونانية أشكالها الاولى التخطيطية المختصة بالديانة المسيحية ولكنها لم تلبث أن نزعت الى مصدرها فاستنبطت رموزاً ليست في الواقع ونفس الامر الا أشكالا فرعونية فالقبطي لم يعد يقدم قرباناً لاوزيريس ولايزيس وهوريس بل للاله الأب والروح القدس وليسوع المسيح. فنتج ان الفن القبطي أيضاً لم يعد قاصراً تحت الوصاية اليونانية بل تم له أن ينبذ تلك الوصاية ويحيا مستقلا منذ انتشار الاعتقاد بالطبيعة الواحدة كما مر.

قد تسنى للقبطي أن يكتسب اختباراً كافياً يؤهله لان يدعي شخصية حقيقية. وقد أثبت ذلك المسيو ا. جاييه بالبرهان القاطع في كتابه الذى

نشره بباريس سنة ١٩٠٢ ففي هذا المؤلف يقف الراغبون في معرفة الفنون القبطية على إيضاحات دقيقة ذات قيمة .

ان كل ما نراه في أيامنا بالاديرة والكنائس المسيحية القديمة يعيد أمامنا مظاهر النشاط القبطي بجميع ما يحويه من مراتب الحس والخيال .

ذكرت فيما تقدم ان الاقباط كانوا يبغضون دين الاولمب أي الهة اليونان وتماثيلهم وهذا ما حمل القبطي على إبادة الأصنام اليونانية وملاشاتها ولا سيما القديس شنوده الذي كان العدو الالد لهذه التماثيل . واعتاد القبطي أن ينفرد مختلياً بنفسه تحت الاقبية بقصد التأملات الروحية كي يتمكن بذلك من توثيق علائقه السرية وتأييد شركته الروحية مع خالقه. أما نصرة القائلين بالطبيعة الواحدة فلا تزال علائمها ظاهرة في الدير الابيض وكنيسته الشهيرة التي بناها القديس شنوده في بدء القرن الرابع ودير نقاده الذي يرجع تأسيسه الى ذلك الزمن في عهد الملكة هيلانة أم قسطنطين الاكبر. ودير المحرق وهو الذي ذهب البطريرك ثاوفيلس الى أن العائلة المقدسة آوت اليه. وغير ذلك من الآثار الكثيرة الشاهدة بنصرة تلك العقيدة وفوزها المبين. وقد تأسست في الوجه القبلي مدرسة قبطية محضة واجتهد النساك أن يبثوا حماستهم الدينية تحت ظل الأديرة وحمايتها ففي وادي النطرون الذي هو خلوة القديس مقار ومهد آخر المسيحية القبطية قد أظهر المهندس القبطي ما يستدل منه على التقدم والرقي في صناعة البناء. ودير السريان الذي انشئ منذ بداءة القرن السابع وكنيسة دير البرموس هما نموذج البناء القبطي بعد خلوصه من الصبغة البيزنطية واستقلاله عنها تمام الاستقلال. وقد ظهر في مصر العتيقة طرز جديد من البناء يمتاز بصناعة النجارة الخشبية وكنيسة المعلقة هي التي حافظت

أكثر من سواها على شكلها البنائي رغماً عما فعلته بها أيدي العابثين من التغييرات المتوالية مدة عشرين سنة. وقد عدت فزرت هذه الكنيسة من عهد قريب لامتع النظر بما فيها من انواع الصناعة البديعة فمنبرها موضوع من الرخام الأبيض القائم في وسط فنائها. والصناعة الخشبية المطعمة بالعاج الأبيض. جميعها انموذج صحيح للفن القبطي ومن آيات الصناعة القبطية في القرن الحادي عشر .

وقد اشتهرت كنيسة ابي سرجه بالمغاره التي آوت اليها العائلة المقدسه أثناء هروبها من مصر واشتهرت ايضاً بما حوته من الصناعة الخشبية الملبسة بالعاج وبنحوت اخرى بديعة والصناعة الموجودة بكنيسة القديسة برباره بدع من غيرها. ولكن مما يوجب الاسف أن قد علاها طبقة من الدهان شوهت أكثرها. ومن آثار الصناعة الجديرة بالاعجاب في دير مارى جرجس موجودة به على ما يقال بقايا هذا القديس الباب الكبير الفخم ذي المصراعين. وتمتاز كنيسة أبي سيفين (وهو الذي قتل يوليان المرتد) بتجردها من الاعمدة. وهذه الكنيسة التي تجددت من عهد قريب يوجد بها منحوتات بديعه ولا سيما النقوش والصور المعروضة على جدرانها فانها تشف عن دقة عجيبة ومنبرها أصغر حجماً من منبر كنيسة المعلقة ولكنه يمتاز عنه بما جنح به من بلاط الفسيفساء. وجميع الاعمال الفنية التي تشاهد في هذه الكنائس عاينها أن تحدث شعوراً دينياً وتبعث على التأملات الروحية وترفع النفس نحو خالقها وحسب الزائر أن يحضر الخدمة في كنيسة المعلقة في يوم عيد من الاعياد فيرى ما تحدثه ذلك الحضور من التأثير فان العاج المنزل في الاحجبة الخشبيه والضوء لدى ينعكس من هذا العاج منبثاً عن الانوار الموقدة خلفه ثم ما يتضوع من ريح

البخور المتصاعد من ارجاء الكنيسه ومايسمع من الترنيم التي يرتلها القسوس والشمامسة تسبيحاً لمخلص فجميع هذه الامور واقترانها ببعض مما يحمل النفس بالطبع على التأملات الروحية التي ترقى بها الى عرش الخالق سبحانه وتعالى

ومن المؤكد أن القبطي قد راعى في بناء هذه الكنائس وفيما تحويه اقسامها من المعدات ذلك النظام الروحي المسلم له بالتقليد أباً عن جد وأن القبطي كان يجد في نفس الرسوم والالوان مايفسر به أسرار عقائده الدينية وظاهر ان كل ما رسمه المصور القبطي على الجدران والقباب وفي فناء الكنيسة كانت الغاية المقصودة بالذات منه هي اعلاء النفس وحصولها على وسائل الطمأنينة والرجاء. فلا مسوغ اذاً لقول بعضهم إن نقش الهياكل هي كتاب الاميين

ولنتأمل الآن في كيف أن الفن القبطي معما أسندناه اليه من الاوصاف قد أعار الفن العربي طرائقه وأشكاله .

عند ما استقرت قدم الاسلام في مصر كان القبطي هو المهندس الذى يرحل اليه في أمر الابنية فكان يعهد اليه بناء الجوامع ويتولى أيضاً أمر نحوتها ونقوشها وغير ذلك من حاجات الزينة ومطالبها ولكي يقوم القبطي بذلك لم يكن ليبتدع طرزاً من الفن حديثاً بل كان يختار بالطبع لهذه الجوامع أشكال البناء وطريقة النقش المألوفة عنده والمتداولة في كنائسه وليس أسهل على المتأمل من ادراك المشابهة والمطابقة التي ترى في بعض الجوامع والكنائس القبطية فلا فرق مثلاً بين كنيسة المعلقة وجامع عمرو إلاّ من حيث سعة الافنية وطرز الاقبية أما أجسام الاعمدة وتيجانها فهي متشابهة في الكنيسة والجامع المذكورين

ان الذي توفى بناء جامع عمرو وجامعي طولون والسلطان حسن انما هو

مهندس قبطي ومن تأمل في حلي شرفات بعض الكنائس في الوجه القبلي رآها تشبه تماماً نقوش جوامع طولون والسترقية والسلطان حسن والجامع الازهر وكل الصناعة الخشبية العربية انما هي منقولة عن أشكال مسيحية بل هي صورة ما نراه في أيامنا بكل من كنيستي المعلقة وأبي سيفين. ولم تكن مهارة القبطي في أشغال الزجاج والمعادن والتطريز وما أشبهها بأقل منها في غيرها فلا مشاحة في أن الذي صنع قناديل الجوامع مثلا هو صانع قبطي نعم ان مفاتيح دير القديس شنوده وأوانيه ومباخره الموجودة الآن بالمتحف المصري ليس بها مايرى من الصناعة الحديثة من الاتقان ولكن جميعها فيها مسحة من الجمال والرقة والرشاقة وهي تدل دلالة صريحة على أن الفن القبطي كان في استطاعته أن يبرز ملحاً وبدائع دون أن يرحل الى الاشكال البيزانتية أو يأتم بها في شيء. وقد رأيت من عهد قريب في المتحف القبطي لمنشأ حديثاً بكنيسة المعلقة صنية من الزجاج وصورة تمثل صعود العذراء وثوباً كنائسياً جميعها من بدائع الصناعة.

واضح أن البيزانتيين انما أحدثوا في مصر تأثيراً زمنياً زائلا وأنه بمجرد زوال هذا التأثير وتحرر الاقباط من رقه تهيأت لهم سبل الرقي وقطعوا منها مراحل شاسعة ووضعوا لأنفسهم فناً خاصاً بهم أخذت محاسنه بمجامع قلوب الفاتحين الذين غزوهم. ومما لا يحسن إغفاله هنا أن هذا لم يكن نصيب البلاد الأخرى التي اتسع فيها نطاق السيطرة البيزانتية ففي ايطاليا الجنوبية مثلاً قامت نهضة فنية في أخريات المملكة الرومانية تحت التأثير اليوناني وقد جاء في كلام جناب الموسيو (ديهل) الذي حظينا بوجوده بيننا أن لأهالي الوطنيين

الذين سرت اليهم المشارب اليونانية بطريق المخالطة قد أصبحوا على شاكلة اليونانيين في الدين واللغة والفنون. وكان يوجد في ايطاليا الجنوبية كما وجد في صحراء طيبه نساك رزقوا فناً ولكنهم كانوا يمارسون الفن اليوناني ويجرون على طريقة اليونان وتقاليدهم وقد دخل العرب أيضاً في صقليه في الجيل التاسع ولكن دام التأثير اليوناني سائداً فيها الى ما بعد فتح الامراء النورمانديين في الجيل الحادي عشر.

فالفرق الظاهر بين مصر وغيرها من البلدان في هذا الصدد هو فيما أرى راجع الى حرص القبطي على تقاليده وشدة محافظته على ما لديه واختصاصه بما يألفه ولا سيما الى العوائد الوراثية التي اعتادها من القدم وحضراتكم تعلمون ان ديناً واحداً دام سائداً في مصر سيادة مطلقة مدة خمسين قرناً ولما ظهرت الديانة المسيحية كان لابد لهذه العادات القديمة العهد والطويلة الامد أن تترك أثراً في نفوس الذراري القبطية. واذ تقرر أن القبطي كان حريصاً على تقاليده فلم يسعه بالطبع إلا نبذ كل تأثير بيزانتي. وعليه فمظاهر الفن القبطي ماهي إلا دلائل قاطعة على الوراثة والعلائق القومية التي يرثها الخلف عن السلف. ومن النتائج اللازمة طبعاً لانتشار عقيدة الطبيعة الواحدة في مصر أن يعود الفن القبطي الى فطرته فيسترجع طريقته القديمة ويحيي أشكاله الروحية.

أما البحث في هل بدوم القبطي معرضاً عن كل إصلاح غير محتفل بأشعة الشمس الجديدة كما فعل « ممنون » مصر القديمة فهذا موضوع آخر أرجئ البحث فيه الفرصة أخرى والسلام.

الآثار القبطية (١)

ومتحفها

اعتاد المتكلم في حفلاتنا المصرية أن يوجه مقاله بحكم الضرورة للسادة الحاضرين من أفراد الجنس النشيط أما أنا فأفتخر بأن أكون اليوم أول من يخالف هذه العادة اذا خاطبتكم قائلاً : « أيها السيدات والآنسات والسادة الكرام »

أخاطبكم على هذه الصورة المحبوبة وقلبي مفعم بالسرور لأني أرى لاول مرة في صدر هذا المكان عدداً ليس بقليل من السيدات المصريات قد حضرن للاشتراك علانية مع الرجال في عمل من أنفع الاعمال وإنه لأحسن فأل يبشرنا بنجاح مشروعاتنا ومقاصدنا ونأمل ان تكون هذه مقدمة حفلات تنعش فيها السيدة المصرية روح الاجتماع عندنا وتزيد حفلاتنا بهاء وبهجة بحضرتها وتأثيرها .

وسواء وجهت كلامي للرجال فقط أو للسيدات والرجال معاً فأرى من أول الواجبات عليّ أن أشكركم بلسان التوفيق شكراً جزيلاً على تشريفكم هذه الحفلة وتعضيد المشروع الذي اجتمعنا لاجله .

أما موضوع هذا الاجتماع فكما رأيتم في ورقة الدعوة سماع محاضرة عن الفنون القبطية والمتحف الذي أسس لحفظ آثارها . والمقصود بالفنون القبطية ما أبرزته يد الصانع المصري فى حقبة معلومة من التاريخ تبتدئ بظهور الديانة المسيحية في هذه البلاد .

---

(١) محاضرة ألقيت بجمعية التوفيق بتاريخ ٢٦ يناير سنة ١٩١٠ .

يدعي بعضهم أن الفنون القبطية لا وجود لها وأن ما يسمونه آثار الفنون القبطية نوع من بقايا الفنون « البيزانتية » اليونانية التي كانت سائدة في مصر في إبان ظهور الديانة المسيحية ولكن الحقيقة التي اهتدى اليها الباحثون انه توجد في الواقع ونفس الأمر فنون قبطية مستقلة قائمة بذاتها لا علاقة لها ثابتة بغير الفنون المصرية القديمة .

كانت الفنون المصرية القديمة مرتبطة كما تعلمون كل الارتباط بالاعتقادات الدينية فكان المصريون يرون في شروق الشمس وغروبها رمزاً للحياة ولم يكن الموت في اعتقادهم إلا انتقالاً من مسكن لآخر لذلك كان يتنافس الصانع في اتقان صنعه وايجاد المشابهة التامة في تماثيله ومال أهل الفن الى المعاني الروحية والرمزية فلما ظهرت الديانة المسيحية في مصر كان أهالي البلاد خصوصاً المتعلمون منهم على استعداد لتلقي مبادئها .

صحيح أن الفنون القبطية استمدت في مبدأ الأمر أشكالها من اليونانية ولكن هذه النسبة لم تكن إلا زمنية عرضية ولم تلبث تلك الاشكال ان تغيرت بطبيعة الحال لان أفكار اليونانيين الدينية كانت تختلف عن أفكار المصريين من هذا القبيل فاليونانيون كانوا يعتقدون ان الآلهة كائنات شبيهة بني آدم . ولذلك كانوا يبنون قواعدهم وطرقهم الفنية على ما يشاهدونه في الطبيعة ذاتها .

أما المصريون فكانوا يعتبرون الآلهة قوات سامية تفوق الطبيعة فلما ظهرت الديانة المسيحية اضطر المصريون في الحقبة الاولى ان يأخذوا عن اليونان بعض الاصول والاشكال الفنية البيزانتية. ولكنهم لم يلبثوا كذلك إلا ريثما تخلصوا من ربقة النير « البيزانتي » وانفصلوا عن بقية المسيحيين

على أثر مجمع خلقدونيـة في الجيل الخامس فنبذوا كل الأشكال اليونانيـة وأصبحوا مستقلين في اعتقاداتهـم وبالتالي في فنونهم التي تعـبر عن تلك الاعتقادات فظهر الفن القبطي في مظهره الخاص به لاعلاقة له بغير الفن المصري القديم وكل مانراه الآن بالاديرة والكنائس القبطية القديمة من الآثار يعيد أمامنا مظاهر النشاط القبطي في جميع أدوار التاريخ .

وهـذه هي الآثار التي اجتمعنا اليوم لسماع محاضرة فيها والاحتفال بالمتحف الذي أسس لحفظها. والاهتمام بتأسيس المتاحف وحفظ الآثار كما لايخفى عنوان الامم الراقية والغرض منه دوام ذكرى الحوادث المهمة ومشاهير الرجال وآيات الصناعة وبالاجمال تمدن الامم في الأزمنة المختلفة فلا عجب اذا رأينا الحكومات المتمدنة تهتم بجمع الآثار وتشييد المباني الفخيمة لحفظها وتكلف العلماء بترتيبها وتنسيقها ولا عجب اذا رأينا من الناس لهفاً وشغفاً بزيارتها والاستفادة بما حوته من آيات التمدن

كانت المتاحف في الازمنة الغابرة عبارة عن أماكن مخصصة لدرس الآداب والعلوم الفنون كما كان متحف الاسكندرية الذي اسسه بطليموس فيلادلف في أواسط الجيل الثالث قبل الميلاد والذي كان يضم في دائرته خلاف المكتبة الشهيرة قاعات للتدريس والمطالعة ومساكن للاساتذة أما الآن فتطلق لفظة متحف على كل مكان خصص لحفظ آثار الامم وملح الفنون والصنائع التي ابرزتها يد الانسان في الازمنة المختلفة

كان الملوك والامراء وأصحاب الثروة في الزمن السابق يجمعون هـذه النفائس في قصورهم ويحرصون عليها كمتاع خاص لايتمتع بمشاهدته غير الاهل والاصدقاء أما الآن وقد اهتمت الحكومات المتمدنة بجمع هذه الآثار والملح

في أماكن عمومية فقد عمت فائدتها الخاص والعام ومن المشاهد انه كلما تقدمت البلاد في الحضارة كلما تنوعت متاحفها وكثر عددها ولا أبالغ اذا قلت إنه قلما تخلو عاصمة أو مدينة أو ضيعة في أوروبا وأميريكا من المتاحف وربما كانت المانيا أكثر البلاد اهتماماً بالمتاحف وحفظ الآثار .

زرت باريس منذ سنتين للمرة السادسة وكنت أقضي بها في كل مرة معظم أيام اجازتي ولكني لم اتمكن في كل هذه الاوقات من زيارة أكثر من ثلاثة أو أربعة متاحف وكان ذلك على عجل وبطريقة سطحية وليس هذا بغريب اذا عرفنا بأن « متحف اللوفر » وحده يلزم لزيارة كل جناح منه ومعرفة ما به أيام لا بل شهور على ان هنالك متاحف أخرى لا تقل عنه في الأهمية من نوعها مثل متحف « لكسمبرج » و « كاليني » و « جيميه » و «التروكاديرو» ومتحف التاريخ والآثار الملية والفنون الجميلة من تصوير ونقش وحفر ورسم النقود والاقمشة المطرزة وأواني الخزف وآلات العزف والفلك والمعادن والمدافع ومعدات الحرب في البر والبحر والمكاتب وغير ذلك شيء كثير لا يقع تحت حصر وهكذا الحال في لندن وروما وبرلين وفينا وغيرها من العواصم والمدن. وكانت مصر وهي أوفر البلاد آثاراً خالية من المتاحف لى عهد المغفور له سعيد باشا الخديوي الأسبق وهو الذي كلف (ماريت) بجمع الآثار المصرية القديمة وتأسيس متحف بولاق كما تعلمون. كذلك اهتم أولياء الامور بحفظ الآثار العربية وتأسيس متحف مخصوص لها وحذا حذوهم الاسكندريون فشيدوا متحفاً لحفظ آثار تلك المدينة العظيمة. أما الفنون الجميلة فبقيت مهملة الى أن أتاح الله لها دولة الأمير الخطير يوسف كمال فأنشأ مدرسة الفنون الجميلة وأسس ناديها المعروف وهذه المدرسة كما

قال عنها المسيو (شيلو) في جريدة الفيغارو حديثاً قد ختمت سنتها الاولى بعرض تدل فوائده على حسن إدارة اساتذتها . أما نادي الفنون الجميلة وهو الجزء المتمم لها فهو أحسن وسيلة لتقوية الميل للشيء الجميل وتربية الذوق السليم

تم كل ذلك في هذا البلد العزيز بهمة رجال الحكومة وغيرة السراة والافراد ولكن بقي هناك فراغ طال عهد السكوت عليه هو خلو البلاد من متحف للفنون القبطية على اننا لو راجعنا التاريخ لرأينا أن الغرض الأصلي من مجيء «ماريت» لهذه البلاد في سنة ١٨٥٠ كان بتكليف من الحكومة الفرنساوية لدرس الآثار والاوراق القبطية المحفوظة بالاديرة ولكنه لما وجد أنه ليس من السهل فحص آثار وكتب الأديرة حوّل نظره لفحص الآثار المصرية القديمة القريبة من القاهرة . وكان ما كان من أمره . جاء بعده بمدة « أميلينو » ومكث بين ظهرانينا سبع سنوات زار في خلالها الأديرة القبطية وعاشر ساكنيها وفحص ما عثر عليه بها من الآثار والاوراق ونشر عنها ما هو معروف ومشهور ومما أذكره أن «أميلينو» هذا كتب لي في شهر سبتمبر سنة ١٩٠٢ يقول ضمناً «ومع ذلك فلست أدري لماذا يبقى أبناء أمتك بمعزل عن النهضة القائمة بصدد هذه الآثار القديمة التي تنبئ بأجلى بيان عن حياة أمة بأسرها في العصور الغابرة وكان الاولى بكم أنتم أيها الاقباط أن تكونوا زعماء هذه النهضة ولا شك فأنتم بما تعرفونه بالاختبار عن عوائد أمتكم أكثر منا نحن الغربيين استعداداً لاستقراء هذه العوائد في القرون الخالية»

وأنا اذا وقفت اليوم بين أيديكم لا أخاطب الاقباط فقط بمثل هذا الكلام بل أوجه الخطاب لكل أديب كريم لان حفظ هذه الآثار القبطية يهم ليس فقط الاقباط والمصريين عموماً بل جميع عشاق التاريخ ومحبي الفنون

الجميلة على السواء . هذه الآثار كما قلت تختص بحقبة معلومة من تاريخ مصر فاذا أهملناها فانما نهمل حلقة من سلسلة نفيسة وكما أنه يوجد بهذه البلاد متحف للآثار المصرية القديمة ومتحف لآثار الاسكندرية ودار للآثار العربية كذلك يلزم إيجاد متحف للاثار القبطية حتى يتم بذلك عدد المتاحف ويكون مطابقاً لجميع ادوار تاريخ هذه البلاد .

هذا هو العمل الذي دعوناكم للاشتراك فيه ولا أخالكم وأنتم نخبة رجال الامة إلا من أنصاره وأي حر كريم لا يتمنى أن يرى تلك الآثار مجموعة في متحف مخصوص ومرتبة فيه حسب ازمنتها بالشرح الكافي والبيان الشافي . إن الاشتراك في هذا العمل لا يكون فقط ببذل المال بل أيضاً بالتنقيب على هذه الآثار وحل رموزها وفك طلاسمها لفائدة الجمهور ويكون أيضاً باهداء هذا المتحف ما عساه أن يكون موجوداً من تلك الآثار بين أيدي الافراد . اذا كان الناس هنا وفي أوروبا يفخرون باهداء الدواب والطيور النادرة لحدائق الحيوانات فلماذا نحن نضن بما يوجد عندنا من تلك الآثار . إن بقاء مثل هذه الذخائر في داخل العائلات بعيدة عن فحص العارفين ونظر المعجبين أصبح لا معنى له . بقيت لي كلمة صغيرة هي أن الاشتراك في هذا العمل لا يقتصر على الرجال بل يمكن للسيدات أن يشتركن فيه بتأثيرهن ونفوذهن وهنّ أولى منا بالاهتمام بآثار الفنون الجميلة كذلك يمكن للآنسات أن يشتغلن بهذه الفنون وخصوصاً فن التصوير كما يحصل في متاحف أوروبا .

لهذا ترون أن باب المساعدة في هذا المشروع واسع فما على الراغبين والراغبات إلا أن يلجوه بسلام آمنين .

القانون الدولي

عند قدماء المصريين

تعريب المحاضرة التي القيت في المجمع العلمي المصري في ٩ يناير سنة ١٩١١

اذا أردنا الكلام عن القانون الدولي عند قدماء المصريين فانما نريد أن نبين النظامات التي كانت متبعة في العلاقات بين مصر القديمة والبلاد الاخرى في ذاك الحين

والموضوع في ذاته قد يوجب الاندهاش اذ أن القانون الدولي حتى في وقتنا هذا لايزال موضع الانكار عند الكثيرين الذين يقولون إن كل حكومة حرة التصرف في جميع شوؤنها والا حدّ لحكومة تخالف القوانين الدولية كما لا توجد سلطة قضائية للحكم على من يخالف هذه القوانين ولا سلطة لتنفيذ ما قد يصدر من الأحكام

والبعض الذي على غير هذا الرأي يقول بحق إنه وإن كان لا حكم للقانون الدولي إلاّ في نظر الرأي العام غير أنه توجد في الواقع قواعد ومعاهدات متبعة بين الحكومات وأنه اذا خالفت حكومة هذه القواعدة فانما تعرض نفسها لهجوم الدول الاقوى منها أو تحالف بعض الحكومات ضدها وبذلك تخرج تلك الدولة عن المنطقة السياسية التي تدخل ضمن حدودها كل الدول المتمدينة

ويشبه عمل الحكومة المخالفة للقانون الدولي عمل طالب الحقوق في جامعة السوربون اذ أجاب استاذ العلوم السياسية عند سؤاله عن تعريف الحكومة قائلاً: « انا الحكومة » فلم يسع الاستاذ إلا أن يطلب من لويس الرابع عشر أن يترك القاعة وبذلك عزله عن بقية الطلبة

ونحن لا نجهل طبعاً أن القانون الدولي ليس على وتيرة واحدة بين جميع الأمم فهو يتغير تبعاً لمدنية ونظامات وأخلاق الامم التي تتعامل معاً فان القواعد المتبعة مثلاً بين الحكومات الأوربية بعضها مع البعض غيرها بين هذه الاخيرة والحكومات الشرقية

لذلك يستحسن قبل البدء في موضوعنا أن نتتبع تطور الفكرة الدولية في أدوارها المختلفة . فلكل أمة كما قال مونتسكيو قانون دولي حتى الهنود وذوي الجلود الحمراء الذين كانوا يأكلون أسراهم إلا أن ذلك القانون لم يكن مبنياً على قواعد موضوعة

وكان للشعوب القديمة عوائد إلا أنها لم تكن لتعترف بحقوق للغير. فان التاريخ لا يكاد يذكر سوى شعور ضئيل نحو الانسانية مع بعض عوائد دينية.

فقد كان مثلاً بين الشعوب اليونانية محالفات دينية وسياسية فكانت ترسل الامم المتحالفة مندوبيها للمناقشة فيما يعود عليها بالصالح العام ولكي تفصل فيما عسى أن يقوم بينها من المنازعات

أما في روما فلم يكن هناك حقوق للاجانب الذين كانت أموالهم مباحة. إلا أن العادة كانت قد جرت بأن تعلن الحرب بينها وبين البلاد الاخرى بعد إنذار. فقد كانت اللوائح الرومانية الدينية تحتم أن تُنذر الدول المعادية وأن تتبع بعض الاجراءات قبل البدء في الحرب

ولم تكن العلاقات الدولية بين الشعوب القديمة الأعرضية. فاليونان والرومان كانوا يعتبرون الاجانب أعداء أو برابرة لا يجوز لهم أن يتعاقدوا معهم بطريقة قانونية ولم يكن للمندوبين السياسيين الذين كانوا يُنتدبون بعض الأحيان حقوق وامتيازات محددة . غير أنهم كانوا موضع الاكرام من مراعاة

راحتهم حتى يصلوا الى الحدود. وكانت ترفض التعاقد مع بعض الدول الصغيرة لاعتبارها غير أهل لذلك

وظهرت في القرون الوسطى روح التضامن الديني .وكانت المسيحية سبباً لايجاد رابطة بين الشعوب الاوربية المتباينة العوائد وذلك تحت اشراف بابا روما الحكم الأعظم في العالم حينذاك. كما أوجدت الحروب الصليبية بعض العوائد المشتركة وعملت على ترقية الصناعة وإضعاف سلطة الأشراف وتنمية روح السلطة المحلية على الروح الدينية التي كانت الى ذلك الحين واسطة العلاقات الدولية

وقام لوثر المصلح الالماني في القرن السادس عشر بتعاليمه التي لاشت فكرة الجامعة الدينية عند هذه الدول. فان الاصلاح أوجد أساس التضامن في المنافع ومبدأ المساواة بين الدول في استقلالها دون النظر الى الاديان

وقد كان البابوات أول من بعث بمندوبين يمثلونهم لدى الدول الاجنبية وحذا الايطاليون حذوهم وكذا حكومة البندقية. وبعثت روما بأعظم رجالها السياسيين وتبعتها جمهورية فلورنسا في ذلك

وسارت الدول الاوربية من ذلك الحين على مثال الحكومات الايطالية في ارسال بعثات الى البلاد الاجنبية. وكانت معاهدة وستفالي المبرمة في سنة ١٦٤٨ الحد الفاصل في القرون الوسطى للعلاقات السياسية بين الامبراطورية والبابوية فقد عم بعدها نظام الوكالات السياسية. وأصبح من حق كل دولة مستقلة تعيين المعتمدين . وكان على الحكومات المكلفة بتنفيذ المعاهدات أن تدرك بسرعة وعناية أفكار الدول الاخرى عنها وأن تضمن حماية تجارتها في الخارج التي أصبحت لها أهمية عظمى

ولنرجع الى الكلام عن العلاقات الدولية بمصر القديمة والقوانين التي

كانت متبعة بشأنها . وقد استقينا المعلومات الخاصة بها من مصادر عدة فمنها الروايات وتواريخ الملوك وجداول الفتوحات وعلى الاخص المعاهدات التي ندرك منها كنه العلاقات السياسية والحربية والتجارية بين مصر واسيا . وكانت التجارة في الماضي كما هي الآن أكبر باعث لربط العلاقات بين مصر والبلاد المجاورة . وتتبع المصريون أثر الفينيقيين في التجارة وأخذوا منها قسطاً وافراً وإن لم يصلوا الى درجتهم فيها . فقد كانت الصادرات تحتوي على بعض المحصولات والاقمشة والنفائس والجواهر والزجاج والفخار . والواردات الخام على انواعه من البلدان الغير متمدينة في اسيا وافريقيا . وكان طريق التجارة الداخلية نهر النيل وكذا الترع . أما التجارة الخارجية فكانت تنقل بمعرفة الفينيقيين أو عن طريق البر . ولهذا كانت تهتم الحكومة باستبدال المحصولات المصرية بمواد نافعة من البلدان الاجنبية وانشئت لذلك اسواق يرسل اليها المرء محصولاته فيستبدلها بمواد أخرى. وكانت فكرة المصلحة العامة الدافع الوحيد للسماح للاجانب بدخول هذه الاسواق رغماً عن تحظيرهم من الاقتراب من النيل في أي حال . وكان محظوراً على الزنوج ارتياد الحدود كما يفهم من النقش الآتي أيام حكم أسرتسن الثالث :

« لا يجوز لأي زنجي نازلاً الى النهر أن يتخطى حدود الجنوب التي عملت في السنة الثامنة من حكم جلالة الملك أسرتسن الثالث آدام الله حياته. ويستثنى من هذا المنع كل مركب مشحونة بهائم من أي نوع يملكها الزنوج ومرسلة مع أحدهم لتباع في سوق «أكن» أو أي مركب مشحونة مواد مصنوعة غير أنه لا يجوز لأي مركب مهما كانت شحنتها ان تتعدى « هيبه » حال نزولها النهر »

وكان لا يسمح المصريين بالذهاب الى الخارج وتوجد ورقة من البردي ببراين قيل فيها أن « سانحة » أحد ندماء امينمحعت أراد الهروب من مصر فلم يتيسر له تخطي الحدود إلا بشق النفس

أما فيما يختص بالاسواق التي كانت مفتوحة للاجانب فيمكننا أن نستنتج ذلك من تاريخ يوسف واخوته وأبيه أيام الهكسوس. فأن تجاراً أجانب باعوا يوسف في مصر ثم بعد أن تعين هذا الأخير وزيراً لفرعون استقبل اخوته الذين أتوا أيام القحط لشراء الغلال كما تعلمون

وكان المديرون في تلك الأيام مكلفين باستحضار ما يلزم للاهالي من الغذاء وقد اطلقت يدهم في الانتفاع بتجارة المصنوعات حتى انهم كانوا يستخدمون بهذه التجارة الدولية مراكب عديدة للاجانب غالباً. وكان في أيام رمسيس الثاني تجار عديدون كونوا شركات كبيرة. لذلك تكونت بالتدريج بجانب طبقة الاشراف طبقة اخرى مالية كان أغلب أعضائها من الاجانب.

وكان المصريون يحرّمون الربا طبقاً لمبادئهم الدينية وقد بقيت هـذه الاعتقادات أيام مصر المسيحية من وقت القديس أثناسيوس ثم الى يومنا هذا في الحكم الاسلامي. وقد استفاد الاجانب من هذا الاعتقاد فاستقلوا باشغال المصارف كما هو حاصل الآن

وكانت الحكومة محتاجة الى الأموال لتقوم بالمشروعات النافعة فتقترضها من أولئك المرابين فاصبحوا في حالة ممتازة وكانت الحكومة تسعى لارضائهم . وقد كتب صديقي المسيو ريفيوعن الجرائم الخاصة بالسرقة عند قدماء المصريين (وهو مشهور بتآليفه العديدة عن القوانين عن قدماء المصريين) يقول بأن سارقي القبور أيام رمسيدس من العائلة العشرين كانوا يخرجون

من المحاكم أبرياء من كل تهمة مهما كانت جرائمهم شنيعة. فازداد عددهم بكثرة في وقت من الاوقات وأصبحت منازلهم مأوى لاخفاء المسروقات وكان عمالهم يرافقون اللصوص في سرقاتهم. وعند القاء القبض على أولئك العمال كانوا يظهرون بمظهر عدم الاكتراث أمام القضاء معتمدين في كل تصرفاتهم على أسيادهم المرابين الذين كان لهم بسبب أموالهم نفوذ عظيم وأصبحوا فوق القانون المحلي كما هو الحال مع الاجانب بالنسبة للامتيازات الاجنبية في وقتنا هذا. وما كان وقوف التجار الأجانب أو عبيدهم أمام القضاء إلا من قبيل اتباع الاجراءات القانونية فقط إذ حالتهم التجارية أو بالاحرى الدولية كانت تجعلهم في حصن حصين رغم ما يقترفونه من الجرائم. فمنذ أيام رمسيدس كان القانون التجاري اجنبياً عمل بمعرفة الأجانب مخالفاً في ذلك لروح القوانين الأهلية وعلى عكس القاعدة القائلة «يخضع الانسان لاحكام قانون البلاد التي يقطنها». ولم يذكر أن أولئك التجار الاجانب قطنوا بطيبه بل كان البعض يسكن بالفيله والبعض الآخر وهو الأكثر عدداً بالفيوم. على أنه كان لهم عملاء في كل جهة للقيام بالاعمال. وتبين انا المحررات التي اكتشفت في تل العمارنه سنة ١٨٨٧ العلاقات التي كانت موجودة بين ملوك مصر وملوك آسيا الصغرى في القرن الخامس عشر قبل الميلاد. وقد نرى فيها حوادث ذات شأن عظيم. إذ ملوك آسيا يذكرون لملوك مصر ما كان من العلاقات الحبية بين الآباء والأجداد ويعرضون عليهم أن تكون بين بعضهم البعض صلة نسب ومعاهدات تجارية.

ومن جهة أخرى نرى حكام الولايات التي فتحت يؤدون يمين الاخلاص والطاعة طالبين من ملوك مصر المعونة والاجابة ونرى أيضاً ان خطابات تل

العمارنة المذكورة تحدد وظيفة المندوبين المكافين بربط العلاقات الودية فان هؤلاء المندوبين كانوا ينتقلون من بلدة الى أخرى كوسطاء أو كحماة وأحياناً كقضاة يسعون لجعل سلطة فرعون موضعاً للاحترام حتى في البلاد النائية

ومن بين المعاهدات المحفوظة معاهدة رمسيس الثاني مع ملك الخطاس. عملت هذه المعاهدة الشهيرة بعد الحروب العديدة التي أنشدها بنتاور في قصيدته والتي أكبرت قدر سيزوستريس العظيم وقد كتبت في بلدة خطاس بعد المخابرات السياسية والدينية وأحضرها لمصر مندوبو المملكتين الذين وضعوها لعرضها على سيزوستريس وطلب مصادقته عليها. وقد كان سيزوستريس في ذلك الحين موجوداً في باراس البلدة التي عزم على تشييدها بالقرب من الحدود المصرية من جهة شبه جزيرة سينا . وهناك استقبل مندوبي ملك الخطاس وهما ترتاسيبو وراميس اللذين حضرا مع مندوبه الخاص الدون (القائد) واتبا. والاميرة اوزيب ابنة ملك الخطاس وقد تبادل الفريقان صورة هذه المحالفة موقعاً عليها من الطرفين وذهب بعدها رمسيس الثاني الى طيبه ليقدم للآلهة امون واجبات الشكر وصحب معه المعتمد الاول لملك الخطاس ومعه حاشية الملكة الجديدة واستأذن هذا المعتمد من رمسيس الثاني أن يأذن له بالعودة الى بلاده . إذ قد أتم مأموريته . ومن حسن الحظ حفظت صورة من هذه المحالفة اذ وجدت كالمعتاد منقوشة على آثارات طيبة وأبي سمبل وهي تحتوى على :

أولاً فصل شامل لموضوع هذه المحالفة واسماء المتعاقدين و بأبهم

ثانياً بيان للاسباب التي جرت الحروب العديدة بين الملوك السابقين .

ثالثاً معاهدة سلمية تؤيد المعاهدات السابقة التي لم تكن لترمي إلا المسلم

رابعاً جملة مواد تشمل الاربع حالات الآتية :

(الف) حالة حصول حرب بين احدى الدول المتعاقدة ودولة أخرى

(ب) حالة حصول سرقة بمعرفة أحد خدام أو اتباع المتعاقدين أو أي جريمة أخرى — وهنا كان النفي واجباً قانوناً

(ج) حالة ذهاب شخص أو اثنين أو ثلاثة ألى أحد البلدين المتحالفين بدون تصريح أو بدون علم ملكه. وفي هذه الحالة يتعهد كل من المتعاقدين باعادتهم الى أوطانهم وتسليمهم الى السلطة المحلية لاجراء شؤونها معهم

خامساً طلبة للآلهة الشهود على هذه المحالفة

سادساً قسم ديني بتقديم ذبيحة للآلهة لتساعد على اتباع ما جاء بهذه المحالفة

وهذه المحالفة من الاهمية بمكان عظيم إذ أنها تبين لنا كل قواعد القانون الدولي العام والخاص في ذلك الحين

فالقانون الدولي العام لم يكن شاملاً فقط لتداخل الدولتين المتحالفتين حربياً لصد غارات الدول الأخرى التي تهاجم احداها بل كان يشمل أيضاً الاتفاق على معاقبة الثائرين من أهالي احدى البلدين المتحالفين الذين يثورون للخضوع للبلدة الأخرى

وقد اشتملت هذه المعاهدة أيضاً على مبدأ القانون الدولي الخاص اذ أن النفي كان محتماً على كل خادم أو تابع لأحد الأمراء المتحالفين عندما يترك وطنه بسبب جنائي ويذهب ليحتمي في احدى البلاد المجاورة

فلم تكن هـذه المعاهدة اذاً معاهدة تحالف واخوة فقط لأن ملك الخيتاس قدم لى رمسيس الثاني بنته ليتزوج بها في الوقت الذي عمل فيه

الصلح بل كان الغرض الاساسي اعادة العلاقات التجارية والسياسية والاتفاق على الاعمال الحربية أيضاً .

ولما عادت العلاقات التجارية وكثر السفر بين سكان البلدين المتحالفين ازداد عدد الاجانب فيها فأصبح للتاجر والصانع الاجنبي صفة ممتازة خاصه به بالنسبة لوطنه الجديد فكان له ما لمعتمدي الدول في الوقت الحاضر أي انه كان ينقل معه جزأً من وطنه بعوائده وقانونه. وكانت حالته القضائية تشبه نوعاً حالة الاوربي بمصر تحت حكم الامتيازات الاجنبية

والمبدأ الاساسي الذي بنيت عليه هذه المعاهدة هو اعتبار ملوك مصر أن لهم حق الملكية المطلقة على رعاياهم واتباعهم. هذا الحق الذي ورثه فرعون وملك الخطاس. وقد أخذ منفتاح أبن رمسيس الثاني بنصوص هذه المعاهدة في معاملة الاسرائيليين القاطنين بمصر فأن موسى النبي بيّن لنا المعاملة القاسية التي عومل بها الاسرائيلون. وكيف ان منفتاح أراد أن يلحق بهم عند مغادرتهم الديار المصرية . وبالطبع لا نجهل أن منفتاح غرق بين لجج البحر الأحمر إلا أن عمله هذا كان تنفيذاً لنصوص تلك المعاهدة التي وقع عليها أبوه .

كنت انتهيت من شرح هذه المعاهدة لولا اني أردت أن أقول كلمة عن نقطة تهم السيدات بنوع خاص فقد كان للمرأة مقام عظيم بجانب زوجها في مصر القديمة سواء في المسائل العامة أو الخاصه كما بينت ذلك في المحاضرة التى القيتها على حضراتكم في سنة ١٩٠٤ عن «المرأة الفرعونية» فلا أعود الى هذا الموضوع الآن بل أريد أن أذكر لحضراتكم أن الملكه المصريه القديمة عند ما كانت تتزوج ما كانت لتشترك بصفتها ملكة مع زوجها في

أي معاهدة عمومية إلاّ أن الأمر لم يكن كذلك عند الخطاس ولو أنهم كانوا أقل مدنية فالمعاهدة المشار اليها لم تصبح قابلة للتنفيذ الا بعد أن وافقت عليها الملكة التي كانت تشترك مع زوجها في ادارة شؤون المملكة ولها من الحقوق ماله أن لم يكن اكثر وهذه هي الحالة التي استعملت فيها الملكة حقها باجلى وضوح

وقد قلنا أن المعاهدة كانت تحتوي على مادة ترغم المتعاقدين على ارجاع من يتركون أوطانهم بلا إذن لتسليمهم الى ملكهم فالفتت هذه المادة بنوع خاص نظر ملكة الخطاس ولم يوافق قلبها الرقيق على توقيع المعاهدة بهذه الصورة فترتب على ذلك أن اضيفت مادة أخرى تقضي بعدم معاقبة مثل هؤلاء بعد ارجاعهم الى أوطانهم.ولو أنهم سافروا بدون إذن.وعندها وقعت الملكة . وتلاها الملك وأصبح النص بما فيه المادة المذكورة نهائياً .ومما يثبت ذلك الصورتان اللتان تليان النص الاصلي فان هاتين الصورتين تمثلان الآلهة تقبل الملك والملكة وهما يحملان في ايديهما المعاهدة المذكورة ويظهر جلياً من هذه الحادثة الدور المهم الذي كانت تشغله الملكة في المسائل السياسية وكيف أنها كانت المرجع الاخير في الامور الدولية

ولكن هل بقيت هذه المعاهدة معمولاً بها مدة طويلة ؟ الظاهر أنها لم تدم كثيراً لانه قد قل نفوذ مصر في الخارج من الوقت الذي أصبحت فيه سيطرة الفراعنة على الممالك الاجنبية متنازع فيها — صحيح أنها حافظت على مركزها طويلاً نظراً لاهمية آلهتها وثروتها الا أن البعثات المصرية كادت أن تصبح في خبر كان فتغير سلوك مندوبيها كثيراً.وقد اطلعت أخيراً على مقالة نشرت بالجريدة الاسيوية عن شهري نوفمبر وديسمبر سنة ١٩٠٩ بقلم حضرة الاستاذ مدرات ذكر فيها أن المندوبين المصريين في القرن السادس عشر

قبل المسيح فقدوا كل ما كان لهم من الشأن وأصبح لايخشاهم أحد حتى أنهم كانوا يسجنون في البلدان الأجنبية ويموتون بائسين

وقد حصل الأجانب من هذه الحالة الجديدة على امتيازات عديدة لانه من وقت حروب الامبراطورية الجديدة صارت الأفكار لوضنية أكثر اتجاهاً الى سكان أسيا الأصليين وكان أكبر عمل سياسي أيام حكم السيتيين القضاء على الافكار السائدة ضد الأجانب فلم يقتصر الأمر على التساهل مع اليونانيين فقط بل أصبحت معاملتهم احسن حالاً من معاملة الوطنيين أنفسهم وكانت منزلتهم بمصر أيام السيتيين مماثلة إن لم تكن أحسن لحالة الاجانب في تركيا الآن. فقد منح بسماتيك الثالث لليونانيين بعض الأراضي المجاورة للنهر وعينهم ضمن حرسه الخاص. وأبقى كل من الملك نيكر الثاني وأبريس هذه الامتيازات واقتفى أماسيس كذلك أثر سياسة سلفائه فتزوج بلازنكا اليونانية وجذب كثيرين من مواطنيها لمصر ووهبهم أراضي عديدة شيدت عليها مدينة نوكراتيس اليونانية وكان اليونان أيام حكمه حاصلين على امتيازات تشبه الامتيازات الاجنبية اليوم وانتهى النفوذ اليوناني بانقراض المدنية المصرية حتى لم يعد للمسائل الدولية في مصر أدنى شأن

فالعجم واليونان والرومان والعرب والاتراك كانوا يحكمون مصر حكماً مطلقاً ويعتبرون أنفسهم الاسياد. ولا يدلنا التاريخ الا على مشاجرات ومنافسات شخصية كانت تنتهي بسفك الدماء فانهم لم يكونوا ليجهلوا القانون الدولي فقط بل كانوا يتجاهلون كل حقوق الوطنيين المقدسة فلم يكن هناك غير القوة

صحيح كانت توجد في القرون الوسطى بعض العلاقات السياسية بين ملوك مصر والحكومات الاوربية الا اننا لانعرف ماهيتها بالضبط غير إن

بعض المؤلفين الألمانيين أجلوا لنا بعض غوامضها فهم يقولون بأنه كان لهوهنستوفن ملك الامبراطورية الجرمانية بعض العلاقات السياسية مع سلاطين مصر. وأن فردريك الثاني كان مرتبطاً بالعالم الاسلامي. وذهب ببعض المؤلفين الغلو الى القول بوجود محالفة بين ماجنوس ملك نروج وبين السلطان العظيم بيبرس. على أنه من المحقق أنه كان بين الملوك الفرنسيين ومماليك مصر علاقات تجارية لأن مصر لم تستغن في وقت من الأوقات عن أوربا التي كانت على الدوام المصدر الوحيد الذي تأخذ منه ما يلزمها من الحاجيات. لذلك كان هم ملوك مصر تحسين علاقاتهم مع الفرنسيين كما كانوا تحت حكم العائلة الثانية عشر واجتذابهم اليهم بمنحهم امتيازات عديدة

ونلاحظ من النبذة التي نشرها القلقشندي (صبح العشاء) وهو من رجال معية مماليك القرن الرابع عشر أنه كان بين مماليك مصر وملوك الغرب علاقات سياسية. ومن التحريرات التي تبودلت بينهم يمكننا أن نفهم الروح التي كانت سائدة بينهم فالحكومات المصرية كانت على الدوام تسعى في راحة الغربيين وحسن معاملتهم الا أنه رغماً عن كل هذا كان الاجانب عرضة لسوء معاملة الوطنيين وكما قال الآب لامانس نحن نرى انه كان هناك قانون دولي وقد قامت الاجيال التالية لذلك العهد بتعميمه فسمى امتيازات

فهذه المعاهدات هي التي تضمن للاجانب بغض النظر عن السلطة المحلية ألا يتبعوا إلا قوانين بلادهم التي يمثلها معتمدوهم السياسيون أو القناصل

وكان القديس لويس الذي أفرج عنه في المنصورة أول من عين قناصل للاجانب بالخارج ففي سنة ١٢٥١ تعاقد مع سلطان مصر على تعيين قنصلين أحدهما في طرابلس والآخر في الاسكندرية الا أن فرنسوا الأول كان

أول من حصل على معاهدة امتيازات عامة سنة ١٥٣٥ ولا أرى داعياً لان استرسل في موضوع الامتيازات الاجنبية وعلى من أراد زيادة لايضاح أن يطلع على مؤلف المسيو ده روزاس بهذا الخصوص. على أني أرى من لواجب أن أقول إن الروح السائدة في هـذه الامتيازات هو عدم ثقة لأجانب بقوانين ومحاكم البلاد المسماة غير مسيحية فالامتيازات الممنوحة للاجانب في الشرق ليست مبنية كما كانت في العهد الماضي على أسباب تجارية ومنافع متبادلة .

وتعلمون أن نظام الامتيازات قد تغير نوعاً في مصر منذ سنة ١٨٧٥ بعد انشاء المحاكم المختلطة والحكومة المصرية باتفاقها مع الدول المختصة قد قللت كثيراً من أهمية هذه الامتيازات وما بقي منها للآن ولو أنه قليل الاهمية إلا ان ضرره واجب وسيبقى ولو لزمن قليل

هذا ما رأيت أن أقوله لكم أيها السادة عن القانون الدولي عند قدماء المصريين ولا أدعي اني أحدثت لكم اختراعاً أو اكتشافاً. إلا انى درسته وحضرته كطالب حقوق سابقاً ومحب للمباحث التاريخية وأني أقدمه للمعهد كما حضرته متبعاً في ذلك المثل القديم القائل : لا يمكن لأجمل بنت في العالم أن تعطى أكثر مما لها .

الرهبنة في مصر

أعمال رجالها الأولين [٢]

مضى على الاقباط أكثر من عشرين سنة وهم يفكرون في حالة الاديرة القبطية ويطالبون باصلاحها وتحسين ادارتها وترقية أفرادها وجرت بينهم في السنين الأخيرة حوادث خطيرة وحركات مشهورة بهذا الشأن لو يذكر العارفون. وقد أثنى اللورد كرومر على هذه المساعي في كتابه «مصر الحديثة» فقال: « وقد ظهرت ثمرات الافكار العصرية بين الاقباط فكان من أهم ما توجهت اليه آمالهم اصلاح اديرتهم واستخدام أموال أوقافهم فيما يفيد» . على أن اتفاق الآراء على وجوب هذا الاصلاح لم يخرجه الى حيز العمل بل ظلت الحال على ما هي عليه الى أن اهتمت الحكومة السنية بالأمر ووضعت له في تعديلها الحديث نظاماً تنتظر الامة النفع من ورائه وترجو تحقيقه في القريب العاجل وهذا النظام يقضي بالاهتمام بشؤون هذه الأديرة وضبط أوقافها وتحسين ايرادها وصرفه على ترقية الرهبان وانشاء المدارس اللازمة وعلى العموم كل ما يعود عليهم بالنفع والرقي .

ولما كان الاهتمام بالشيء بقدر معرفة مزاياه والنفع منه فأنا اسأل

(١) مقالة نشرت بمجلة رعمسيس الجزء الرابع السنة الأولى

(٢) ان اهتمام الاقباط في العهد الأخير بأحوالهم الملية وأحوال أديرتهم على الخصوص دفعنا ان نطلب من حضرة الباحث المدقق عطيه بك وهبي أن يكتب لنا كلمة عن الرهبنة في مصر وقد تفضل فأجاب طلبنا وأرسل لنا ذلك المقال الشائق الذي نشرناه مع الشكر الوافر لحضرته ونصح حضرات قارئينا به (تعليق المجلة)

الأدباء هل كان اهتمام الاقباط بالاديرة صادراً حقيقة عن معرفتهم تاريخها وما كانت عليه في الزمن السابق من الاهمية والنظام أوهو مجرد اهتمام لحب الاصلاح من حيث هو. إني أرجح الفكر الثاني لعلمي أن الاقباط أقل الناس اهتماماً بدرس تاريخ كنيستهم وأديرتهم وأن الاحساس الملي ضعيف في افئدتنا وان لا أثر حقيقي للتربية القومية في مدارسنا. وعلى كل حال يحسن أن نبحث في تاريخ هذه الأديرة لنقف على أعمال رجالها الأولين ونعرف ما كان لهم من المنزلة والتأثير في الزمن القديم حتى يكون اهتمامنا مبنياً على العلم بحقيقة الأمر والغاية الشريفة التي نرمي اليها ولا نكون كمن يشكو من علة وهو يجهل مصدرها أو يسعى وراء اصلاح لايدري قيمته

قال بعض المؤرخين إن الرهبنة نشأت بمصر في عهد دقلديانوس حين بلغت الاضطهادات من القسوة أشدها فاضطر الجم الغفير من المسيحيين الالتجاء الى الصحراء للعزلة فيها بقية أيام حياتهم. وقال البعض الآخر إن أصل الرهبنة هو الغيرة الدينية التي كانت تتقد نارها في أفئدة المسيحيين في ذلك الزمان فهذه الغيرة هي التي دفعتهم الى الاقتداء باقوال المسيح لرسله فتركوا العالم ومشاغله والمدن وزخارفها وهاموا في الصحراء للتفكير والتأملات. والتفرغ لعبادة خالق السموات. فامتلأت بهم البادية وطاب لهم المقام في تلك الاقطار مع ما فيها من الشمس المحرقة والماء النادر والرياح العاصفة والرمال الهائجة وابتدأوا وحدانا. ولكنهم مالبثوا أن ذاعت شهرتهم وتقواهم حتى كثر عددهم فاصبحت البادية مجموع مستعمرات ونزالات لاولئك الذين تركوا العالم وزخارفه للتسبيح والتمجيد. على أن العزلة بالصحراء للتنسك والعبادة لم تكن حديثة بمصر فقد جاء في التاريخ أن كثيرين من النساك الوثنيين قد وجدوا بهذه

البلاد قبل انتشار النصرانية وقد أقام بعضهم بضواحي « السرابيوم » بمنف أعني قبل ظهور يوحنا الاسيوطي بخمسة قرون ويوحنا هذا هو الناسك الشهير الذي كان يخاطب العامة من شرفة غرفته عند ظهور النصرانية . ويؤخذ من أقوال «فيلون» الفيلسوف الاسرائيلي الذي كان معاصراً لماري مرقس أنه كان يوجد بضواحي الاسكندرية عدد عظيم من الرهبان الوثنيين يعرفون باسم «ناسكين» "Thérapeutes" وذهب البعض الى أن بولا وأنطونيوس ومقار وباخوميوس وشنوده أخذوا عنهم مبادئ التنسك والعبادة . وليس في هذا شيء من الغرابة خصوصاً اذا عرفنا أن الديانة المصرية القديمة بقيت اثارها وطقوسها محترمة الى حين باغلب الجهات بينما كان انتشار المسيحية قاصراً على مدينة الاسكندرية . وقد بقي المصري ردحاً من الزمن يعبد أوزيريس وهوروس وإيزيس بالوجه القبلي . والمسيحي يمجد الآب والابن والروح القدس بالوجه البحري . وكذا بقيت اسماء الاعلام المصرية القديمة بين المسيحيين فاسم صربمون محرف عن «سيرابيس» وباخوم عن « باخيم » (عابد الاله خيم) وهكذا . ولكن الذي يميز الدين المسيحي ويدل على فضله وسمو مبادئه هو نشره على المجموع الانساني الاراء والافكار التي بقيت مكتومة في صدور الكهنة لذلك الحين لان اهتداء أصحاب العقول الكبيرة الى بعض المبادئ السامية والاكتشافات النافعة لا يكفي لارتقاء الهيئة الاجتماعية الا اذا عمت مزايا هذه المبادىء والاكتشافات ونشرت على الملاء وحينئذٍ ينتفع بها المجموع وتصبح ملكاً عاماً للجمهور

تلك هي الحقيقة التي وصل اليها بعض العلماء أذكرها على علاتها واترك للقارئ حرية البحث فيها ولا يخفى أن العالم كالكاهن فهو من العالم في حرم أي

يحتم عليه أن يعلن الحقيقة كما هي واذا كان العلم دين المستقبل فاحترام الحقيقة أسمى دليل على الاحساس الديني

أما وقد عرفنا مصدر الرهبنة وعلاقتها بالدين فأتقدم الى يراد طرف من تاريخ أباء الصحراء الاولين مجرداً عما يتخلله عادة من الحكايات والاقاصيص الخرافية

يقول الثقاة من المؤرخين ان أنبا بولا هو أول النساك وأبو الرهبنة المسيحية في أرض مصر ومسقط رأسه مدينة الاسكندرية وكان له أخ يدعى بطرس فلما توفى والدهما استولى هذا على الجزء الأكبر من ميراثه ومن ثم نشأ النزاع بينه وبين أخيه وبينا كانا سائرين في المدينة يتشاجران مر بهما ميت محمولاً على نعشه فسأل بولا عن ذلك الراحل فأجابه محدثه : « هذا يابنيّ أحد أعيان المدينة وأكبر أغنيائها وقد أصبح كما ترى رمة بالية مصيرها التراب » . فما وعى بولا هذه الاقوال حتى صمم من ساعته على ترك متاع هذه الدنيا الفانية فتنازل عن حصته في الميراث لأخيه الاكبر وقصد الصحراء للعزلة في قبر خرب بجبل قلزم حيث قضى بقية أيام حياته وكان لباسه من ليف النخيل وغذؤه الخبز المقدد وقد سمع به أنبا أنطونيوس فتاقت نفسه الى زيارة هذا الورع الصالح في خلوته. وبعد أن سار يومين في الصحراء تلاقيا وكان أول سؤال وجهه له أنبا بولا : « أين الثوب الذي أهداك اياه أثناسيوس العظيم » . فقام أنطونيوس للاتيان بذلك الثوب. فعاد وإذ أنبا بولا قد صعدت روحه الطاهرة الى السماء فلف جسمه في ثوب أثناسيوس وارتدى هو بلباس أنبا بولا وبرح المكان. هذا مجمل مايقال بالتأكيد عن هذا القديس. وقد ذكر

عنه البعض حكايات مختلفة ونسبوا له كرامات لاحاجة لذكرها في هذا المقام

أما أنطونيوس فقال عنه « جيروم » أحد أباء الكنيسة المشهورين انه فرّ الى الصحراء هرباً من اضطهاد الامبراطور ديسيوس وقد ولد أنطونيوس بضواحي بابلون مصر من والدين مسيحيين توفيا وهو في العشرين من عمره فوزع ميراثه على الفقراء واعتزل العالم وأقام بالصحراء في قبر قديم حتى بلغ الاربعين. ثم قصد الفيوم لتعليم الناس عبادة الله ومخافته ومن هناك توجه الى برية قلزم حيث وجد ينبوع ماء وغاباً ونخيلاً فطاب له المقام وقد بلغت شهرته الامبراطور قسطنطين فكتب يستدعيه اليه ولكن القديس لم يعبأ بذلك وآثر البقاء في عزلته حيث كان يقتل الوقت في الصلاة وجدل الخوص. وكان أنطونيوس صديقاً حميماً لأثاناسيوس العظيم ونصيراً نافعاً له في المواقف الدينية فبرح خلوته يوماً بناء على طلبه ليكرز بالاسكندرية مقاوماً تعاليم « آريوس » وبدعه ثم عاد الى الصحراء بعد اداء هذه المهمة وقضى بها بقية أيامه ولما شعر بدنو أجله وهب عصاه لتلميذه مقار وفروته لصديقه اثاناسيوس واسلم الروح في سنة ٣٦١ بعد ان عمر نيفاً ومائة سنة .

ومعلوم ان آثار دير انبا انطونيوس ما زالت باقية الى الآن بالصحراء الغربية إلا انه لم يعثر أحد بعد على سيرة هذا القديس بالقبطية وربما لعبت بها أيدي الضياع أو لم تزل تحت طي الخفاء بأحدى المكاتب الخصوصية أو هي مهملة في زاوية دير من الاديرة القديمة . والذي عثروا عليه الى الآن ترجمة سيرة انبا بولا باللاتينية عن القبطية وسيرة انبا انطونيوس مكتوبة باليونانية بقلم صديقه اثاناسيوس العظيم بطريرك الاسكندرية الشهير

ويلي هذين القديسين أنبا مقار وقد ولد من والدين مسيحيين في قرية

بضواحي منف وكان في حداثته يرعى الأبقار ولما بلغ أشده أراد والداه أن يزوجاه ولكنه تمنع فاكرهاه على الزواج فترك والديه ومن زوجاه منها وفر هارباً الى البريةوهناك التقى بالجمالين الذين كانوا ينقلون النطرون ودام يشتغل معهم في هذا العمل ومن ثم دعي مقار الجمال وإذ بلغ سن العشرين توفي والده وزوجته فتوغل في وادي النطرون وابتنى له مغارة بجبل برنوج وأقام بها زماناً ثم برحها قاصداً زيارة انبا انطونيوس ببرية قلزم ورغب في البقاء معه ولكن أشار عليه انطونيوس بالعودة الى وادي النطرون فعاد اليه وهناك التف حوله عدد عظيم من طلاب التنسك والراغبين في الرهبنة فبنى ديره المعروف الى الآن بدير أبي مقار فأقبل عليه الرهبان وبلغ عددهم الف وخمسمائة ومما يروى عن مكانة هذا الدير في أعين ساكنيه أنهم كانوا لا يعترفون بالسيادة عليهم لمن ولي بطريركا للاسكندرية الا اذا جاء الى ديرهم وسمحوا له بالجلوس على كرسيه .

وقد اتسع هذا الدير وغيره من أديرة وادي النطرون وبرية شيهات حتى بلغ عدد الرهبان بها في عهد أنبا كيرلس الاكبر خمسة آلاف راهب فكانوا عوناً لهذا البطريرك في الشدائد والملمات حتى أنه لما همّ الاسرائيليون يوماً ليفتكوا بالمسيحيين في الاسكندرية استعان أنبا كيرلس بجيش من هؤلاء الرهبان على طرد اليهود عن بكرة أبيهم من المدينة وقتل « هيباسي » معلمة الفلسفة وصديقها « أورست » الحاكم الروماني لما كان بينهما وبين كيرلس من الشحناء والبغضاء . ويقول المقريزي ان أنبا سمعان بطريرك الاسكندرية في عهد العزيز كان ينتقي أساقفة الجهات من بين رهبان دير أبي مقار لما اشتهروا به من التقوى والمعرفة والحكمة وقد كان أنبا مقار على جانب عظيم من

الوداعة ولين العريكة والحنان والتسامح والغيرة في الذودعن حوض المسيحية وإذ سمع يوماً بالخلاف القائم بين بطريرك الاسكندرية ومندوبي الكنائس الأخرى بمجمع أفسس سار راجلاً حتى وصل هناك ودافع عن الكنيسة المرقسية وتعاليمها ثم قفل راجعاً الى ديره حيث قضى بقية أيام حياته في العبادة والتعليم .

أما سكان الصحراء من الآباء الذين اشتهروا بالوجه القبلي فأرفعهم قدراً وأعلاهم شأناً وأبعدهم صيتاً وأكثرهم تقوى ومعرفة باخوميوس وشنوده

وقد ولد باخوميوس في سنة ٢٨٨ بقرية حقيرة بمركز اسنا من والدين وثنيين ولكنه امتنع منذ شبيبته وقبل أن يعرف اسم يسوع من أن يقدم قرابين للالهة. على انه بقي وثنياً الى حين ولم يذهب الى الصحراء ويعش بين الرهبان إلا لحقده على دقلديانوس وعلى كل حال فاعتناقه المسيحية لاحق لاضطهاد هذا الامبراطور . ويؤخذ من معاريض سيرته التي سطرها تلميذه « تيودورس » انه تناول المعمودية وهو في الخامسة والعشرين من عمره من يد أنبا صرابمون أسقف دندره وقد بقي باخوميوس فلاحاً أمياً حتى اضطرته الحاجة وشؤون وظيفته أن يتعلم القراءة والكتابة بالقبطية واليونانية فنال من المعارف حظاً وافراً وقد كان عدد الرهبان بأديرة وادي النطرون الفين وخمسمائة ولكنهم أخذوا في الازدياد حتى بلغ عددهم السبعة آلاف ومما يؤثر عن أنبا باخوميوس انه أول من رتب درجات الرهبان وسن لهم قانوناً وكان « بلمون » العابد الشهير من أكبر أصدقائه وأخته مريم التقية من أحسن معاونيه على نشر التعليم وبث الفضيلة وهي التي أسست بمصر أول دير للراهبات وبلغ عددهن به أربعمائة راهبة .

أما أنبا شنوده العظيم فهو أشهر الآباء بلا مراء . ولد في شندويل بالقرب من اخميم في ٧ بشنس سنة ٤٩ للشهداء الموافق ٢ مايو سنة ٣٣٣ . وكان في صغره يرعى الغنم ولما بلغ أشده أرسله والداه للتعليم بدير «أتريب» حيث كان عمه « بجول » وهناك اختلط منذ حداثته برجال المعرفة والادب والتقى. ولما كان من الأذكياء المجدين نبغ بين الرهبان وإذ مست الحاجة الى انتخاب رئيس للدير اتفقت الآراء على انه أفضل المرشحين فأسندت اليه هذه الوظيفة وقام بها خير قيام فأصلح الدير ونظم إدارته ووسع نطاقه وقد بلغ عدد الرهبان في أيامه ألفين ومائتين بالدير الابيض وألفا وثمانمائة بدير الراهبات التابع له. وبنى شنوده الدير الابيض من حجارة المعابد المصرية القديمة التي هدمها وأقام به أماكن للصلاة ودوراً للعلم ومعامل للصناعة ودعاه أورشليم الارضية. وكان شنوده كبير العزم شديد البطش كثير التقى واسع الاطلاع فصيح اللسان قوي الحجة محترماً مهاباً واذا شئت قل مخيفاً. وتدل مؤلفاته الدينية التي عثر على بعضها أميلينو وماسبرو انه كان من أكبر علماء الدين في زمانه فكان يستشهد في كتاباته بأقوال الأنبياء والحكماء والرسل ويورد الأدلة على صدق أقواله ويفحم معارضيه بقوة عقله ويؤثر على سامعيه بفصاحة لسانه واشتهر بالقسوة على الرهبان فسن لهم القوانين الصارمة ولم يرحم من ارتكب منهم جريمة وكان الحاكم المتصرف الذي لا شريك له في داخل ديره فاذا اقتضى الحال أمر بحبس الاخوة المذنبين وكبلهم بالحديد وجلدهم قبل أن يطردهم من الدير. وكان يشتغل بكليات وجزئيات هذه الدائرة الواسعة ويهتم كثيراً بترقية عقول اخوته واولاده من الرهبان وتهذيب أخلاقهم وتنقية أرواحهم وكان يوزع عليهم الاعمال كل حسب أهليته واستعداده للزرع والصناعة والتعليم والنسخ

وغير ذلك.وكان الرهبان طوع يديه وكثيراً ما استعان بهم لمحاربة اليونان الوثنيين ومن بقي من المصريين على دينهم القديم. على أن مؤلفات أنبا شنوده تدل على انه كان يوجد بالدير الأبيض مجلس شورى مركب من جميع الموظفين ولكل منهم الحق في ابداء ما يعن له من الآراء في الادارة والاصلاح. ومن اختصاص هذا المجلس انتخاب من تتوفر فيه شروط الكفاءة والاقتدار رئيساً لادارة شؤون الدير الروحية والزمنية فلما وقع الانتخاب على أنبا شنوده كما سبق البيان حصر السلطة كلها بين يديه لان تلميذه ويصا كان ضعيفاً لا قدرة له عند الحاجة على قيادة الرهبان وحملهم على الطاعة ومراعاة القوانين ومما يؤثر عن أنبا شنوده انه كان شديد الغيرة على المسيحية وقد دفعته هذه الغيرة الى الرحيل أكثر من مرة لحضور المجامع بالقسطنطينية وغيرها للدفاع عن مبادئ الكنيسة القبطية ودحض أقوال المعارضين لها من ابناء الكنائس الأخرى. فهو الذي قصد مجمع أفسس ومعه أنبا كيرلس الاكبر وكان لاقواله هناك التأثير العظيم وقد بقى أنبا شنوده يعمل على محاربة أصحاب البدع الدينية حتى قضى عليهم ويقال ان آخر أقوال فاه بها وهو على سرير الموت هي : « ليتني التقيت بنسطوروس لاضربه الضربة القاضية بعصاي هذه واقتلع لسانه من فمه حتى لا يعود فيجدف باسم الله القدوس » وقد توفي أنبا شنوده في سنة ٤٥١ أعني بعد ان عمر مائة وأثنى عشر سنة وقد بقيت مؤلفاته القبطية بالدير الأبيض الى عهد قريب حتى استولى عليها اميلينو ونشرها بالفرنساوية كما يعرف المطلعون ولا بد أن تكون هذه المؤلفات موجودة بالعربية ولكن لم يعثر عليها أحد بعد

هذا مجمل الحقائق التاريخية التي يهمنا معرفتها عن الرهبنة المصرية وأشهر

رجالها في نشأتها الأولى . ويرى منه القارئ انها بدأت مع بولا وانطونيوس بالتوحيد والانفراد ثم تدرجت مع مقار الى شيء من الاجتماع والاشتراك وانتهت بالمعيشة في جماعات منظمة مع باخوميوس وشنوده وذلك إن عدد الرهبان بدأ صغيراً وأخذ في الزيادة بوادي النطرون فبلغ عدة آلاف باديرة الصعيد ولم يعتزل باخوميوس وشنوده بالصحراء الخارجة كما فعل سلفاؤهما بل أقاما الاديرة بالصحراء الداخلة على طول الجبلين اللذين يحصر بينهما وادي النيل بالقرب من الارض الزراعية والجهات الآهلة بالسكان ولذا كان النفع من الأديرة القبطية خصوصاً في هذا الدور الأخير عظيما من كل الوجوه إذ لم تقتصر على الصلاة والعبادة بل كانت بها دور واسعة للعلم والادب ومدارس زاهرة للصنائع والفنون وكان الرهبان تلامذتها الداخلين وأبناء العائلات المقيمة بالبلاد المجاورة تلامذتها الخارجين ومن هؤلاء كان شنوده في مبدأ أمره كما سبق القول . وواضح أن الاديرة القبطية كانت بنظامها الأخير على جانب عظيم من الأهمية وهذا يخالف رأي الذين يزعمون أن الرهبنة كانت في بدء النصرانية محط رحال بضعة من الرجال كانوا يظنون أن في تعذيب أبدانهم خدمة الله وان الرهبان بوجه العموم شطر عاطل من الناس لا يفيد

أما إن اديرة الاقباط في الاجيال الماضية كانت مراكز للفضيلة والمعرفة فالادلة عليه كثيرة كما تشهد بذلك مواعظ الآباء الرهبان ومؤلفاتهم الاولى وآدابهم التي وصل الينا بعضها . وقد قال بعض المؤرخين إن الرهبان الذين تركوا العالم وما عليه وآثروا العزلة بدير أبي مقار لم ينفكوا عن الاشتغال بمعارف وآداب بلادهم وانه كانت توجد بهذا الدير مدرسة في وسط الصحراء

يقصدها الطلبة لاتمام دروسهم وكان به عدد معلوم من الرهبان مهمتهم التأليف والتصنيف ونسخ الكتب فهم خلفاء أولئك الكتاب الذين اشتهروا بالمعرفة والحساب في عهد المصريين القدماء . أما في أديرة أنبا باخوميوس وأنبا شنوده فكان يتلقى العوام بمدارسها اصول الكتابة والقراءة ولم يكن التعليم قاصراً على الذكور بل كان يتناول الاناث بدليل أن الدير الذي أسسته مريم اخت باخوميوس كانت راهباته متعلمات وأن ويصا تلميذ أنبا شنوده كان يخاطبهن كلاً باسمها وكان شنوده يتولى بنفسه كتابة ما يلزم لتعليمهن ونصحهن . وقد عثر البعض على مؤلفات مكتوبة بخط الراهبات واستدلوا على انه كان يوجد بينهن آنسات من بنات العائلات الشهيرة بالاسكندرية وانهن كنّ يحسنّ القراءة والكتابة بالقبطية واليونانية على السواء .

على أن العلوم والآداب لم تكن منتشرة فقط بالاديرة القبطية في الاجيال الاولى بل في المتوسطة أيضاً فأن الاب بطرس السدمنتي صاحب المؤلفات الرائقة كان راهباً ومثله كان القس جرجس أخ المسعودي كاتب الجيوش المنصورة صاحب كتاب الحاوي العلمي الشهير والقس سمعان بن كليل صاحب روضة الفريد وغيرهم كثيرون من العلماء الأفاضل وأبناء الامراء الاكابر الذين اشتهروا بالتقوى والمعرفة .

ولا يخفى أن الاديرة كانت غنية بمكاتبها المشحونة بالمؤلفات اليونانية واللاتينية والقبطية والعربية فاذا فرغ الراهب الورع من الصلاة أو الفلاح النشيط من الحرث والزرع لم يجد له أحسن سلوان من الدرس والمطالعة والتحرير والتصنيف وجاء في التاريخ أن الاقباط استمروا على التأليف باللغة القبطية الى الجيل الثالث عشر وأنهم لم يبدأوا في الترجمة والتصنيف باللغة

العربية إلاّ في الجيل الرابع عشر .

أما الصناعة والفنون القبطية فقد كانت زاهرة في اقليم «اتريب» تحت ظل دير أنبا شنوده العظيم حيث كان يشتغل الرهبان بالصنائع والحرف على اختلاف انواعها فبلغوا في هندسة البناء والتصوير والنقش والحفر شأواً عظيماً تدلنا عليه آثار أخناس وأخميم والدير الابيض وكنيسته ومفاتيحهما المحفوظة الى الآن بعضها بالمتحف المصري والبعض الذي عثروا عليه حديثاً بالمتحف القبطي. ثم آثار دير نقاده الذي يرجع عهد بنائه الى زمن الامبراطورة هيلانه والدة قسطنطين العظيم. وآثار الدير المحرق بضواحي اسيوط. أما آثار أديرة وادي النطرون وقد زرتها منذ عامين فتدل على تقدم الفنون القبطية تقدماً باهراً ومعلوم أن الصانع القبطي قد امتاز ببراعته حتى أن الفاتحين من العرب لم يروا بداً من الاستعانة بمعارفه على بناء القصور والجوامع ولهذا كان وجه الشبه بين هذه العمائر وبين الاديرة والكنائس القبطية ظاهراً لا يكاد يحتاج الى دليل .

هذا ما أمكن ذكره في هذه العجالة وهو مع ايجازه يكفي للدلالة على ما كانت عليه الاديرة القبطية في الزمن السابق ويصوب رأي الذين ينادون اليوم بضرورة رفع شأنها واصلاح حالها وضبط ايراد أوقافها وترقية أفرادها حتى يعيدوا لها شيئاً من مجدها القديم والبهاء التي كانت عليه أيام أنبا شنوده العظيم

ولما كان أمر هذا الاصلاح قد عهد أخيراً لغبطة البطريرك ورؤساء الاديرة أنفسهم فالكل في تطلع لتحقيق هذه الاماني وتشوق لتنفيذ هذه الرغائب على أيديهم في القريب العاجل ان شاء الله . وقد اتصل بي وأنا

أكتب هذه السطور أن الاميال متجهة الى انشاء مدرسة لاهوتية للرهبان بالعاصمة وأن غبطة البطريرك سيجمع مجمعاً اكليريكياً عن قريب لتنفيذ هذا المشروع فحمدت الله على هذه البوادر السعيدة وشكرت القائمين بهذه الحركة المباركة ورجوت أن يكون هذا بدء عصر اصلاح جديد في تاريخ هذه الاديرة القديمة .

ولا بد لي من القول هنا اننا كلما درسنا تاريخ أمتنا ووقفنا على أخبار رجالها وأعمالهم في الزمن السابق نما فينا الاحساس الملي وزاد فينا الميل الى اصلاح شؤوننا فارجو رؤساء الاديرة أن يراجعوا التاريخ وضمائرهم ويقابلوا بين حالتي الاديرة السابقة والحاضرة حتى اذا عرفوا مقدار الفرق عملوا هم من أنفسهم على الاصلاح وربحوا الثواب من رب العالمين والثناء من أبنائهم المخلصين .

أما أعضاء المجلس الملي فكل ما يطلب منهم في هذا المقام أن يهتموا ولهم الفشكر بتوسيع نطاق التربية الملية في مدارسنا العلمية والصناعية وأقصد بالتربية الملية أن يتعلم التلاميذ تاريخ الكنيسة القبطية وما كان يجري بينها وبين الكنائس الاخرى ويدرسوا حياة رجالها المشهورين وأعمالهم المجيدة ويراجعوا آثار الاديرة والفنون القبطية وغير ذلك مما يفضي الى احياء العواطف الملية ويجمع رابطتنا القوميه ويسهل علينا الارتقاء في سلم المدنية

وفي الختام أرجو حضرات ادباء الاقباط وأخص بالذكر منهم أساتذة وتلامذة المدرسة الاكليريكية أن يكثروا من البحث في مثل هذه المواضيع المفيدة وان يتحفونا من وقت لآخر بما تصل اليه ابحاثهم عن الكنائس والاديرة والآثار والمؤلفات القبطية حتى لا يقال عنا اننا أقل الناس علماً بتاريخ امتنا والسلام

مار مرقس امام التاريخ [1]

لو عرف «رينان» [2] أن مسيحي مصر مازالوا متمسكين بعروة ايمانهم وهم يجتمعون في القرن العشرين للاحتفال بذكرى مار مرقس وأعماله العظيمة لتنازل غالباً عن ادعاءآته

ليس مجيء مار مرقس الى مصر وتأسيسه كنيسة الاسكندرية أيها السادة هو مجرد تقليد جرينا عليه أباً عن جد ولكنه اعتقاد مبني على واقعة تاريخية ثابتة أيدها العلماء ومشاهير مؤرخي القرون الأولى . فقد ذكرها أكليمنضس وبابيانوس وأوسبيوس والقديس جيروم والقديس ايفيانوس في كتبهم باعتبار انهاحقيقة لانزاع فيها . فنحن لانجتمع اليوم لاثبات مجيء الرسول الى مصر . وانما نجتمع نحن الذين آل الينا هذا الارث الثمين لنذكر الاعمال الرسولية التي قام بها بطلنا المجيد ونفتخر بهذا النفع العام لالمصر فقط بل للانسانية جمعاء . ولو اننا لا نحتفل بذكراه سوى مرة واحدة في السنة إلا أن عمله الانساني الدائم هو محل احترامنا في كل يوم وأعجابنا في كل ساعة فقد قضى الرسول ببشارته على عبادة الأوثان وعلى الخرافات الكاذبة التي انتابت أرض فرعون . بل وضع لنا أساس تعاليم أدبية كانت ولم يزل لها أكبر تأثير في الانسانية

---

(١) ترجمة الخطبة التى القاها بالفرنسية في حفلة تذكار عيد مار مرقس الانجيلى في يوم ٨ مايو سنة ١٩١١ — ٣٠ برموده سنة ١٦٢٨ للشهداء

(٢) هو العلامة الفرنسي المشهور بكتاباته عن المسيحية

ما فتح قيصر مصر إلا لغرض شهواني أو هوى في الفؤاد . أما مرقس ففتحها لتخليص الانسانية وزرع حضارة عالية

واني لمورد بعض ملاحظات أولية قبل الأتيان بتاريخ الرسول

لما فتح الرومان مصراً أي قبل ظهور المسيحية كان لليونان واليهود وهما العنصران السائدان بالبلاد مركز ممتاز بها تبعاً لمصالحهم التجارية والعلمية. وكان عدد اليونانيين كثيراً بالاسكندرية واليهود ببابيلون وفي مقاطعة هليوبوليس.

وبقدر ما كان اليهود متمسكين بديانتهم بقدر ماعرف اليونان ديانتهم الوثنية لأن احترامهم للملوك كان أعظم من احترامهم للآلهة .

أما ديانة مصر القديمة التي دامت سائدة نحو الخمسين قرناً فقد عفت وحل محلها ديانة وثنية محضة وذهبت بذلك الصفات الدينية والأدبية التي تحلى بها ملوك وحكماء الفراعنة الاقدمين . ولم يبق سوى الكهنة يعتقدون باله حي مصدر كل خير . وأما باقي الآلهة فمظاهر لجلالته .

فعند ظهور المسيحية كان هنالك فضلاً عن اليهود شيعتان وثنيتان متعارضتان : اليونان المسخرون بخرافات الفراعنة والمصريون الكارهون لوثنية اليونان حتى أن آلهة هؤلاء لم يكن لها من يعبدها خارجاً عن الاسكندرية كأنها لم تكن من مصر

فتبشير الناس اذاً بعبادة اله واحد هو قضاء على آلهة البلاد وآلهة اليونان على السواء

وتعلمون أن السيد المسيح عند هروبه من اضطهاد هيرودس الملك جاء مع عائلته المقدسة الى مصر الاحتماء في بلادنا ومكث هنا الى أن مات الملك. فهذه الاقامة قد تركت عند المصريين عامة واليهود خاصة أثراً لذكرى المخلص

الموعود . ولما رجع السيد الى فلسطين أخذ يبشر باقتراب ملكوت الله فاجتذب قلوب الكثيرين بمعجزاته وآيات شفائه . ثم جمع حوله رفقاءه وتلاميذه الذين تولوا بعد صعوده التبشير بكلمته عند جميع الامم . وكان باروشليم في تلك الأوقات جمهور من اليهود المصريين الذين رأوا بأعينهم المعجزات وسمعوا باذانهم ما فاه به السيد عن قوة الله وعجائبه . فلما عاد هؤلاء الى أوطانهم خبروا مواطنيهم طبعاً بما رأوا وما سمعوا .

ولم يكن صاحب الاحتفال من الاثنى عشر رسولاً الذين كانوا يبشرون باروشليم ولكنه رافق كثيراً منهم في اسفارهم الانجيلية . وكان مسقط رأس الرسول القيروان احدى الخمس مدن الغربية التي كانت وقت ظهور المسيحية تحت سيطرة المصريين

ولو أن والديه كانا مشتغلين بالزرع والحرث إلا أنهما كانا عارفين حقيقة المعرفة بشريعة موسى. حافظين كتب العهد القديم كماذكر ساويرس الاشموني. ولسبب ماهجرا الى الشام وأقاما بالقرب من أروشليم . ثم مات أبوه أرسطوبولوس بعد ذلك بقليل وأقام مرقس وحده مع امه . وفي بيتها كان يجتمع المؤمنون للدرس والصلاة . فباجتماع مرقس بطبيعة الحال معهم ومع برنابا خاله وبطرس صهر الاخير درس من طفوليته تعاليم يسوع وغرس في قلبه من هذا الحين حب الفضيلة

وابتدأ مرقس في البشارة بذهابه مع بولس الرسول وبرنابا الى انطاكية وسيلوكية وقبرص وسلامين وبرجه بمفيلية حيث فارقهما وذهب الى أورشليم ومكث بها حتى افترق الرسل لحمل كلمة الله بين جميع الامم . وكانت مصر من نصيب مرقس فسار على الفور اليها . متتبعاً خطوات سيده مارا بالصحراء

الى القنطرة ومنها الى هليوبوليس فبابيلون حيث مكث طويلاً وفي ذات المكان الذي أقام فيه السيد مع العائلة المقدسة كتب الرسول انجيله قبل ذهابه الى الاسكندرية للتبشير وقد أجمع علماء التاريخ على اعتبار انجيله أحدث عهداً من الاناجيل الثلاثة الاخر. وفي الواقع بمجرد درس دقيق في الأناجيل الاربعة نستدل على أن انجيله هو ابدأهم في الكتابة وقد يمتاز ببساطة موضوعه حيث اورد اخبار الرسل وكيف بشر المسيح بملكوت الله وكيف شفى المرضى باعاجيب ومعجزات فائقة . وكيف قدم نفسه في النهاية بقدم ثابت لكي يصلب حتى يكمل فداءه عن الانسانية المعذبة الجارمة

وإن المبادئ العالية التي يحويها انجيله المقدس الدالة على قيمته الدينية هذا الكتاب الذي كان ثمرة فكر مهذب عال واعتقاد وايمان ثابتين هو الاساس المتين الذي يبنى عليه عماد العقيدة المسيحية

وما هذا بأول مفاخر مار مرقس كاروز ديارنا . فقد قام وبيمينه انجيله مبشراً لكي يخلص الاسكندرية من ظلمة الوثنية . فآمن عدد كبير من الرجال والنساء ببشارته كما حدثنا أوسبيوس . وترتب على هذا الفتح السلمي أن الفت نظر الاسكندريين فأخذوا يزدرون بعمله ويراقبون حركاته وسكناته من كل جانب . على أن هذا لم يمنعه من تكميل رسالته فازداد عدد المؤمنين بتأثير كلماته وتعاليمه العالية . وقد سر كثيراً بهذا الانتصار فكرس كنيسة وأقام أنيانوس خليفة أول عليها . ثم قام الى بنتابوليس مسقط رأسه ومكث هنالك سنتين أسس فيهما كنائس عدة من بينها كنيستي القيروان وليبيه . ولما رجع الى الاسكندرية شاد الكنيسة التي كرسها في المحل المسمى « بقوليه » عند شاطئ البحر في الجهة الشرقية من المدينة ثم عاد الى التبشير

الذي أزهر وأثمر . وكان من حرارة الذين دخلوا في الايمان أن كثيرين منهم رحلوا عن المدينة الى البراري ليعبدوا الله هنالك بخوف ورعدة . هؤلاء المسيحيون المتقشفون هم الذين دعاهم فيلون الفيلسوف اليهودي الذي كان معاصراً للرسول بالناسكين . وكانوا هم الداعون لحياة الرهبنة كما مارسها فيما بعد مكاريوس وباخوميوس وأنبا شنوده . وقد ذكر فيلون انهم كانوا يعيشون حوالي الاسكندرية . وهذا يطابق ما نقرأه في تاريخ الكنيسة القبطية « السنكسار » بأن الرسول كان يزور المؤمنين نهاراً خارج المدينة وفي المساء يعود متخفياً .

ولنا أيضاً في شهادة معاصري مار مرقس من الرسل أكبر دليل على عظمة عمل رسولنا . فبولس الرسول يقول في رسالته الى أهل كورنثوس بأن مار مرقس كان نافعاً له في خدمة الكلمة لملكوت الله . وأوصاهم بأن يقابلوه بكل احترام . وفي رسالته الى تيموثاوس تلميذه طلب منه أن يقابله بروما ويحضر معه مرقس لانه يكون معيناً كبيراً . وقد شاهد بعيني رأسه استشهاد الرسولين بطرس وبولس بروما في أيام نيرون الظالم .

وما كانت هذه الفظائع المؤلمة التي رآها مرقس رؤيا العين والتي وصفها الكاتب الشهير البولوني وصفاً دقيقاً في كتابه « كوفاديس » لتعوقه عن الرجوع الى مصر لكي يلقى هذا المقدور أيضاً . ففي ٢٩ برموده من السنة الرابعة عشر لحكم نيرون بينما كان الوثنيون يحتفلون بعيد سيرابيس . والمسيحيون بعيد الفصح هاجم الكفار الكنيسة وقبضوا على مار مرقس ووضعوا حبلاً في عنقه وأخذوا يجرونه في شوارع « بقوليه » حتى أدموا جسمه بالجراح ومزقوا لحمه قطعاً . وزجوه في السجن مساء . وفي صباح

اليوم التالي أعادوا تمثيل الامس حتى لفظ النفس الاخير في المساء وهو يقول « أيها الاله إني أضع روحي في يديك ». وكان هذا في الثلاثين من برموده. ذلك التاريخ الذي لاترونه بعد في صدر بعض الصحف المصرية سيبقى خالداً في تاريخ كنيستنا ومذكوراً الى المنتهى في التاريخ العام .

ولم يكتف الوثنيون بموت شهيد المسيحية بمصر بل أرادوا احرق جسمه وما ردهم سوى عاصفة شديدة فرقت شملهم .

وقد جمعت بقايا الرسول ووضعت بقوليه في الكنيسة التي بناها . وفوق هذا القبر أيضاً قطعت رأس البطريرك بطرس خاتم الشهداء . وهو يقول « ليكن دمي قضاء للوثنية وخاتماً لقتل القديسين » .

وبقي جسد مار مرقس في هذا المكان حتى القرن التاسع حيث جاء بعض البحارة من البندقيين وانتهزوا فرصة نوم الرهبان المكلفين بحراسة القبر ونقلوا جسده الى البندقية . ولهذا السبب نرى أن الرسول موضع للاحترام والتبجيل على شواطئ الأدرياتيك .

هذا هو أيها السادة ملخص حياة مار مرقس وتاريخ سيرته الرسولية الكاملة . وشهادته من أجل الانسانية .

وهنالك عمل آخر ندين به لهذا الرسول المجاهد فقد أسس بجانب كنيسة الاسكندرية معهداً لايقل في الاهمية . وهو مدرسة الاسكندرية الدينية التي حفظت هذه التعاليم الثمينة . وكانت سنداً للآداب المسيحية لأزمنة طويلة .

سبق أن ذكرنا انه عند ظهور المسيحية بمصر كانت الاسكندرية مركز الحياة العلمية للعالم المتمدين . هنالك غرس اليونان والرومان ما اقتبسوه من

علم وأدب . وكان اليهود يتبادلون معهم ويشتركون في هذه الحركة العقلية بعد ان كانوا قليلي الاختلاط بالوثنيين فأسرعوا في انشاء المدرسة الفلسفية التي أذاع شهرتها فيلون الكبير وبذلك كان جميع قاطني الاسكندرية متنافسين في الاخذ بأهداب الآداب والعلوم . وشملت هذه الحركة العلمية جميع الطبقات بلا استثناء حتى الحمالين أنفسهم كانوا يشتركون في المباحثات الفلسفية وينتصرون للآراء الراجحة . وقيصر نفسه في شروحاته يقول: إن الفلاسفة كانوا يجلسون في المفارق على قارعة الطريق يتباحثون. ولا يخفى كم من المصاعب التي كانت تحيق بمار مرقس وما كان من عمله الكبير في تغليب العقيدة الجديدة بالتبشير بها في وسط كهذا الوسط. وفي أحوال كهذه

وقد سبق قولنا إن منزل مريم أم مرقس كان محل تقوى يجتمع فيه المؤمنون للصلاة والمطالعة . فتمكن مرقس وهو ابن لأب تبحر في علوم العصر ولام تقية من دراسة الانجيل . فلما حضر الى مصر أسس هنالك كنيسة الاسكندرية والمدرسة اللاهوتية

وقد ذكر أوسيوس في كتابه «تاريخ الكنيسة» عند كلامه عن بنتيوس الذي كان رئيساً لهذه المدرسة في منتصف الجيل الثاني أنها كانت موجودة قبله بزمن بعيد وأنها ترجع أصلاً لظهور المسيحية بارض مصر . ونعلم أيضاً من تاريخ الكنيسة القبطية أن يوستوس كان رئيساً لهذه المدرسة في أيام البطريرك أنيانوس وفي السنين الاخيرة لمار مرقس الذي عمده . ولما تولى يوستوس كرسي البطريركية خلفه في رئاسة المدرسة أومينوس ومن بعدهما ماركيانوس . وبنتيوس . وأوريجانوس . ومن هذا نستدل على أنه من وقت

مار مرقس كانت هنالك وظيفتان: وظيفة الاسقف رئيساً للكنيسة ووظيفة رئيس المدرسة لتعليم المؤمنين . وكان الاسقف ينتخب دائماً من علماء هذه المدرسة الذين أمتازوا بتقواهم وعلومهم والتاريخ أيضاً يعلمنا أن مسيحيي الاسكندرية اشتركوا من بدء المسيحية في الحركة العلمية التي ابنتها باريس العالم القديم

قال الامبراطور أدريانوس الذي زار الاسكندرية « إنّا لا نجد هناك كهنة مسيحيين لم يكونوا علماء ورياضيين». وقد أشتهرت المدرسة اللاهوتية في القرنين الثاني والثالث بعلمائها المشهورين. في هذا الوقت كان الناس يتهافتون على سماع تعاليم أكليمنضس وأوريجانوس وديديم الاعمى

قال أكليمنضس عند ذكره بالأعجاب أعمال بنتيوس «فقد أنتج من الأزهار التي جمعها من الأنبياء والرسل عصيراً نقياً من العلم الصحيح وطعمه لنفوس تلاميذه »

فصارت مدرسة الاسكندرية بهؤلاء العلماء مهذبة العالم اجمع الوثني والمسيحي على السواء .

فنحن مدينين لهم في انتشار المسيحية بوادي النيل ولا تساع نفوذ كنيستنا في الشرق والمركز الأعلى لبطاركتنا في المجامع الدينية

فاسكندر وتاوفيلوس واثناسيوس الأعظم الذي قضى على بدعة آريوس. وكيرلس الاكبر الذي محى بدعة نسطوريوس .ودسقوروس الذي اشتهر في المسيحية وكثيرون غيرهم من أساطين الكنيسة استحقوا أن يكونوا خلفاء لاوائك الاساتذة العظماء . ومن البديهي أن الحياة الادبية التي انتشرت في العالم المتمدين بعد ذلك أساسها هذه المدرسة المسيحية .

هذه هي أيها السادة النقط الاساسية في تاريخ حياة مرقس وأعمال

المدنية التي أتاها هذا البطل الذي نحتفل بذكره اليوم .

والتاريخ يشهد على الدوام أن مار مرقس خلف للمصريين بانجيله تعليماً أدبياً سامياً . وبكنيسته بالاسكندرية التي قاومت أخطار وضيقات الزمان مثلاً قوياً من انكار الذات والتضحية . وأخيراً بهذه المدرسة العالية شقيقتها مصدراً للتعليم الثمين الذي تلقى منه العالم فيما بعد بشراهة زائدة

فلنحافظ اذاً على هذه الارث الثمين الذي اشتريناه بدم شهدائنا وبالتضحية والاضطهادات المريعة . كما يجب علينا أن نمارس تعاليم أباء كنيستنا ونقتفي خطواتهم . فانكار الذات والاخلاص والتضحية يجب أن تكون علماً في جميع أعمالنا. ومع تمسكنا الشديد بايماننا يجب أن نحب قريبنا كما نحب أنفسنا. هذا هو النظر العالي والتعبير السامي لذلك التعليم الذي أوصانا به مار مرقس اه .

حول سياحاته

سنة ١٨٩٨

طريق باريس (١)

مرسيليا في ٧ يوليه سنة ١٨٩٨

ما وطأت قدماي أرض فرنسا واسترحت من تعب السفر حتى تذكرت ان عليّ واجباً لجريدة مصر الغراء لا بد لي من تأديته ووعداً لحضرة صاحبها الفاضل يجب عليّ القيام بايفائه

وعدتكم قبل السفر بأن أكتب اليكم عما أشاهده في أثناء هذه الرحلة من المناظر وأقف عليه من الاحوال والحق يقال اني كنت عازماً على أن لا أكتب لكم قبل الفراغ من تكرار الدرس وتأدية الامتحان ولكني رأيت في أثناء الطريق من الاسكندرية الى مرسيليا وخصوصاً بهذه المدينة أشياء لا يصح ارجاء الكلام عليها فعدلت عن ذلك العزم وانتهزت فرصة اقامتي هنا هذا اليوم للشروع في تنفيذ ذلك الوعد .

سافرنا من الاسكندرية في الساعة الرابعة من مساء يوم الجمعة الماضي على ظهر الباخرة (ساجاليان) من بواخر شركة المساجيري الفرنساوية وقد كانت مزدحمة بالمسافرين الذين لا يقل عددهم عن ٢٥٠ وكثيرون منهم من أعيان مصر وكبار الأجانب فيها ومشاهير التجار في مدينة الاسكندرية وأكبر العائلات الأوربية فيها وكان على الباخرة المذكورة أيضاً جملة قسوس

(١) مقالة نشرت بجريدة مصر بتاريخ ١٣ يوليو سنة ١٨٩٨

وراهبات من مرسلي الصين وعدد عظيم من السوريين قاصدين أمريكا ومعهم عيالهم ونساؤهم في حالة يرثى لها .

وبعد مسير ساعتين من مرفأ الاسكندرية هاجت الأمواج فاهتزت الباخرة اهتزازها الاعتيادى في مثل هذه الأحوال وهجم دوار البحر على أغلب المسافرين ففعل فيهم فعله المعلوم . أما أنا فقاومته واشتغلت عنه فبعدَ عني ولم يعد اليّ بعد فحمدت الله على هذا الامتياز الذي اكتسبته على أثر سياحتي بالبحر الاحمر في السنة الماضية وقد استمر هذا الاهتزاز وذلك الدوار يفعل فعله بالمسافرين الى اليوم الثالث (الأحد الماضي) حتى اصفرت الوجوه وسئمت النفوس فتوفرت بذلك مؤونة المرضى لصالح الشركة واستراح الغلمان من خدمة المائدة (مصائب قوم عند قوم فوائد)

أما في اليوم الرابع فهدأت الأمواج وصفا الجو واعتدل الطقس فعاد كل لصحته وطلع المسافرون على ظهر الباخرة فامتدت مقاعد ركاب الدرجة الأولى والثانية بطول الباخرة من الجانبين وجلس الناس رجالاً وسيدات يتجاذبون أطراف الحديث وكل يقص على رفيقه ما لاقاه من العناء من جراء ذلك الضيف الثقيل دوار البحر . وفي الساعة التاسعة من صباح ذلك اليوم ظهرت أمامنا من الجهة اليمنى سواحل ايطاليا ومن الجهة اليسرى صقليا وما دنونا من الساحل حتى قام الركاب ووجهوا نظاراتهم الى الساحل خصوصاً من جهة ايطاليا حيث كان المنظر عجيباً فكنا نرى الجبال المغطاة بالخضرة وفي سفحها البيوت والحدائق تشطرها السكة الحديدية وتمر بها الانهار ومن فوقها الكباري بهيئة تقر لها عين الناظر خصوصاً بعد مسير ثلاثة أيام لم نر في خلالها شيئاً من هذا القبيل . وقد شاهدنا من جهة صقليا على بعد بركان

(اتنا) الذي يبلغ ارتفاعه ٣٠٠٠ متر وفي الساعة الحادية عشر مررنا ببوغاز (مسين) الواقع بين جبال الكالبر وصقليا وهناك ترى البيوت مقامة الواحد بعد الآخر على هيئة مدرج والحدائق تحيط بها على شكل لطيف . وبعد خروجنا من هذا البوغاز أبصرنا بركان (استرومبولي) ورأينا بالنظارة الدخان صاعداً من وسطه

وفي الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الثلاثاء قربنا من سواحل (ساردينيا) وبعد قليل شاهدنا من الجهة المقابلة بلاد (الكورص) حيث نشأ نابليون الاكبر ولدى دخولنا ببوغاز (بونيفاسوا) شاهدنا على الساحل من جهة الكورص مقبرة اقيمت هناك لقومندان السفينة الفرنساوية التي غرقت بهذا المكان اثناء سفرها حاملة عدداً عظيماً من الجند والذخيرة أيام حرب القرم

وفي صباح يوم أمس ٦ الجاري ابصرنا سواحل فرنسا ورأينا على بعد الكنيسة المشهورة المعروفة باسم (نوتردام دي لاجارد) وبعد ساعتين دخلنا ميناء مرسيليا بسلام . وهناك ترى حركة عظيمة للتجارة والسفن وقد قضينا هذا اليوم بمدينة مرسيليا حيث زرنا الآثار الجميلة والمتاحف الفاخرة والحدائق الفاخرة والقصور الشاهقة مما أود أن أفرد له رسالة أوافيكم بها من باريس إن شاء الله فأن الوقت ضيق ولم يبق على ميعاد القطار الذي يقوم الى هذه العاصمة غير خمسة واربعين دقيقة

طريق باريز [١]

ليون في ٨ يوليه سنة ١٨٩٨

أكتب اليكم اليوم رسالتي عما شاهدته بمدينة مرسيليا ايفاء بوعدي في رسالة أمس وكنت أود أن أطيل الشرح واسهب في العبارة ولكن ضيق الوقت لم يمكني من زيارة كل ما يستحق الزيارة بهذه المدينة وكلامي عنها بقدر ما رأيته فيها وقضيته من الوقت بضواحيها فلا تلم إذا رأيت تقصيراً واعلم أن وقت السائح محدود خصوصاً اذا كان مثلي قليل الثروة شديد الميل الى التنقل في هذه البلاد الجميلة .

ريثما رست الباخرة التي حضرنا عليها أمس بميناء مرسيليا جاء عمال شركة (المساجيري ماريتيم) لتنقل أمتعة المسافرين الى الجمرك للتفتيش عليها ومما لاحظته من العامل المكلف بهذه المهمة أنه عند سؤاله صاحب الأمتعة عما فيها من البضائع مثل الدخان والبن يشخص له كأنه يقرأ في عينيه صدق أو كذب أقواله فاذا حصل عنده شك نبه بفتح الصناديق وإلا صرح بالأنصراف حتى اذا كان السائح مثلنا غير عازم على الأقامة طويلاً بمرسيليا طلب ارسال امتعته الى السكة الحديدية بمبلغ جزئي لا يزيد على خمسة سنتيم (٢ مليم) عن كل طرد فتبقى هناك في مخزن الأمانات تحت طلبه عند مبارحة مرسيليا .

فعلنا ذلك ثم نزلنا الى المدينة لمشاهدة أثارها ومتاحفها آمنين على الامتعة مطمئنين فركبنا عربات الامينبوس الى (الكانيبير) أشهر شوارع

(١) نشرت بجريدة مصر بتاريخ ١٥ يوليو سنة ١٨٩٨ بالعدد ٧٤٦

مرسيليا ومن هناك أخذنا عربة لزيارة الآثار فابتدأنا بزيارة كنيسة (نوتردام دى لاجارد) التي ذكرتها في رسالتي السابقة

صعدنا الى هذه الكنيسة الفخيمة بآلة شهيرة بمرسيليا يدعوها الفرنساويون باسم (اسسانسير) وهي مركبة غرفتين احدهما للصعود والأخرى للنزول تسع كل منهما ستين شخصاً وهذه الآله تمر في منحدر يبلغ ارتفاعه ٨٤ متراً . وتتحرك بضغط مائي يعرفه رجال هذا الفن وقد دفع كل منا ثمانين سنتيماً عن الصعود والنزول وما استقر بنا المقام في الغرفة المذكورة حتى تحركت بادارة عامل مخصوص فصعدنا في وقت يقل عن ثلاث دقائق بحيث لم نشعر بأى شيء مما يكابده مثلاً من يريد الصعود الى الاهرام فياليت الحكومة المصرية تهتم بمثل هذه الآلة لهذا الغرض . ورأينا من فوق التل مدينة مرسيليا بكامل اجزائها فكانت نظرة تبهر العين وتنعش الفؤاد ومن هناك سرنا في ممر جبلى يوصل الى ذات الكنيسة فزرناها واذا بها على جانب عظيم من الفخامة والوقار يحترمها كبراء الفرنساويين خصوصاً أهالي مرسيليا وبحارتها الذين يخرجون ساجدين متى ابصروها على بعد وهي مرتفعة عن سطح البحر بمائة وخمسة وستين متراً وبأعلاها جرس يبلغ ارتفاعه ٤٥ متراً ومن فوق تمثال من نحاس يقولون إن وزنه تسعة عشر الف كيلو جرام أما في داخل الكنيسة فرأينا من الرخام المزخرف والنقش العجيب (والايقونات) ما يبهر الابصار ويجعل لهذه الكنيسة تلك الشهرة العظيمة في هذه البلاد

نزلنا من كنيسة (نوتردام دى لا جارد) كما صعدنا ثم توجهنا لزيارة سراي (لونشان) حيث يوجد قصر المياه . يدعونه هكذا لان المياه تأتي اليه بمواسير مخصوصة من نهر (الدورانس) ثم تنحدر من بين التماثيل العجيبة

الى حديقة بديعة توصل الى شارع المدينة وبجانبي هذا القصر متاحف بها من الاشياء المفيدة ما يطول شرحه ومن خلفه حديقة الحيوانات . والذي يستحق الذكر هنا أننا رأينا عند دخولنا بهذه السراي اعلاناً تكفي عبارته للدلالة على درجة تمدن هـذه البلاد . وهاك تعريبه (لما كانت المتنزهات والحدائق العموميه ملكاً للأمة بأسرها وموضوعة تحت ملاحظة ورعاية الوطنيين اجمعين فالصالح العام يدعوهم للاهتمام بحفظها وصيانتها)

خرجنا من هـذه السراي للتريض بمتنزه مرسيليا العمومي المعروف بأسم (برادو) ثم عدنا الى شارع (الكانبير) الذي يعجب به أهالي مرسيليا ويفتخرون حتى أنهم يبالغون في أهميته فيقولون (لوكان لباريس مثل شارع الكانبير لأصبحت أشبه شيء بمرسيليا). رأينا بهذا الشارع من المخازن التجارية والفنادق والقهاوي والملاهي مالا نرى منه شيئاً بالقاهرة والاسكندرية. ومما أستلفت أنظارنا بنوع مخصوص عمارة البورصة حيث يوجد مجلس التجارة وهي عمارة حديثة يقال إن مجموع ما أنفق عليها يزيد عن ثلاثة ملايين ومائتي الف فرنك فيها تجتمع التجار مرتين في اليوم للمداولة في الأشغال التجارية المهمة التي تجعل لمرسيليا أهمية كبرى في البلاد كلها. ويوصل بشارع الكانبير الى الميناء القديمة حيث يجتمع فيه الى الآن السفن على اختلاف أنواعها فتأخذ بذلك شكلاً بديعاً يراه الناظر من قصر معروف باسم (قصر الفارو)الذي شيد في عهد نابوليون الثالث وأهدته الامبراطورة (اجيني) للمدينة وتوجد فيه الآن مدرسة الطب بملحقاتها وفيه سلم مشهور يوصل الى البحر .

هـذه هي الآثار التي تمكنا من زيارتها في يوم إقامتنا بمدينة مرسيليا ولم يبق عليّ إلا أن أذكر لكم أمراً أشكو منه كما يشكو كل سائح في فرنسا

وهو إن الانسان لا يأكل طعاماً أو يشرب شراباً أو يركب عربة أو يسترشد عن مكان أو يقضي حاجة بدون أن يعطي مبلغاً معلوماً لمن يتمم له مطلوبه بصفة (بقشيش) (پوربوار) علاوة على الثمن وهي قاعدة مطردة يجب على الاهالي والاجانب اتباعها والأّ عرّض نفسه لهزء الخدام (الجارسون). وفي أغلب الاحيان يكون (البقشيش) معادلاً لثمن المأكول أو المشروب وقصارى القول إن هذه الضريبة ثقيلة أوجبت ضررنا فسخطنا على القوم بقدر ماسررنا من مشاهدة آثار بلادهم.

بعد أن قضينا بمرسيليا يوم وليلة أمس قمنا في الساعة العاشرة والدقيقة ٤٥ من صباح اليوم قاصدين باريس فأخذت تذكرة اليها بمبلغ اثنين وثلاثين فرنكاً ونصف بعد تنزيل خمسين في المائة بصفتي من طلبة علم الحقوق بالمدرسة الفرنساوية فمررنا بمحطة رونياك وميراملس فارل فتاراسا كون فأفينيون ففالنس فليون حيث وصلنا في منتصف الساعة السابعة مساء ومسافة الطريق من مرسيليا الى ليون ٣٥٢ كيلو متراً كنا نرى في خلالها نهير الرين من الجهة اليسرى والمزروعات الناضرة من الجهة اليمنى ولما علمنا أن تذكرة السكة الحديدية تعطي لنا الحق في الاقامة بمدينة ليون مدة ثمانية واربعين ساعة آثرنا الاقامة بها يوماً لمشاهدة آثارها وأبنيتها لانها كما لا يخفاكم مدينة شهيرة تلي باريس في الاهمية وسأسافر منها غداً إن شاء الله الى باريس باكسبريس الساعة السابعة مساء فأصلها في صباح اليوم التالي .

مدينة ليون[١]

عرجت على هذه المدينة كما أخبرتكم في رسالتي السابقة فقضيت بها يوماً لزيارة آثارها ومشاهدة ما اشتهر فيها من المباني وقد كنت أود أن أقيم

(١) نشرت بجريدة مصر بتاريخ ١٩ يوليو سنة ١٨٩٨ بالعدد ٧٤٩ .

بها أكثر من ذلك ولكن وقتي ضيق وأمامي الامتحان وزيارة باريس وضواحيها والعجائب والغرائب التي فيها .

ليون هي المدينة الثانية لفرنسا لانها تلي باريس في التجارة والصناعة والثروة واقعة عند ملتقى نهري السين والرين ويزيد عدد سكانها عن أربعمائة وستة وستين ألف نسمة وبها محكمة استئناف ومجلس للتجارة وأكاديميه وكلية للعلوم وأخرى للآداب ومدارس للطب والحقوق وجملة كنائس فخيمة ومبان شائقة وتماثيل فاخرة ومتاحف للآثار القديمة والتصوير والنقش والتاريخ الطبيعي وغير ذلك من آثار التمدن ودعائم العلم .

ومما يعرف عن هذه المدينة في الزمن السابق أن أوغست امبراطور الرومان الشهير مكث بها ثلاثة سنوات وأنها مسقط رأس الامبراطورين الرومانيين كلود وكاراكلا والأقتصادي الفرنساوي الشهير (چان بابتيست ساي) وهي المدينة التي قتل فيها في ١٤ يونيه سنة ٩٤ سادى كارنو رئيس الجمهورية الفرنساوية

أول أثر أشار عليّ القوم بزيارته فيها كنيسة (نوتردام دي فورفيير) القائمة على تل (فورفيير) بالشاطئ الايمن لنهر السين فركبت باخرة صغيرة تعرف هنا باسم (موش) ونزلت بمحطة (سان جان) ومنها طلعت الى ذلك التل في عربة سكة حديد مخصوصة لهذا الغرض ومنها ركبت مع آخرين عربة اومنيبوس أخذت تنتقل بنا من شارع عال الى شارع أعلى حتى وصلنا الى الكنيسة . ويرى الزائر عند مدخل هذه الكنيسة أربعة أعمدة هائلة يقال إن أولها نقل من المحطة الى التل على عربة يجرها عشرون حصاناً (الحصان هنا يعادل في الجسم ثلاثة من خيول مصر) وباب الدخول من نحاس عليه نقش

عجيب يمثل ما جاء بالعهد القديم من النبوات عن مجيء المسيح. ومن حول الكنيسة أربعة أبراج على كل منها رسم يدل على الاسم المعروف به. فالاول معروف باسم برج العدل وعليه رسم داود النبي وجليات الفلسطيني. والثاني باسم برج القوة وعليه رسم شمشون الجبار. والثالث باسم برج القيصر وعليه رسم ثعبان والرابع باسم برج الاعتدال وعليه رسم حاجز. كل ذلك من خارج الكنيسة أما من داخلها فترى على الجدران والسقف من الرسم العجيب والتصوير الفائق والنقش المتقن ما لا يمكن الكلام عليه بالتفصيل في مثل هذه الرسالة ومن بين هذه الرسومات شكل يمثل ولادة السيد المسيح وآخر هربه لارض مصر .

خرجنا من الكنيسة الى برج بجانبها يعرف في هذه المدينة باسم (الرصدخانة) فقيدت اسمي مع الزائرين بدفتر مخصوص لذلك بثاني دور من ذلك البرج ثم طلعنا بأعلاه حيث وجدنا دائرة عليها رسومات لجميع المباني الشهيرة الموجودة بمدينة ليون كل رسم في هذه الدائرة مقابل للبناء حسب موضعه في المدينة وهناك نظارة كبيرة مركبة على شرائط سكة حديدية هذه الدائرة فاذا أراد الزائر أن يشاهد أي أثر أو بناء بالمدينة ما عليه إلا أن يقرأ موضوعه في الرسم ويوجه النظارة في الجهة المقابلة له فيراه مرأى العين فتمتعنا قليلاً بهذا المنظر الجميل ورأينا من هناك مدينة ليون بكامل اجزائها ثم نزلنا وخرجنا من هذه الكنيسة الى ممر معروف باسم (جى) دفع كل منا رسم مروره خمسة سنتيم . رأينا بهذا الممر أثاراً لمدينة رومانية كانت مقامة على جبل (فورفير) ومن هذه الآثار ثلاثة أحجار رحى ومن تحتها لوحة عليها هذه العبارة (لم يكن لقدماء المصريين والاسرائيليين والرومانيين معرفة

بطواحين الهواء والماء ولذا كانوا يستخدمون العبيد وأسرى الحرب في ادارة الرحى لطحن الحبوب) . ومن الآثار التي تستحق الذكر بهذا الممر آثار أخرى يطول الكلام عليها .

توجهت بعد ذلك لزيارة سراي الحقانية وهي من أشهر المباني بليون واقعة على الشاطئ الايمن لنهر السين وبمدخلها ٢٤ عاموداً من الرخام الغامق

دخلت بالساحة العمومية وبعد قليل قدم اليّ ملاحظ السراي فرفع قبعته ثم قال « أظنك يا جناب الخواجه غريباً عن هذه البلاد » . قلت نعم . قال وهل تريد زيارة غرف هذه السراي. قلت هذا هو الغرض من حضوري فسار أمامي وتبعته الى الدور الأعلى ننتقل من غرفة لأخرى حتى وصلنا الى اودة بجهة السجن تلوح عليها علامات الكآبة فقال لي هذه هي الغرفة التي سجن فيها كازيربو ذلك الفوضوي الشقي الذي أقدم على قتل سادى كارنو رئيس الجمهورية في سنة ١٨٩٤ ثم نزلنا الى الدور الأول فصادفنا المسيو برياك رئيس الاستئناف فقال لي ملاحظ السراي وهذا هو القاضي الذي حكم على ذلك الفوضوي ثم دخلنا بجلسة الجنح فرأيت في صدرها رسم المسيح مصلوباً وجلسة المدني حيث حضرت مرافعة لاثنين من أشهر محامي ليون أحدهما جاكيه والآخر فاتني ذكر إسمه فكنت اسمع من عبارات هذين المحامين ما يطرب ويعجب بحيث اذا سمعت الأول ونظرت الى الحجج والبراهين التي يأتي بها اعتقدت ان الصدق بجانبه ولكنك لا تلبث ان تسمع براهين الثاني حتى تغير هذا الاعتقاد دليل سعة الاطلاع وبلاغة الكلام ولما كانت عندئذٍ الساعة واحدة ونصف بعد الظهر اضطررت لمبارحة السراي وأنا آسف لعدم امكاني البقاء لسماع بقية هذه المرافعة البليغة فجاءني ملاحظ

السراي فشكرته على حدمته وعدت الى الفندق حيث تناولت طعام الغذاء

وفي الساعة الرابعة بعد الظهر توجهت لمشاهدة حديقة رأس الذهب وهي حديقة واسعة فيها من أنواع النباتات والحيوانات ما لا يقع تحت حصر وبها من الطرقات المنظمة والتماثيل الفاخرة ما لا ترى منه شيئاً مثلاً بحديقة الازبكية التي يسعى بعضهم في تحويلها الى مخازن تجارية وحوانيت للبيع والشراء . رأيت عند مدخل هذه الحديقة (رأس الذهب) أثراً جميلا يقال له (أثر أولاد نهر الرين) أقيم لذكر أبناء البلاد الذين ماتوا في حرب سنة ٧٠ وبعد أن طفت أغلب طرقات هذه الحديقة عدت للمدينة فمررت بساحة بيلكون وهي من اشهر ساحات اوربا ومنتزه اهالي ليون بوسطها تمثال كبير للويس الرابع عشر ملك فرنسا الشهير

هذا ما ساعدني وقتي القصير على مشاهدته بهذه المدينة العظيمة ولكن هناك اماكن اخرى تستحق الزياره اخص بالذكر منها معامل الحرير التي اكسبت ليون شهرة عظيمة في جميع انحاء الارض

وقصاري القول اني استفدت كثيراً باقامتي هذا اليوم في ليون حيث رأيت من الاثار والمباني والتماثيل ما لم يره اغلب المصريين الذين جاءوا الى هذه البلاد. ولما جاء وقت قيام القطار بارحت هذه المدينة الى باريس في منتصف الساعة الثامنة من صباح امس وبعد أن استرحت قليلاً بالفندق توجهت تواً الى كلية باريس حيث قابلت ناظر المدرسة الفرنساوية بالقاهرة ودفعت رسم الامتحان وحدد لي يوم ١٩ الجاري لأدائه فاطلبوا لي النجاح والسلام.

باريس فى ١٠ يوليه سنة ١٨٩٨

باريس (١)

في ٢٧ يوليه سنة ١٨٩٨

وصلت الى هذه المدينة العظيمة في صباح يوم ٩ الجاري كما أخبرتكم في رسالتي السابقة وقد آثرت الأقامة بشارع (سان ميشيل) لأكون على مقربة من كلية الحقوق وجهتي في هذه الرحلة فقصدتها بعد ظهر ذلك اليوم حيث قيدت اسمي ضمن الطلبة الراغبين في الأمتحان وفي اليوم الثاني ورد لي خطاب من سكرتير الكلية يدعوني فيه للحضور في يوم ٢٠ من هذا الشهر لاداء الامتحان فعولت من ذلك الحين على اعادة الدرس وتكرار المواد ولم يأت الموعد حتى كنت على استعداد ففزت بنجاح تام والحمد لله

وريثما استرحت من عناء الدرس تاقت نفسي لزيارة آثار باريس ومتاحفها الفاخرة وحدائقها الغناء ورياضها الناضرة وغاباتها الشهيرة وساحاتها الكبيرة وبالجملة كل ما يستحق النظر وتحسن مشاهدته في هذه المدينة الفخيمة ولكن لعلمي أن مدة اقامتي فيها قصيرة لا تسمح لي بزيارة كل تلك الأماكن اكتفيت بزيارة الأهم منها تاركاً البقية للسنة المقبلة ان شاء الله

فزرت متحف (اللوفر) الفاخر ومتحف (جريفان) العجيب وبرج الفيل الشاهق وسراي (الانفاليد) وفيها مقبرة نابوليون الأول ثم متحف (كليني) وغابة (بولوني) الشهيرة وفيها حديقة الحيوانات ومتحف وحديقة لكسمبرج وزرت بضواحي باريس متحف (فرساي) وحديقتها الغناء وحديقة (سان كلو) وخرير المياه فيها وغير ذلك مما أفادني كثيراً وأعجبني

(١) نشرت بجريدة مصر بالعدد ٧٦٤ بتاريخ ٥ اغسطس سنة ١٨٩٨

جداً وأدهشني طويلاً فعظمت في عيني منزلة أولئك القوم وعرفت درجة تمدنهم وغبطتهم على هذه النعم وتمنيت لو كان لأهل مصر مثل هذا الحظ ولكن أنى يبلغ المصري شأو الاوروبي أو أنى يبلغ الضالع شأو الضليع

عرفت عن المتاحف التي زرتها والآثار التي شاهدتها شيئاً كثيراً أذكره لكم في رسالة لاحقة أما الآن فاؤثر أن أوافيكم بما عرفته عن نظام هذه المدينة بوجه عام وانتشار العلم فيها وأخلاق وطباع أهاليها حتى إذا انتهيت من هذه النظرة العمومية عدت الى ذكر الآثار ووصف الحدائق والمتاحف وما رأيته فيها من العجائب الغرائب .

تمتد هذه المدينة العظيمة من الشمال الى الجنوب على مسافة ثمانية كيلومتر وثلثمائة ثلاثة وثلاثين متراً ومن الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي على مسافة احد عشر كيلومتراً وثمانمائة متر وتبلغ دائرتها العمومية ثلاثة وثلاثين كيلومتراً. يزيد عدد سكانها عن مليون وثلثمائة وأربعة واربعين نسمة فهي من هذه الوجهة أقل أهمية من مدينة لوندره. وتنقسم باريس من حيث الادارة الى عشرين قسماً يشمل كل منها أربعة أحياء لكل منها نائب في المجلس البلدي الذي له حق النظر في جميع المسائل المختصة بالمدينة فيصدر قرارات عنها ويكلف مدير أقليم السين (الداخلة فى دائرته مدينة باريس) وضابط البوليس بها بتنفيذ تلك القرارات كل فيما يخصه. ومدير أقليم السين هو بمثابة المحافظ العمومي للمدينة وجميع اختصاصاته ادارية أهمها ادارة مالية باريس ورئاسة الانتخابات وملاحظة الاشغال العمومية وإدارة أملاك المدينة وتسوية قضاياها وإدارة التعليم والجمعيات الخيرية والتنظيم والنور ومصلحة الدخولية وغير ذلك

أما ضابط البوليس بباريس فهو ضابط قضائي يدير مصالح الأمن العام والصحة والسجون والعربات العمومية والاسواق وما شاكل ذلك وهو كمدير اقليم السين تابع مباشرة لناظر الداخلية

وفي كل قسم من أقسام باريس محافظ (مير) يعاونه في أعماله أربعة أو خمسة وكلاء بحسب أهمية القسم وتحصر اختصاصات هذا المحافظ في قيد المولودين واحصاء الوفيات ونشر أوراق الزواج واستدعاء الشبان الذين بلغوا سن القرعة وملاحظة تنفيذ لائحة التعليم الابتدائي وما أشبه ذلك . ثم توجد في كل قسم فرقة من رجال البوليس لملاحظة الأمن العام من واجباتهم ارشاد العموم في الطرق والمسالك اذا طلب منهم ذلك فافادونا كثيراً من هذا القبيل ولقينا منهم دائماً أدباً زائداً ومكارم أخلاق يحمدون عليها . هذا ولكل قسم قاض للمصالحات يفصل فى المنازعات بين الافراد لدرجة معلومة .

أما موارد المال بمدينة باريس فأهمها عوائد الدخولية حيث تبلغ ايراداتها خمسة ملايين من الجنيهات ونصف مليون في السنة (٠٠٠ ٧٣٣ ١٣٧ فرنك) وتليها رسوم العربات ودفن الموتى ورسوم الأسواق والسلخانات ورسوم أخرى متنوعة بما يبلغ مجموعه ١١ مليون جنيه ونصف (٠٠٠ ٠٠٠ ٣٠٣ فرنك) نعم إن مثل هذه الرسوم حمل ثقيل على عاتق الأهالي ولكنها ضرورية لمثل هذه المدينة التي تستلزم نفقات طائلة لنشر التعليم على العموم ونظافة الشوارع ورشها وانارتها ومد مواسير المياه فيها واقامة تلك المباني العظيمة والتماثيل العديدة في جميع المدينة تخليداً لذكر الافاضل من أبناء البلاد خصوصاً لو عرفنا أن في باريس ٦٣٠٠ شارع يوصلها ببعضها ٢٧ قنطرة على نهر السين. وأنه يوجد

بكل حي من أحياء المدينـة حدائق للرياضة على جانب عظيم من النظام والترتيب وأن مدينة باريس تنفق على التعليم المجاني بالمدارس الابتدائية فقط ثلاثة وعشرين مليون فرنك إذ يوجد فيها ١٢٨ مكتباً تديرها سيدات مهذبات يلقن الاطفال (من سن ٢ الى سن ٦) بعض المعارف الأولية مشافهة مع شيء من الـكتابة والقراءة والحساب ومتى بلغ التلميذ السادسة من عمره نقل الى المدارس الابتدائية وعددها بباريس ٣٦٢ فيها التعليم الزامي ثم تلي هذه المدارس مدارس ابتدائية عالية يمكن للتلميذ أن يقوي فيها معارفه ويؤهل نفسه للدخول بالمدارس الثانوية وتوجد بكل مدرسة ابتدائية مكتبة بها مؤلفات تناسب درجة معرفة تلامذة تلك المدارس ولـكل منها أيضاً قسم ليلي. هذا بخلاف ما يوجد بباريس من المدارس الخصوصية التي تقوم بنفقاتها بعض الجمعيات أو الطوائف الدينية. ولما كانت هذه حالة انتشار التعليم المجاني بمدينة باريس فلا غرابة إذا رأينا الحـكومة مضطرة لتحصيل تلك الضرائب لانها تنفقها في أوجه النفع العام وأهمها التعليم الابتدائي بالصفة التي ذكرناها. ولا عجب إذا رأينا الباريسيين رجال علم وفضل يقدرون المعارف حق قدرها. وللمدرسين هنا منزلة عظمى وشأن كبير يكفي أن تقول إن كثيرين منهم خصوصاً اساتذة المدارس العالية كمستشاري الاستئناف عندنا غير قابلين للعزل وجملة منهم أعضاء في مجلس النواب فتأمل.

أما الشوارع ونظافتها والحدائق العديدة ونظامها وترتيبها ووسائط النقل وسهولتها فحدث عنها ولا حرج ولـكن الذي يدهش في هذه المدينة ويستلفت أنظار الاجنبي عند تجوله في تلك الشوارع الطويلة العريضة زخرفة مخازن التجارة (وفي مقدمتها «البون مارشيه» الذي سأفرد له مقالة) والحانات والقهاوي

والملاهي على اختلاف انواعها فلا يخطو الغريب خطوة إلاّ ويرى شيئاً يستوقفه ويبهر أبصاره خصوصاً اثناء الليل حيث تتلألأ الانوار الكهربائية وتجتمع الناس من الرجال والسيدات بتلك الملابس الفاخرة وذلك الجمال المفرط وما كانت أجملها نظرة يوم ١٤ يوليه في ساحة الكونكورد الشهيرة وشارع (الشان ايليزيه) البديع وجميع شوارع المدينة على وجه العموم فرح عام وخلاعة زائدة وشيء عجيب يفوق الوصف

بقي عليّ أن أذكر لكم في هذه النظرة العمومية شيئاً عن الاحوال المميزة بباريس والباريسيين .

اشتهرت باريس دون مدن أوروبا بالزهو واللهو واشتهر أهاليها بحب الجميل والميل الى الشكل الظريف فتراهم يتأنقون في الملبس ويبالغون في الزينة والتبهرج ويخترعون من الازياء ما يدل على رقتهم وسلامة ذوقهم حتى صارت باريس مهبط أسرار (المودة) تجدد فيها الاشكال في كل يوم وتتنوع فيها الازياء من حين الى حين وقد أصبحت نساؤها بأقرار الكل أصحاب الذوق السليم يقتدى بهنّ نساء البلاد الاخرى في الملبس والزينة

ويمتاز الباريسيون عن غيرهم من أهالي مدن أوروبا بالرقة وكرم الاخلاق لدرجة يستحقون عليها الثناء غير أنهم يكثرون في حديثهم من عبارات الهزؤ والتنكيت ولكن ليس على طريقة الاخذ والرد المعروفة في القاهرة بلفظة (اشمعنا) . ولهم ولع زائد بالموسيقى على اختلاف نغماتها فلا يفترون يوماً عن التوجه الى التياترات ولا تفوتهم لحظة من أوقات الفراغ بلا طرب ولهو

وسيئات باريس موجودة فيها كما توجد في غيرها من عواصم البلاد المتمدنة ولكنها تغتفر لهذه المدينة في جانب حسناتها العديدة . كيف لا وبها

مراكز العلم والفلسفة والمتاحف الفاخرة والمكاتب المفيدة والآثار العجيبة والجمعيات الخيرية وغير ذلك مما يدل على تمدن القوم وارتقائهم الفائق في العلوم والمعارف .

أكتب اليكم هذه الرسالة وأنا على أهبة السفر إلى جينيف لاقضي بها اسبوعاً وربما أرسلت لكم باقي رسائلي عن باريس والسلام

آثار باريس ومتاحفها (١)

إن لم يكن في باريس من معدات العلم ووسائط التهذيب غير المدارس التي ذكرت لكم شيئاً عنها في رسالتي السابقة فكفى بها لارتقاء أبناء الفرنساويين أوج المعالى ولكن فى المدينة من المكاتب والمتاحف مايسهل للطلبة استيفاء علومهم وترقية معارفهم وتقوية الاحساسات الملية عندهم يزيد في أهميتها أنها تفتح أبوابها مجاناً لزيارة العموم فتكثر فائدتها ويعم نفعها وهذا شأن البلاد المتمدنة .

ومدينة باريس تمتاز عن غيرها من عواصم أوروبا من هذه الجهة لانها تهتم كثيراً بحفظ آثار البلاد وتنفق أموالاً طائلة على متاحفها وتعتني بها مزيد الاعتناء فلا غروَ إذا سمعنا أن متاحف باريس أفخر متاحف العالم ولا عجب إذا كان الفرنساويون يفخرون بها ويعجبون.

تمكنت مدة إقامتي في هذه العاصمة الفخيمة من زيارة أهم تلك المتاحف فرأيت فيها من الأشياء النفيسة والأثاث الفاخرة والصور العجيبة والأشغال الغريبة والرسم البديع والتماثيل المتقنة الصنع مايدهش العقول

(١) نشرت بمصر في ١١ أغسطس سنة ١٨٩٨ بالعدد ٧٦٩

ويبهر الأبصار . ولما كانت هذه المتاحف متسعة اتساعاً عظيما وفيها من التحف والآثار مالا يقع تحت حصر اضطرني ضيق الوقت كما تعلمون لزيارتها زيارة سطحية ولكني على أي حال لو أردت أن أذكر لكم كل ما شاهدته من الأشياء المتنوعة لصرفت بقية أيام أجازتي في التسطير والتحبير فتفوتني زيارة مدينة جينيف وضواحيها الجميلة وأحرم بذلك من لذة التريض في هذه البلاد والتمتع بمناظرها العجيبة وهذا أمر أظنكم لا ترضونه فاعذروني اذا ذكرت لكم بالاجمال ماشاهدته في باريس من الآثار .

(متحف اللوفر) أول شيء أشار عليّ القوم بزيارته هذا المتحف الشهير فتوجهت يوم ٢٢ يوليه الماضي مع بعض الاصدقاء الى سراي اللوفر حيث يوجد ذلك المتحف الفاخر . يرى الزائر في رحبة هذه السراي أينما يقلب الطرف تماثيل بديعة لاشهر الرجال في القرون السابقة والحاضرة أذكر منها غامبيتا القائم في وسط هذه الرحبة . وقفنا قليلاً نشخص لتلك التماثيل القائمة حول جدران السراي ونعجب لاتقان صنعها وتنوع أشكالها ثم رأينا أن وقت زيارة المتحف قد حان فدخلناه وأخذنا نطوف غرفه والعقل منا في انذهال من تأثير تلك المناظر الجميلة : تماثيل جسيمة وصور غريبة لأشهر المصورين (روفائيل وميشيل انج) ورسومات بديعة على الجدران والسقوف ونقش عجيب يمثل بعض الحوادث التاريخية وأثاث فاخر من آثار الملوك والامراء السابقين ومصوغات ثمينة تبهر الابصار وآثار قديمة للمصريين والاشوريين واليونان والرومان وأمم القرون الوسطى والأعصر الخالية وغير ذلك مما يدهش العقل ولا يقع تحت حصر . قضينا بهذه الزيارة مايزيد عن ثلاث ساعات ونحن ننتقل من غرفة الى أخرى ولا نكاد نخلص من اندهاش حتى

نقع في أعظم منه ولم يضطرنا الى الخروج إلا شـدة التعب من طول السير وكثرة الوقوف أمام تلك الآثار العظيمة وما خرجنا من باب غير الذي دخلنا منه حتى عرفنا أننا لم نر في هذه الزيارة الطويلة غير جناح واحـد من ذلك المتحف الـكبير فعولنا حينئذ على العودة الى الدخول لزيارة بقية الاجنحة ولـكن التعب حال دون ذلك فبرحنا السراي على عزم الرجوع اليها في يوم آخر فلم يتم لنا ذلك لسوء الحظ نظراً الى ضيق الوقت ورغبتنا في زيارة الآثار والمتاحف الاخرى .

(سراي الأنفاليد) توجهنا في يوم ٢٢ الماضي لزيارة هـذه السراي وهي من أهم الآثار في مدينة باريس بنيت في عهد لويس الرابع في سنة ١٦٧٥ وفيها الآن جملة آلات حربية تذكر الفرنساويين بالوقائع الشهيرة التي انتصر فيها قوادهم. وفيها كنيسة يرى الزائر البيارق معلقة حول جدرانها والاعلام التي أخذتها الجيوش الفرنساوية من الأعداء من يوم ان تأسست لهم جمهورية الى وقتناهذا . وتحت هذه الـكنيسة مدفن لأهم القواد الفرنساويين وأعظم رجال حربيتهم ولـكن الذي يستحق الزيارة في هذه السراي بنوع خاص مقبرة نابوليون الاول ذلك البطل الشهير الذي يحق للفرنساويين الفخر به لما له على بلادهم من الأيادي البيضاء وله فيها من الآثار الجليلة . ويعلم القارىء أن هـذا الامبراطور قضى في جزيرة القديسة هيـلانة منفاه الثاني وينبىء التاريخ أيضاً بأنه ترك قبل وفاته هذه الوصية : « أتمنى أن تستريح عظامي على شواطىء نهر السين في وسط الأمة الفرنساوية التي كان حبي لها عظيماً» مات نابوليون ودفن في الجزيرة المذكورة ولـكن الفرنساويين لم يهملوا أمر وصيته فتـداول مجلس نوابهم في سنة ١٨٤٠ بهذا الشأن وقرر اتمام هـذه

الوصية. فاهتمت الحكومة ببناء قبر لائق لهذا البطل الذي سما اسمه في تاريخ فرنسا فشيد على أحسن نظام وأجمل بناء ونقلت اليه بقايا نابوليون سنة ١٨٦١ في عهد نابوليون الثالث. فصار من ذلك الحين من أهم الآثار التي يبالغ الفرنساويون في احترامها ويكثرون من زيارتها. يدخل الزائر الى هذا البناء الفخيم بكل خشوع واحترام فيودع عصاه أو شمسيته عند الباب ويخلع قبعته ثم يجول حول القبر بكل هدو وسكينة إكراماً لبقايا ذلك البطل الجليل. ويستمر على هذه الحالة كل مدة زيارته والا لقى من الحراس من الملاحظات مايدعوه الى النظام. فعلنا الواجب ودخلنا في هذا البناء فرأينا في قلبه دائرة من أعمدة قصيرة من الرخام الابيض يتوكأ عليها الزائر فيرى على انخفاض مترين الصندوق المودعة فيه بقايا الامبراطور وفي أسفله رسم أشعة مكتوبة حواليها أسماء الوقائع الشهيرة التي انتصر فيها نابوليون وهي ريفولي وإهرام مصر ومارانجو واسترليتس وأينا وفريدلاند وواجرام وموسكوفا. ينتهي الزائر من مشاهدة هذا الأثر ثم يرى أمامه مذبحاً بكل طرف منه عامودان من الرخام الملون العجيب وهذا المذبح مخصص للاحتفالات الكبيرة وله باب من النحاس منقوشة فوقه عبارة وصية نابوليون التي سبق ذكرها وفي جوانب هذا البناء نقوشات بارزة تمثل الاصلاحات العظيمة التي أدخلها الى البلاد وقصارى القول إن هذا القبر من أهم الآثار التي يجب زيارتها في باريس.

(نوتردام دي باري) هي أقدم وأهم كنيسة في باريس يبلغ اتساع وجهتها ٤٠ متراً وطولها من الداخل ١٣٠ وعرضها ٤٨ وارتفاعها ٦٨ متراً. بعد أن زرناهذه الكنيسة العظيمة وشاهدنا مافيها من النقش البديع والرسومات العجيبة قيل لنا إن فيها كنزاً يستحق الزيارة فدخلنا اليه مع آخرين وهناك

أخذ حارس هذا الكنز يفتح دواليبه ويرينا فيها من الأواني الذهبية والملابس المزركشة والصلبان المرصعة والتيجان المغطاة بالالماس والياقوت والاحجار الكريمة ما لا تقدر قيمته . كل هـذه الحلي من الهدايا التي قدمتها الملوك والأمراء الى هذه الكنيسة في الأزمنة السابقة كان يريها لنا الحارس ويذكر لنا تاريخ كل منها واسم الملك الذي أهداها فخرجنا من مستودع هذه الجواهر واعتقدنا صحة اسم هذا الكنز لما يحتوي من النفائس والدرر .

(البانثيون) يرى الزائر على وجهة هـذا البناء العبارة الآتية مكتوبة بأحرف مذهبة « الوطن يعترف بفضل كبار الرجال » ومن حوالي هـذه الكتابة يشاهد نقشاً يمثل الوطن مصحوباً بالحرية والتاريخ فالوطن واقف يوزع الاكاليل على كبار الرجال والحرية جالسة عند قدميه تجهز أكاليل أخرى والتاريخ يسطر أسماء الرجال الافاضل لتخليد ذكرهم في بطونه وفي زاوية هذه الوجهة رسم يمثل جملة شبان مكبين على العمل ليحوزوا يوماً الشرف والمجد اللذين يعترف بهما الوطن لاصحاب الجدارة والاستحقاق . أما من داخل هذا البناء فيرى الزائر رحبة متسعة وعلى جدرانها من الجانبين صور تمثل جملة حوادث دينية يطول شرحها وفي هذا البناء أيضاً تماثيل لجملة من القديسين ولـكن هذا الاثر مشهور بنوع أخص كمدفن لا كابر رجال الفرنساويين حيث يوجد فيه مقبرة لكل شهير منهم. ينزل اليها الزائر بسلم فيرى على اليمين مقبرة «فيكتورهيجو» الشاعر الشهير الذي توفي سنة ١٨٨٢ (ومقـبرة چان جاك روسو) وعليها هـذه الكتابة (هنا رجل الطبيعة والحقيقه) ويرى في الجهة اليسرى مقـبرة (سوفلو) مهندس البانثيون ومقبرة (فولتير) وفي ذكر إسمه ما يغني عن التعريف ومقبرة (سادي كارنو)

رئيس الجمهورية الذي قتل في مدينة ليون في سنة ١٨٩٤ وغيرهم من رجال الفرنساويين . وكل ذلك مما يشجع أبناء البلاد على الجد والاجتهاد لكسب الشرف والمجد حتى يعدوا في مصاف أولئك الرجال العظام .

(تور ايفيل) هو ذلك البرج الشاهق الذي فكر في بنائه المسيو جستاف ايفيل المهندس الفرنساوي الشهير بمناسبة معرض باريس سنة ١٨٨٩ يصعد الزائر الى هذا البرج الذي يبلغ ارتفاعه ثلثمائة متر بطريقتين احداهما بسلم تبلغ درجاته ١٧١٠ والأخرى بآلة الصعود المعروفة باسم «أسانسير» ويفضل الزائرون دائماً الطريقة الثانية لما يجدونه فيها من الراحة . رأينا في الدور الاول من ذلك البرج محال للأكل والشرب وتياترو وقهوة وفيه طرقات واسعة يمشي فيها الانسان من العرض للطول بكل راحة وبالدور الثاني محل بيره ومحل تصوير وجملة حوانيت تباع فيها أشياء للزائرين بصفة تذكار من هذا البرج الشهير وبالدور الثالث دكاكين صغيرة ومحل لمبيع المشروبات ومن هذا الدور تتمثل باريس وضواحيها أمام الزائر بشكل غريب ومنظر عجيب ولهذا البرج ادارة مخصوصة وفيه صناديق للمراسلات ونظارات كبيرة تقرب البعيد وتكبر الصغير وغير ذلك من المعدات التي تزيد في أهميته .

(متحف جريفان) ما أعجب وأغرب ما رأيته بهذا المتحف الكائن بشارع (مونمارتر) يشاهد فيه الزائر جملة تماثيل لرجال العصر أذكر منها تمثال المسيو فيلكس فور والمسيو هانوتو والبابا ليون الثالث عشر مع رجال الفاتيكان والدكتور نانسن رحالة القطب الشمالي و « ساره برنار » المشخصة

الشهيرة وكلهم بأشكالهم وملابسهم الحقيقية بحيث يخال للانسان انه بحضرة أولئك الرجال بعضهم واقف والبعض الآخر جالس ومن غريب ما حصل في هذا المتحف ان أجنبياً زاره يوماً مع قرينته فجلست على مقعد بجانب أحد هذه التماثيل ثم أراد زوجها أن يجلس بجانبها ولتصوره ان التمثال شخص حقيقي طلب منه أن يتزحزح قليلاً من مكانه ليمكنه من الجلوس بجانب قرينته ووقف حيناً ينتظر التصريح بذلك ولما لم ير حراكاً لذلك الجالس استدرك الامر فخجل وضحك منه الزائرون كثيراً .

ثم انه يوجد في هذا المتحف جملة غرف تمثل بعض الحوادث التاريخية أهمها « أولاً » الثورة الفرنساوية وما حصل فيها للويس السادس عشر وماري انتوانيت « ثانياً » تاريخ حادثة قتل بكل الادوار التي تقلبت عليها ومنظرها محزن مؤثر في النفس « ثالثاً » تتويج القيصر الحالي بحضور نواب الدول بملابسهم الحقيقية وهيأتهم الأصلية « رابعاً » قتل رجل بالكهربائية في مدينة نيويورك « خامساً » ذبح الآدميين في داهومى « سادساً » أحد شوارع القاهرة وأظنه شارع كلوت بك بخماراته وقهاويه البلدية وحوانيته المعروفة

(حديقة النباتات) زرت هذه الحديقة فرأيت فيها من أنواع الطيور والاسماك والدواب والوحوش ما لم تره عيني من قبل أخص بالذكر منها حوتاً يبلغ طوله أربعة عشر متراً وفي تلك الحديقة من الأزهار المختلفة الألوان والنباتات العديدة والطرقات الواسعة المنظمة مع النظافة التامة ما يجعل لهذه الحديقة المحل الاول في موضوعها بمدينة باريس . هذه هي أهم الآثار والمتاحف التي زرتها ويليها من الاهمية مما شاهدته سراي « التروكاديرو » وفيها متحف للنقش به تماثيل عجيبة وبعض آثار قديمة من

ضمنها شيخ البلد بمصر ومتحف « كليني » وبه من الاسرة الفاخرة والاواني الجميلة والدواليب والمقاعد البديعة الصنع ما يطول شرحه ثم حديقة ومتحف وسراي لكسمبرج حيث يعقد مجلس الشيوخ جلساته .

أما في ضواحي باريس فأذكر لكم قبل كل شيء غابة « بولونيا » الشهيرة وهي أجمل منتزه للباريسيين قصدتها ذات يوم مع رفيق لي فرأيت فيها الناس مئات وألوفاً يجولون في طرقاتها الرحبة ويمتعون الطرف بمناظرها العجيبة فشاطرناهم هذه الملذات وقضينا في تلك الغابة أربع ساعات مرت ولم أشعر بها لاشتغالي بتلك المناظر التي تملأ العينين نوراً والقلب سروراً وقد زرنا في هذه الأثناء حديقة الحيوانات في هذه الغابة والغرض من تأسيسها استنتاج أنواع الحيوان والنبات سواء كان من الأنواع الموجودة بفرنسا أو البلاد الاجنبية فائدة للعلم وذويه .

ومن المنتزهات التي تستحق الزيارة بضواحي باريس حديقة «سان كلو» توجهت اليها مع بعض اخواني المصريين في يوم واحد على احدى بواخر نهر السين فوجدناها مزدحمة بالناس فوقفنا قليلاً نمتع الطرف بمشاهدة انحدار المياه من أعلى الصخر بهذه الحديقة ثم طلعنا اليها بطرقات منحدرة وأخذنا ننتقل من الواحدة الى الاخرى حتى صرنا على ارتفاع عظيم منها وهناك تجلت أمامنا الحديقة بجميل مناظرها ونظامها فقضينا بها ساعات ثم نزلنا وعدنا الى باريس وكان ذلك قبل قيامي الى چينيف بيوم واحد فعقدت النية على صرفه بمدينة « فرساي » لزيارة قصرها البديع وحديقتها الشهيرة .

سافرت من باريس الى تلك المدينة في يوم ٢٦ الماضي بقطار سكة الحديد وريثما وصلت اليها توجهت تواً لزيارة ذلك القصر الفخيم . بني ذلك

القصر في عهد لويس الرابع عشر وأقام به جملة من ملوك فرنسا بعده وفي عهد لويس فيليب تحول الى متحف رأينا فيه بعض الغرف الملوكية بأثاثها الفاخر ورسمها البديع ومن ضمنها صالون يبلغ طوله ٨٣ متراً وشاهدنا بأغلب الغرف صوراً عجيبة تمثل جملة وقائع وحوادث مهمة في تاريخ فرنسا يطول شرحها ولما فرغنا من زيارة ذلك المتحف الجميل نزلنا منه الى الحديقة المتصلة به فرأينا فيها جملة تماثيل وحياض ماء وفي أحد أطراف هذه الحديقة المتسعة الارجاء ايوانان أحدهما كبير والآخر صغير معروفان باسم «تريانون» كانا مخصصين لاستراحة الملك أثناء تريضه بالحديقة وقد شاهدنا بجانب أحدهما محل حفظ العربات الملوكية ومن ضمنها العربة التي أعدت لجلالة القيصر يوم زيارته لباريس ويقال إن مجموع ما أنفق على قصر « فرساي » وحديقتها يزيد عن مليون جنيه ولا بدع فهذه الحديقة وذلك القصر أجمل مايرى هنالك واني أشير على جميع اخواني الذين يسعدهم الحظ بالسفر الى هذه البلاد أن لايقصروا في زيارتهما .

هذه رسالتي عن الآثار والمتاحف التي شاهدتها في باريس وضواحيها أكتبها اليكم من «فرسوا» وهي قرية جميلة جيدة الهواء واقعة على شاطئ بحيرة «ليمان» بالقرب من چينيف آثرت الاقامة فيها بعد أن قضيت يومين في هذه المدينة وطفت حول تلك البحيرة بجهات لم يخلق الله أحسن منظراً منها وسأقوم غداً الى « تورين » بايطاليا لحضور المعرض المقام فيها الآن وأبرحها الى ميلانو ففينيز في يوم ٦ الجاري وسأبحر منها في صباح يوم ٨ منه الى الاسكندرية فاصلها في يوم ١٣ ان شاء الله .

چينيف وضواحيها (١)

وأجمل المناظر فيها

ما فرغت من زيارة آثار باريس وأهم المتاحف فيها حتى شعرت بميل في النفس الى الراحة في بلدة تقل فيها الغاغة ويهدأ البال ويطيب المقام فحدا بي الشوق الى مشاهدة مناظر سويسرا لزيارة هذه البلاد التي اشتهرت بجودة الهواء واعتدال المناخ فبارحت باريس على عجل في مساء يوم ٢٧ يوليو الماضي قاصداً مدينة چينيف عن طريق ليون فوصلتها في منتصف الساعة التاسعة من بعد ظهر اليوم التالي ونزلت في أحد فنادقها فوجدت فيها من وسائل الراحة والنظام مالم أره في باريس على كبير شهرتها غير أن ضيق وقتي لم يمكني من الاقامة في هذه البلاد الجميلة أكثر من أسبوع واحد قضيته في التنقل بين چينيف وضواحيها فكان أحسن أسبوع في أيام حياتي رأيت في خلاله من المناظر البديعة مالم تره عيني من قبل ـ الماء والخضرة وضف اليهما آداب اهالي البلاد وكرم أخلاقهم وحسن معاملتهم للغريب واستعدادهم لخدمته وعمل كل ما يرضيه ويسر خاطره مما يحبب الناس فيهم ويدعوهم الى الاقامة طويلاً في بلادهم فلا تعجب اذا قلت أن المدة التي أقمتها بتلك البقعة الجميلة مرت ولم أشعر بها لفرط مالقيتــه فيها من السرور والابتهاج . مقام جميل ليس له مثيل في جميع انحاء العالم .

وأقول ماأقول وأنا على علم بأني مهما أطنبت في جمال هذه البلاد لاأوفيها حقها من مدح ولذا أفضل أن أترك ذلك الآن وأتقدم لذكر ماعرفته عن

---

(١) نشرت بجريدة مصر بتاريخ ١٧ اغسطس سنة ١٨٩٨ بالعدد ٨٧٣

جينيف وما شاهدته على ضفتي بحيرتها من المناظر لاني أجد لذة في الكلام عليها

كانت جينيف جمهورية صغيرة تابعة للحكومة الفرنساوية حتى سنة ١٨١٥ حيث قرر مؤتمر فينا ادخالها ضمن التحالف السويسي فتم لها من ذلك الحين الاستقلال وسن لها دستور مخصوص سارت عليه الى سنة ١٨٤٦ ثم استبدل بآخر على أثر هياج الاهالي ضد الرؤساء الذين كانوا قابضين إذ ذاك على زمام الاحكام ولهذا الدستور الاخير المتبع الى وقتنا هذا مبادئ معلومة لا تناسب غير سويسرا وأهاليها لتنور عامتهم قبل خاصتهم ولرغبة الكل في الاشتراك في حكومة البلاد فلا يُسن لهم قانون أو تربط ضريبة الاّ باقرار الافراد في اجتماعيات عمومية تعقد لهذا الغرض كلما مست الحاجة .

والذي ينظر في شوارع جينيف المتسعة ومبانيها الفخمة وفنادقها العديدة يتصور أنها من المدن الكبيرة المزدحمة بالسكان على أن عدد أهاليها لا تزيد عن خمسة وتسعين الف نسمة ولذا تراها هادئة يلذ فيها التعيش ويطيب فيها المقام خصوصاً لأنها واقعة على الطرف الجنوبي من بحيرة ليمان الشهيرة والجبال تحيط بها وتلك البحيرة تزيد في جمالها

أما اهتمام حكومة هذه البلاد بأمر التعليم ونشر المعارف على عموم الاهالي فحدث عنه ولا حرج .فقد اشتهرت مدارس هذه البلاد بالنظام واستعمال أحسن طرق التعليم فصارت بشهادة الكل من أهم مراكز التربية يقصدها طلبة العلم من جميع البلاد ولا غرو في ذلك فحكومة سويسرا تنفق على التعليم اكثر من ربع دخلها وهو أمر لا نراه في غيرها من البلاد المتمدنة وكفى به أعظم دليل على اهتمامها بنشر المعارف على أبنائها وايرادهم موارد العز والرفاهية كما هو حالهم الآن .

والذي يذكر بالثناء على أهالي جينيف أنهم مع عظيم اشتغالهم بالعلوم والمعارف لم يغفلوا أمر الصنائع فاهتموا بها اهتماماً عظيماً حتى برعوا خصوصاً في صناعة الساعات المشهورة بالدقة والضبط فزاد ذلك في شهرتهم واكثر من ثروتهم . وبعد أن أقمنا ثلاثة أيام في جينيف تاقت النفس للاقامة قليلاً في ضواحيها فقصدنا قرية جميلة قريبة منها وأقمنا فيها أربعة أيام نستنشق هواءها الجميل ونمتع الطرف بمشاهدة مروجها النضرة وحدائقها الغناء وفي اثناء اقامتنا فيها عزمت مع جماعة من رفاقي المصريين على زيارة المدن والقرى الجميلة الواقعة على ضفتي بحيرة ليمان فاخذ كل منا تذكرة باربع فرنكات ونصف (وكان ذلك في يوم احد) فركبنا من جينيف أحد البواخر التي تسير حول هذه البحيرة وفي الساعة ٦ والدقيقة ٥٠ صباحاً تحركت الباخرة فشاهدنا على اليسار أرضاً مغطاة بالزرع يعلوها الكرم على شكل مدرجات بمنظر جميل تقر له العيون وينتعش منه الفؤاد ومن هنا وهناك تلك البيوت والقصور البديعة القائمة على قمم في وسط تلك المروج . كنا نشتغل برؤية هذه المناظر والباخرة تمخر في مياه البحيرة ومن فوقها الموسيقى تعزف بألحانها الشجية والهواء عليل والكل فرحون مبتهجون والسيدات والرجال يتبادلون المؤانسة ويبدون من آية الظرف وأدلة الرقة والكمال ما يدل على حسن تربية الجنسين وتهذيب الفريقين وتمام سعادة أهالي تلك البلاد . فمررنا ونحن على هذه الحالة بجملة مدن وقرى جميلة أخص بالذكر منها « فرسوا » و « فيون » و « مورج » وسيأتي ذكرها بعد ومدينة « لوزان » عاصمة ولاية « فو » من أجمل المدن الواقعة على الساحل السويسري قائمة في موقع عجيب على ثلاثة تلال يفصلها عن بعضها وادٍ تجري فيه مياه نهر « فكون » هواؤها

عليل ومنظرها غريب وحدائقها نزهة للألباب يميل للاقامة فيها السائحون ويؤمها طلبة العلم من كل البلاد لشهرة مدارسها المعروفه باسم « جمناز »

مررنا بعد « لوزان » بمدينة « فيفى » وهي من أشهر مدن سويسرا تحيط بها الخضرة من كل جانب ويكثر فيها الرمان والتين كنا نرى أمامنا وادي« الرون » تكتنفه جبال الألب وعلى يميننا مياه البحيرة بقدر امتداد النظر وعلى يسارنا المروج والحقول وفيها الكرم ومدرجاته العجيبة

وصلت بنا الباخرة بعد ذلك الى مدينة « مونتريه » الشهيرة بجودة الهواء وحسن الموقع وغيرهما من المرايا التي تجذب اليها في كل سنة عدداً عظيماً من كبار الرجال وأغنياء العالم فلا تستغربوا اذا قلت انها قطعة من الارض ليس لها نظير تحت عنان السماء . بعد تناول طعام الغذاء في هذه المدينة البديعة قمنا على باخرة أخرى الى جهة « تريتيه » وهي مجموع منازل جميلة وفنادق نخيمة وينابيع المياه من حولها كأنها جنة تجري من تحتها الأنهار. نزلنا بهذه المدينة ثم توجهنا الى محطة سكة حديد الجبل حيث أخذنا تذاكر لمرتفع « جليون » . صعدنا اليه بسكة حديدية يسميها القوم « فوتوكولير» يتسلق عليها القطار بحذافيره على ارتفاع ٦٤٠ متراً . أقمنا قليلاً بهذا المرتفع نشاهد من فوقه مدينة «تريتيه» بكامل اجزائها وجميل مناظرها ثم نزلنا منه كما صعدنا اليه فكنا نتصور ونحن راكبون ذلك القطار انه سيسقط بنا في هاوية فما وصلنا الى أسفل ذلك الارتفاع حتى آمنا شر ذلك السقوط وذهب منا الرعب الذي كان استولى علينا فبادرتها بمبارحة «تريتيه» باخرة ثالثة بذات التذكرة التي أخذناها من جينيف في الصباح وبعد مسير عشر دقائق وصلنا الى مدينة « فيلنيف » الواقعة في طرف البحيرة عند مدخل وادي الرون ومن هناك

تحولت بنا الباخرة الى الساحل الفرنساوي فمررنا على مدينة «بوفيريه» التي تمد منها السكة الحديدية الى بلاد سافوا التابعة لفرنسا . وقفت الباخرة بنا قليلاً بهذه المدينة ثم سارت بنا الى «ايفيان» الحمامات الشهيرة بمياهها المعدنية فنزلنا بها وقصدنا المغارة التي توجد بها تلك المياه اللذيذة فشربنا منها ثم عدنا الى المدينة وبعد الانتظار قليلاً وصلت باخرة رابعة فركبنا بها الى «توفون» الشهيرة بمناظرها الجميلة ومياهها المعدنية ومن هناك اجتازت الباخرة البحيرة عائدة الى « نيون » على الساحل السويسري وسارت بنا الى «فيرسوا» وهي القرية التي اخترنا الاقامة فيها فنزلنا بها حيث كانت الساعة السابعة ونصف أما الباخرة فتتبعت السير الى جينيف لاتمام الدورة حول البحيرة .

على هذه الصورة قضينا يوم ٣١ الماضي أما يوم أول أغسطس الحالي فصرفناه بفرسوا وفي يوم ٢ منه قصدنا مدينة « مورج » الواقعة على ضفة البحيرة من اليسار وأقمنا فيها بضع ساعات ثم عدنا الى فرسوا وقضينا فيها الليلة وفي صباح ثاني يوم (٣ الحالي) تأهبنا للسفر الى ايطاليا فبرحنا جينيف في الساعة التاسعة وربع من مساء ذلك اليوم وكان وصولنا الى مدينة تورين في منتصف الساعة التاسعة من صباح يوم ٤ بعد أن مررنا بمدينتي «بيلجارو» « وكيلوز » بفرنسا ومدينة « موران » بايطاليا وما استقر بي المقام بتورين حتى كتبت لكم هذه الرساله عن رحلتي في جينيف فتقبلوها مع جزيل احترامي والسلام

تورين وميلان (١)

لما رأيت أن ميعاد اجازتي قد قرب وأن لا مندوحة لي من الاقامة بعد بسويسرا اضطرت الى الرحيل عن هذه البلاد الجميلة التي علقت بحبها وأحببت جمال مناظرها ومكارم اخلاق سكانها فكانت مفارقتي لها من أصعب الأيام التي تمر على المستهام. ولا يلومني أحد فيما أقول لاني أتكلم بما أشعر فقد أخذت محاسن هذه البلاد وكمال ساكنيها بمجامع قلبي فلا عجب اذا تغزلت فيها وهمت في حبها .

آثرت العودة عن طريق ايطاليا لزيارة بعض مدنها الشهيرة ومشاهدة الآثار الباقية فيها من القرون الوسطى فأول مدينة نزلت بها كانت «تورين» قضيت بها يومين رأيت في خلالهما بعض المتاحف والآثار وزرت المعرض العام المقام بها الآن .

تمتد هذه المدينة بين جبال « الألب » عند مصب نهر « البو » وتبلغ مساحتها العمومية ١٦٨٠٠٠٠٠ متر مربع وعدد سكانها ٣٥٠٠٠٠ نسمة تقريبا وهي كبقية مدن ايطاليا الشهيرة متسعة الشوارع كثيرة الرحبات فخيمة المباني ولكنها تمتاز بيواكي عماراتها الجميلة وقد اشتهرت هذه المدينة بمعامل القرمون والشكولاته ونسج الحرير والقطن والصوف وصنع الاثاث الفاخر وأصناف البهرجة والازهار الصناعية والتطريز على الحرير والقطيفة وغير ذلك من المصنوعات التى تكثر فيها العمل وتزيد من ثروتها

أشهر بقعة بها رحبة « كاستللو » وهي نقطة مركزية تتفرع منها جملة

(١) نشرت بمصر بتاريخ ٢٦ أغسطس سنة ١٨٩٨ بالعدد ٧٨١

شوارع وأزقة ويليها في الأهمية ميدان « فيكتور عمانوئيل » فميدان « كارلو البرتو » فشارع أكاديميه العلوم فشارع رومه فشارع جاريبالدي وغيرها من الرحبات والشوارع حيث توجد تماثيل لأعظم الرجال الذين أفادوا البلاد بجليل أعمالهم وجميل مآثرهم .

نزلت بفندق قريب من محطة السكة الحديدية يقال له فندق جينيف بميدان « فيكتور عمانوئيل » آثرت الاقامة بها وأملي أن أجد فيه من وسائل الراحة والنظافة ما لقيته بجينيف ولكنني اغتررت باسمه ولم أر فيه ويالالأسف شيئاً مما ذكرت

أول أثر أتيح لي زيارته في هذه المدينة سراى « ماداما » الكائنة في وسط رحبة « كاستللو » ومخصصة الآن لمحكمة النقض والابرام والذي يجعل لهذه السراي شهرة ويستميل السائحين لزيارتها انها جمعت في داخلها آثار ثلاثة أزمنة زمن الرومانيين والقرون الوسطى والأعصر الحالية . يظهر ذلك للزائر بمجرد النظر الى جدرانها الداخلية وما عليها من النقش والتصوير . لبثنا قليلاً بهذه السراي نشاهد تلك الآثار ونقابل بين تلك الأزمنة ثم خرجنا قاصدين زيارة السراي الملوكية القريبة من هناك فرأينا في طريقنا أثراً فخيماً يمثل جيش سردينيا مهتماً بالدفاع عن البلاد ومن أمامه فيكتور عمانوئيل الثاني يأمر الجند بالقيام الى الحرب .

ما شرعنا في الدخول الى السراى الملوكية حتى اعترضنا أحد الحراس ولما قلنا له إن زيارة هذه السراي مباحة للعموم قال نعم ولكن جلالة الملك « امبرتو الاول » مقيم فيها هذا اليوم وقد حضر الى تورين لزيارة المعرض العام فانثنينا راجعين وفي افئدتنا شيء من رهبة الملوك وتأثير سطوتهم . ولعلمنا

من قبل أن كنيسة ماري يوحنا قريبة من تلك السراي قصدنا زيارتها فلم يعجبنا فيها غير ما رأيناه على أبوابها من النقش البديع أما داخلها فليس فيه شيء فوق العادة أجمل مما رأيناه بالكنائس التي زرناها بمدن فرنسا ومن هذه الكنيسة توجهنا الى السراي « شابليه » وهي مقام امراء سافوا ظاهرها بسيط ولكن بداخلها من الغرف الجميلة والأثاث الفاخر والصور البديعة ما يدل على فخر اولئك الأمراء والذي يستحق النظر بهذه السراي بنوع أخص مكتبة تحتوى على أكثر من ٢٢٠٠٠ مجلد يبحث أغلبها في علم التاريخ والفنون الحربية بخلاف ما فيها من المؤلفات المختصة بالشرائع والقوانين

هذه هي الأماكن التي تيسرت لنا زيارتها في صباح أول يوم قمناه بتورين ثم عدنا الى الفندق وبعد الغذاء قصدنا زيارة متحف الآثار المصرية بسراي يقال لها سراي أكاديميه العلوم كائنة بالشارع المعروف بهذا الاسم مع متحف للآثار اليونانية والرومانية .

دفعنا رسم الدخول فرنكا (ليره عند الطليان) ثم تركنا كما هي العادة عصينا بالباب ودخلنا الى القاعات المخصصة لهذا المتحف وعددها خمس منها اثنان بالدور الاول من هذه السراي وثلاث بالدور الثاني رأينا بالدور الاول بعض مسلات وتماثيل عديدة بعضها لابي الهول والبعض الآخر لجملة فراعنة من عائلات مختلفة أخص بالذكر منها تمثالاً لرعمسيس الثاني المعروف عند الغربيين بأسم « سيزوستريس » مصنوعاً من الحجر الأسود على جانب عظيم من الاتقان حتى أن الاثريين يعتبرونه من أجمل التماثيل التي تدل على براعة قدماء المصريين في النقش في عهد العائلة التاسعة عشرة الطيبية .

لبثت طويلاً أروح وأغدو بين هذه الآثار وعندي ارتياح عظيم

لمشاهدتها وانعطاف خصوصي نحوها ثم تركتها وقلبي مفعم بالاسف لوجودها بهذه المدينة بعيدة عن أرض الفراعنة وأبناء مصر . ولما وصلت الى الدور الثاني سألني الحاجب عما أريد زيارته فقلت له هي الآثار المصرية التي حدت بي الى زيارة هذا المتحف. فأشار لي أن أدخل على اليمين ففعلت وكأن القوم قدروا هذه الآثار قدرها فجعلوها بالمحل اللائق بها أما الآثار اليونانية والرومانية فيراها الداخل على اليسار دليل على انها ثانوية في اعتبار القوم بالنسبة للآثار المصرية . توجهت كما أشار الحاجب فرأيت بأول قاعة تماثيل متنوعة وأوان قديمة لم أعرها كثيراً من التفاتي لقلة أهميتها بالنسبة لما رأيته في الدور الاول . ولكن الذي استلفت أنظاري وأدهشني طويلاً وأعجبني كثيراً هو ذلك البرج الشهير الذي يمتد على جدران هذه القاعة داخل زجاج على طول عشرين متراً وهو البردي الذي يعتبره الأثريون من أهم الآثار المصرية المقصودة في العالم لانه يوضح بعبارة هيروغليفية مستوفية كامل اعتقادات قدماء المصريين عن مصير الانسانية بعد مفارقة الحياة الدنيا. وجد هذا البردي في صندوق صغير جميل المنظر متقن الصنع معروض في هذد القاعة وله نظير مجسم في القاعة الثانية مع بعض تماثيل وأوراق اخرى أقل أهمية. أما القاعة الثالثة بالدور الثاني ففيها بعض تماثيل للآلهة والثور أبيس ومراكب صغيرة وآلات ومنسوجات يخال للناظر اليها انها حديثة الصنع رغماً من مرور تلك السنون وهاتيك القرون.

ودلنا البحث أن هذا المتحف ألف في الأصل من مجموعة آثار مصرية للدكتور « دوناتي » من أهالي بادو بايطاليا أهداها الى مدينة تورين ومن مجموعة اخرى فاخرة ابتاعها الملك شارل فلكس في سنة ١٨٢٤ من الشيفاليه « دروفيتي » الذي أقام مدة طويلة في ديار مصر .

خرجت من هذا المتحف بعد أن قضيت به أكثر من ساعتين وكان بودي أن أبقى به أكثر من ذلك للتمتع طويلاً بمشاهدة هذه الآثار التي يحن اليها المصري ويأسف على وجودها في غير بلاده ولكن ضيق الوقت اضطرني الى مبارحة هذا المتحف الجميل الذي يكفيه شهرة وجود ذلك البردي الجليل به فصرفت بقية نهاري في مشاهدة ما في المدينة من التماثيل العظيمة والمبانى الفخيمة والفنادق الكبيرة والمتنزهات الواسعة وغير ذلك مما لا تخلو رؤيته من فائدة أما ثاني يوم فقضيناه في زيارة المعرض العام المقام الآن بمدينة تورين وقد كان ذلك السبب الأصلي من مجيئنا اليه .

قصد الطليان باقامة هذا المعرض اظهار ماوصلوا اليه من التقدم في المعارف والفنون في مدى الخمسين سنة الماضية أعني من سنة ١٨٤٨ حيث نالوا الحرية وتم لهم نوع من الاستقلال فألفوا لذلك لجنة من كبار رجالهم واهتموا باقامة هذا المعرض على أحسن ترتيب وأجمل نظام وما أتى اليوم الاول من شهر مايو الماضي حتى فتحوه رسمياً بحضور أمراء العائلة المالكة وكبار رجال الدولة وجم غفير من الاعيان وسراة القوم ومن ذلك اليوم أخذ الناس يفدون لزيارته من جميع أنحاء ايطاليا والبلاد الاجنبية .

ينقسم هذا المعرض الى قسمين قسم خاص بالمعرض العام وقسم لمعرض الاشياء المقدسة للارساليات الكاثوليكية ويحتوي الاول على جملة قاعات تختص كل منها بأشياء معلومة مثل الآلات الميكانيكية والكهربائية والزراعية والتصوير والنقش وهندسة المباني والأثاث والأصناف الكيماوية وغير ذلك مما يطول شرحه ويدل على أن الطليان خطوا خطوة عظيمة في مدى الخمسين سنة الماضية . أما القسم الخاص بالأشياء المقدسة فجامع لجملة مصوغات عرضتها

الارساليات الكاثوليكية في البلاد الاجنبية على اختلاف أنواعها مثل أميريكا والأراضي المقدسة والمملكة العثمانية وأفريقيا وغيرها . ومما يستحق الذكر هنا أنني رأيت بمعرض ارسالية أفريقيا جملة شبان من الاحباش والسوريين والاقباط الكاثوليك والأرثوذكس وعرفت بأن القصد من احضارهم الى المعرض اظهار الاعمال العظيمة التي قامت بها الارسالية حتى ضمت اليها جملة أشخاص من تلك الأمم المتنوعة وقد رأيت بهذا المعرض أيضاً أشياء كثيرة مصرية مثل الحصر الملونة والاقمشة الاخميمية والدواليب والخرط والاواني الخزفية وغير ذلك .

قضينا طول نهارنا بهذا المعرض العام فزرنا جميع قاعاته ورأينا كل ما عرض بها من أعمال الطليان ولم نخرج منه إلا في منتصف الساعة السابعة من المساء حيث انصرف الجميع وشرع الحراس في قفل الأبواب فعدنا الى الفندق وبتنا به تلك الليلة وفي صباح يوم ٦ أغسطس برحنا تورين في الساعة السادسة قاصدين (ميلان) فوصلناها بعد الظهر بنصف ساعة .

تعد ميلان من أجمل مدن هذه البلاد حتى سماها القوم (باريس ايطاليا) يبلغ عدد سكانها ٣٦٠٠٠٠ نسمة ولها أهمية تجارية كبرى نظراً الى موقعها في وسط سهل (لومبارديا) المشهور بالخصب فتأتي اليها الحبوب من جميع أنحاء البلاد لتباع في أسواقها ويرسل اليها الحرير والصوف والكتان فينسج في معاملها فكان ذلك سبباً في نمو ثروتها واتساع نطاق العمران فيها ويعتني أهالي هذه المدينة كثيراً بشؤون التعليم فيها فترى فيها المدارس على اختلاف درجاتها والمكاتب والجمعيات والنوادي العلمية وقد اشتهروا أيضاً بالميل الى الاعمال الخيرية فأوجدوا بميلان مستشفى من أعظم مستشفيات ايطاليا

ومأوى للأطفال اليتامى وجمعية تعول بعض العائلات المعوذة وملجأ للشيوخ وبنكاً للاقتصاد يعد من أهم المراكز المالية بايطاليا .

ريثما وصلنا ميلان توجهنا لزيارة الكنيسة المعروفة باسم (روم) وقد كنا سمعنا بشهرتها من قبل وهي بناء عظيم مؤلف من جملة أبراج من الرخام الابيض الجميل قائمة في وسط الرحبة المعروفة باسمها وهي أشهر رحبة في ميلان تحيط بها المباني الفخيمة من كل جانب وتوجد بها أعظم المخازن التجارية وأجملها .

أسست هذه الكنيسة وهي من أشهر المعابد المسيحية بايطاليا في عهد الدوق « جان جالياس فيسكونتي » حاكم ميلان في سنة ١٣٩١ . دفعه حبه للزهو ورغبته في الشهرة الى تشييدها ليذيع اسمها في البلاد وتبقى له ولميلان ذكراً الى ماشاء الله.

ولكنه لم يتمكن من اتمام بنائها في أيامه فبقيت تستكمل شيئاً فشيئاً في عهد خلفائه حتى جاء عهد نابوليون الاول في سنة ١٨٠٥ وأمر باتمام البناء ومنح المبالغ اللازمة له فوضع له القوم تمثالاً في أحد أبراجها اعترافاً لفضله واقراراً بجميله.

يرى الزائر منظر هذه الكنيسة من الخارج أهم منه في الداخل لأن شهرتها في تلك الأبراج العديدة ذات الصنع المتقن من الرخام الأبيض الجميل ونرى في وسط هذه الابراج برجاً جميلاً يحتوى على تمثال للعذراء صاحبة هذه الكنيسة وهو من النحاس المذهب يزيد ارتفاعه عن أربعة أمتار أما داخل الكنيسة فبسيط ولكن الزائر لا يدخل اليها حتى يشعر بتأثير ديني يلقي في قلبه شيئاً من الخشوع والاحترام. ولهذه الكنيسة أملاك خصوصية عظيمة واعانة من الحكومة قدرها مائة وعشرون ألف فرنك ويبلغ طولها ١٤٨ متر وارتفاعها ١٠٨ متر وعدد التماثيل الموجودة بداخلها ٧٠٠ وبخارجها ٢٠٠٠

دخلنا الى هـذه الـكنيسة ولبثنا فيها قليلاً ثم خرجنا وأخذنا نجول حولها ونشخص لتلك التماثيل والابراج القائمة على ظهرها ونعجب للون رخامها الجميل واتقان صنعها البديع ثم توجهنا لزيارة السراي الملوكية الـكائنة خلفها فرأينا فيها من الغرف الجميلة والأثاث الفاخر ما ذكّرنا بما شاهدناه بسراي ڤرساي بضواحي باريس وبين هذه الغرف بون واسع به من النجف مايحمل ٣٠٠٠ شمعة .

قصدنا بعـد ذلك زيارة قوس السلام الشهير بهذه المدينة فرأينا من فوقه تمثالاً بديعاً يمثل عربة حاملة لآلهة السلام تجرها ستة من الخيل. وقد كان الغرض الأصلي من هـذا البناء اقامة قوس نصر لنابوليون الأول في سنة ١٨٠٧ . ولـكن لم تأت سنة ١٨١٤ حتى أفل نجم هـذا الظافر الشهير فحوّل القوم هـذا القوس الى أثر صلح وسلام اعترافاً بفضل فرنسوا الثاني امبراطور النمسا الذى سعدت في عهده البلاد . فـكتبت عليه كتابات بهـذا المعنى ولـكنها استبدلت بغيرها في سنة ١٨٥٩ مراعاة للظروف حيث انتصر نابوليون الثالث وفيكتور عمانوئيل على النمسا.

عدنا بعد ذلك الى رحبة (الدوم) لزيارة ممر فيكتور عمانوئيل المشهور بميلان وهو أشهر شيء بممشى توصل من تلك الرحبة الى ميدان التياترو بهذه المدينة ولـكنه غاية فى الزخرف والجمال. يرى فيه الزائر المخازن والحوانيت من الجانبين على أجمـل وضع وأحسن نظام وينسب بناؤه الى شركة انكليزية يقال إن أموالها نفذت قبل اتمامه فاضطرت البلدية أن تأخـذ العمل على عاتقها فأنفقت عليه مايزيد عن خمس مليونات من الفرنـكات وقد بني هذا

الممر على شكل صليب طول ذراعه ١٩٥ متراً وعرض طرقاته أربعـة عشر متراً ونصفاً وفي قلبه دائرة ذات ثماني زوايا تظللها قبة بديعة الشكل يرى الزائر على جوانب الاعمدة القائمة عليها صوراً جميلة تمثـل أوروبا وأسـيا وأفريقيا وأميريكا. وعلى أسوار هذه الدائرة والزوايا الموصلة الى أبوابها خرجات تحمل أربعة وعشرين تمثالاً لأشهر رجال ايطاليا وأحسن منظر يراه الانسان في هذا الممر حضور تنويره عند الغروب حيث يأتي وابور صغير ماراً على شريط فيوقد فوانيس الأنوار في أقل من لحظة ثم يختفي كأنه لم يكن. ومن ثم تسطع تلك الانوار كالنجوم في أفق الممر فتعطيه شكلا بديعاً يفوق كل وصف . بعد أن فرغنا من زيارة هذا الممر الجميل قصدنا المتنزه العمومي المعروف باسم « كورسو » الواقع بحري المدينة فرأينا بتلك الحديقة الجميلة طرقات واسعة تحيط بها الخضرة من الجانبين ومن بينها البحيرات وغدران المياه بمنظر جميـل تقر له العيون يقصدها أهالي ميلان عند أصيـل كل يوم لاستنشاق هوائها النقي وسماع نغمات الموسـيقى بها فيظهر أغنياء المدينـة وذوو اليسار عند حضورهم لها من علامات الزهو وأساليب البهرجة مايدل على أن القوم يتناظرون في زخرفة العربات وتسريح الخيول . تمر هـذه العربات بهذا الشكل على أتم نظام وأكمل ترتيب والناس فيها يتسارقون اللحظ ويتناولون التحيات فما ترى إلا قبعات ترتفع ورقاباً تنحني والسيدات لايتكلفن إلا نوعاً من التبسم علامة على رد التحية والرجال بذلك راضون فرحون فيبقى الحال على هذا المنوال حتى يدخل الليل ويفترق جماعة المتنزهين فتختفي العربات وتقل الحركة فلا يسمع بعد إلا خرير المياه وصوت اهتزاز أوراق الاشجار .

رأينا كل ذلك وتمتعنا بمشاهدة تلك المناظر ثم برحنا ميلان قاصدين البندقية فوصلنا في صباح يوم ٧ أغسطس بعد مسير ست ساعات بقطار السكة الحديد فاذا بها مدينة عظيمة تستحق أن أفرد لها رسالة أوافيكم بها قريباً ان شاء الله .

البندقية [١]

قبل أن أشرح لكم ما شاهدته من الآثار بهذه المدينة العظيمة قياماً بوعدي في رسالتي السابقة أرى من الواجب أن أذكر لكم طرفاً من تاريخها ليكون القارىء على بينة مما أقوله عنها .

كانت البندقية في مبدأ أمرها ضيعة صغيرة على ساحل بحر الأدرياتيك وكانت معروفة في ذلك العهد باسم « ڤينيسيا » فقدمت اليها فى زمن قدماء الافرنج جملة عائلات أجنبيـة واستوطنت الجزائر التي تكتنفها وكان لكل جزيرة منها أمير من أمراء البحريدير أمورها إلاّ أن أولئك الامراء لم يلبثوا أن تألفوا على قلب رجل واحد فجمعوا من شتات سكان الجزائر المذكورة أمة اخذت تدرج شيئاً فشيئاً في مدارج العمران فاتسع نطاقها وأمتدت تجارتها حتى بلغت الاسكندرية والقسطنطينية عاصمة المملكة الرومانية ثم آل الملك الى «يوستنيان» امبراطور السلطنة الشرقية فصارت« فينيسيان » من ملحقات السلطنة الى سنة ٦٤٠ وريثما رحل عنها الروم اهتم سكانها الاصليون بتأسيس حكومة وطيـدة فانتخبوا لها حاكما يلقب بلقب (دوج) ومجلساً للشيوخ يرجع اليه ذلك الحاكم في ادارة شؤون البلاد ومجلساً عالياً يقال له

(١) مقالة نشرت بمصر بتاريخ ٢ سيتمبر سنة ١٩٩٨ بالعدد ٧٨٧

مجلس العشرة لحل المشكلات. فصارت البندقية جمهورية يحكمها الأشراف ويشغلون وحدهم المراكز العالية بها. وقد بلغت في مدة أولئك الحكام (الدوج) مبلغاً عظيماً من القوة والأقتدار فكانت تهابها البلاد الأخرى ويخشى بأسها الملوك والولاة ثم ضمت اليها بلاد (دالماسيا) الواقعة في جنوب النمسا وجزيرة كريت وجملة جزر بالأرخبيل الرومي فصارت صاحبة النفوذ على سائر البلاد الواقعة على بحر الادرياتيك. ومما زادها قوة على قوة اشتراكها على أثر الحروب الصليبية في فتح مدينة القسطنطينية. وقد بقيت جمهورية مستقلة الى سنة ١٨٤٩ ثم فتحها النمساويون عنوة ولم تزل خاضعة لهم الى سنة ١٨٦٦ حيث اتحد ملك ايطاليا مع روسيا ضد النمسا وضم الى مملكته أراضي هذه الجمهورية ومن ذلك العهد أخذت البندقية في الانحطاط حتى صارت كما هي الآن اثرا من آثار تلك الجمهورية التي كانت زاهية زاهرة في القرون الوسطى ولكن المدينة لم تزل جديرة بالزيارة تعد من أوائل مدن ايطاليا لما فيها من الآثار الشهيرة والمباني العظيمة وهي الآن قاعدة لأقليم (فينيز) ويبلغ عدد سكانها ١٣٣ ألف نسمة تقريباً وهي مشهورة بتنسيق اللؤلؤ وصناعة الذهب والفضة والحجارة الكريمة والنقش على الخزف وغير ذلك مما يجعل لها أهمية تجارية كبرى ومن أهم المعامل فيها معامل الزجاج أخص بالذكر منها المعمل القريب من ساحة ماري مرقس حيث يرى فيه الزائر كيفية افراغ المادة الزجاجية في قوالب متنوعة تروق الناظر

وما قرب القطار الذي قمنا عليه من ميلان لهذه المدينة حتى أبصرناها بما فيها وأبراجها كأنها سفينة سائرة على سطح المياه . وصلنا اليها في الصباح فرأينا فيها بحيرات عديدة تخترقها من كل ناحية ومن بينها مجرى ماء يعرف

عند سكانها باسم «الخليج الأكبر» وهو يشطر المدينة من شرقها الى غربها وعليه ثلاث قناطر كبرى تنصرف منه مياه البحر عند الجزر وتعود اليه عند المد .

يحصل المد والجزر بهذا الخليج وسائر البحيرات المحيطة بالمدينة مرتين في كل يوم فيجعل لها منظراً عجيباً حيث ترتفع المياه عند المد الى ما يقرب من سطح الأرض فتظهر المدينة للناظر كنقش بارز تزينه المباني ومن بينها البحيرات كأزقة منخفضة. وعند جزر المياه تظهر بشوارعها وازقتها والبحيرات تشطرها ومن فوقها العناصر الصغيرة وعلى الساحل مبان مرتفعة وسرايات فخيمة تدل على ما كان لها من الرونق والبهاء فى الأزمنة السابقة ولا يلبث الزائر أن يقف على موقع هذه المدينة الغريب في نوعه حتى يستدل على سبب ارتقاء هذه الجزيرة وصيرورتها مركزاً لاقوى جمهورية طالت مدة بقائها في القرون الوسطى وفاقت بقوتها البحرية وتجارتها وثروتها وحسن تدبير حكامها جميع الدول التي كانت تناظرها فى ذلك العهد

أعظم أثر بهذه المدينة كنيسة مار مرقص الشهيرة بما فيها من الرخام والذهب والنقش البديع فضلاً عن الأعمدة الجميلة والشكل الشرقي الذي يجعلها في مصاف أشهر معابد الارض وأكثرها زخرفاً وأفخمها بناءً وقد بنيت هذه الكنيسة في أوائل الجيل الحادي عشر لحفظ جثة مار مرقص التي نقلت قبل ذلك من الاسكندريه الى البندقية وبقيت محفوظة بسراي «الدوج» الى أن تم بناء هذه الكنيسة . أما كيفية نقل جثة ماري مرقص من الاسكندرية فأرويها على علاتها نقلاً عن بعض المؤرخين بهذه البلاد .

يذكر المؤرخون أن جثة ماري مرقص الانجيلي نقلت من الاسكندرية

الى البندقية في سنة ١٨٢٨ وكان ذلك بحيلة استعملها بعض التجار البندقيين .
يقال إن الخليفة بمصر في ذلك العهد كان شارعاً في بناء سراي له بالاسكندرية فأراد أن يأخذ سائر الأعمدة الموجودة في كنائس مصر لهذا الغرض فكبر الأمر على سكان البلاد من الاقباط ثم اتفق أن قدم للاسكندرية في ذلك الوقت اثنان من تجار البندقية فقصدا الكنيسة التي كانت جثة ماري مرقص مودعة فيها ولما اتصل بهما أمر الخليفة ورأيا القسوس في كدر شديد وقلق زائد استلفتا انظارهما الى ما يلمّ بهذا الأثر الجليل من الخطر اذا بقي بالكنيسة وعرضا عليهم أن يسلموه لهما وتعهدا بالمحافظة عليه بما يليق به من جزيل الاحتفاء فقبل بذلك القسوس ولكنهم حذراً من حدوث اضطراب بين الأقباط بادروا بوضع جثة قديس آخر في المقبرة أما جثة مار مرقص فوضعت في صندوق ووضع التاجران من فوقها وحواليها قطعاً من لحم الخنزير الذي تحرمه الشريعة الاسلامية فلما رآه عمال المرفأ حولوا عنه النظر وأذنوا لحاملي الصندوق بالمرور به وبهذه الحيلة توصل التاجران الى نقل ذلك الكنز الثمين الى البندقية فحفظ في سراي « الدوج » ومن ذلك العهد اتخذ أهالي المدينة ماري مرقص نصيراً لهم واعتقدوا أنه سبب سعادة جمهوريتهم وتسلطهم على بلاد الشرق كما كان سبباً في سعادة بلاد مصر في ذلك الوقت وقد رمزوا الى هذا الانجيلي بأحد الحيوانات الحاملة لكرسي العظمة المذكور بنبوة حزقيال وهو الاسد عنوان القوة فاقاموا له تمثالاً عظيماً يمثل أسداً ذا جناحين يراه الزائر قائماً في ساحة ماري مرقص الى الآن بهذه المدينة ثم شرعوا في بناء كنيسة لحفظ تلك الجثة الشريفة فشيدوا كنيسة مار مرقص ونقلوا اليها ذلك الأثر الجليل وصار الحكام يحسنون في بنائها ويوسعون في اماكنها

خلفاً عن سلف حتى صارت بالشكل البديع الذي هي عليه الآن .

يتوصل الزائر الى هذه الكنيسة بدهليز له خمسة أبواب من بقايا الرومان وبه جملة أعمدة شرقية في غاية الاتقان والجمال يقال إنها نقلت من هيكل أروشليم. ويرى في عقد ذلك الدهليز نقشاً بديعاً يمثل جملة حوادث من العهد القديم من أول الخليقة الى عهد موسى في البرية ومن فوقه بالدور الاول نقش بالذهب يمثل تاريخ نقل جثة مار مرقص بالصفة التي ذكرتها وعلى الواجهة تماثيل قديمة تلقي في قلب الناظر اليها هيبة ووقاراً ثم يشاهد بالدور الاعلى عربة بديعة من نحاس يقال إنها أخذت من قوس نصر بالقسطنطينية على أثر الحروب الصليبية فنقلها بعض التجار الى البندقية في أوائل الجيل الثالث عشر . وللكنيسة بابان من نحاس على الاول منهما صور بعض اجزائها من الفضة يدخل منه الزائر فيندهش من جمال ما يراه من النقش على أسوار الكنيسة والرسم على قببها وما يشاهده من الرخام على الجدران والاعمدة الشامخة والتماثيل العظيمة وما ينظره في كل مكان من الذهب الذي يكاد يأخذ بالابصار فيعز عليه أن يصف الطرائف واللطائف الموجودة بهذه الكنائس أخص بالذكر منها نقشاً بديعاً في احدى القبب يمثل المسيح تحيط به السيدة مريم وجماعة من الانبياء ونقشاً آخر في قبة ثانية يمثله صاعداً الى السماء تحيط به في أول دائرة السيدة العذراء والرسل والملائكة وفي الدائرة الثانية في صور أشخاص وفي صدر الكنيسة تماثيل للاثنى عشر رسولاً والسيدة العذراء من أجمل ما تراه العين بهذا المعبد وغير ذلك من البدائع التي لم أتمكن من استيفاء البحث عنها والوقوف على حقيقة تاريخها ولكني على أي حال أعتقد أن ما عرفته وذكرته عن هذه الكنيسة يكفي للاستدلال على فخامتها

وما حوته من الآثار والتحف حتى انها لتعد من أفخم كنائس الأرض لا تفوت زيارتها أحداً ممن يفدون الى هذه المدينة

انتهينا من زيارة هذه الكنيسة والعقل منا في ذهول لغرابة ما رأيناه بها ثم توجهنا لزيارة سراي «الدوج» المجاورة لها وهي من أشهر المباني في ايطاليا يقال انها بنيت جملة مرار وأحرقها الأهالي نظراً الى ما كان يأتيه فيها الحكام من صنوف القسوة والصرامة في المحافظة على شرائع البلاد والذي يقابل بين الدور الاعلى والدور الأسفل من هذه السراي يرى بينهما تبايناً يدل على ماهية السياسة التي جرى عليها حكام البندقية في الزمن السابق ويبرهن على ذكاء ومهارة المهندس الذي نظمها وقسمها بطريقة تناسب تلك السياسة فكان اولئك الحكام يظهرون اللطف واللين في معاملتهم للرعية التي سلمت اليهم مقاليدها ولكنهم كانوا أشد الناس حرصاً على القوانين فكانوا يبدون الدفاع عنها من القوة والشدة ما لا مزيد عليه. قد بنيت هذه السراي على شكل يناسب هذه السياسة فترى الجزء الأسفل منها رحيباً كثير المنافذ والدور الأعلى لا يتأتى وصول كل أحد اليه ويرى الزائر فوق الأعمدة رسوماً مدلولها حب الوطن والشرف والفضيلة والفنون والصنائع والتجارة والعائلة والمعارف والقضاء ويرى بالمدخل العمومي من الجهة اليمنى لكنيسة مار مرقص باباً جميلاً عليه من النقش البديع ما يمثل القوة والحكمة والآمال والحب وعليه زهور وأكاليل من فوقها تمثال العدل جالساً على منصة الاحكام. يدخل الزائر من هذا الباب فيندهش مما يراه على الواجهة من أنواع الزخارف سلم يدعوه القوم سلم الجبابرة وعليه تماثيل هائلة للمريخ إله الحرب ونبتون إله البحر إشارة الى ما كان للبندقية من العظمة والشوكة براً وبحراً. صعدنا على

هذا السلم ومررنا بممشى واسع يوصل الى سلم آخر بديع الشكل ومنه سرنا الى دهليز يوصل الى القاعات التي كانت مخصصة في العهد السابق لمجلس الشيوخ ومجلس العشرة ومجلس الثلاثة قضاة الذين كانوا منوطين بقصاص المرادقة. ثم مررنا بقاعة رأينا بها كرة أرضية جسيمة يقال إنها من صنع الحاج محمود التونسي في سنة ١٥٥٩ . وانتقلنا بعد ذلك الى قاعة يقال لها قاعة المستشار الاكبر طولها ٤٦ متراً وعرضها ٢٣ متراً وارتفاعها ١٠ كان يجتمع بها المجلس الاعلى المؤلف من اشراف المدينة أصحاب الحل والعقد في الادارة والقضاء والكلمة النافذة في البلاد والسلطة الحقيقية على العباد

وعلى جدران هذه القاعة جملة صور تمثل حوادث البلاد التاريخية على سقفها بعض رموز عن الصدق والسعادة واللين والذكاء والاعتدال والاعتراف بالجميل والحكمة في زي سيدات من ساكني البندقية وبالطبقة السفلى من هذه السراى غرف عديدة مظلمة تقشعر من رؤيتها الأبدان كانت مستعملة بصفة سجن في العهد السابق ثم دمرت أيام الثورة الفرنساوية

زرنا بعد ذلك السراي الملوكية مكان المكتبة الشهيرة بالبندقية فرأينا بها غرفاً واسعة فيها من الاسرة والأثاث الفاخر ما يليق بالملوك والامراء وخرجنا منها الى ساحة مار مرقس وهي أشهر ساحة بالمدينة فرأينا باحد جوانبها ساعة عجيبة تبين الساعات ومنازل القمر ومنطقة البروج وعلى الجانب الآخر ممر به المخازن والحوانيت على أحسن وضع وأجمل ترتيب ومن عوائد أهالي البندقية أنهم يأتون عند أصيل كل يوم الى هذه الساحة على سبيل الرياضة وسماع نفحات الموسيقى فتزدحم بهم وتضيق على عظيم اتساعها ومن غريب ما رأيته بها حمامات زرق أشبه بالحمام المعروف في القرى المصرية باسم

« زغاليل» تغدووتروح وتطير وتحطولا يمسها أحدبسوء فتراهااليفة تلتقط الحبوب من أيدي المتنزهين وتقف تارة على منا كبهم وطوراً فوق رؤوسهم فلا يتحركون اكراماً لها ثم يلاطفونها ولها في قلوبهم مكانة مكينة كأنها من الطيور المقدسة عند قدماء المصريين ويذهب سكان البندقية مذاهب شتى في أصل هذه الطيور والذى أراه أنها ربما كانت مجتلبة من مصر لانها أشبه شيء بالزغاليل المصرية الموجودة بالابراج بالوجه البحري خصوصاً ولا يبعد أنها نقلت الى البندقية بحيلة كما نقلت اليها جثة مار مرقس

برحنا ساحة مار مرقس قاصدين الرياضة بانحاء المدينة فأخذنا زورقاً يعرف عند القوم باسم « جوندول » سار بنا يمخر في مياه الخليج الأكبر وعلى ضفتيه السرايات والمباني الفخيمة وكان رائد ذلك الزورق يذكر لنا أسماءها وتاريخها في أثناء مروره بها فقضينا في هذه الرياضة ساعتين ثم عدنا الى ساحة مار مرقس ومنهاتوجهنا الى المنتزه العمومي المعروف باسم «ليدو» وهو جزيرة جميلةوافعة شرقي البندقية على ساحل بحر الادرياتيك. ذهبنا اليها على باخرةصغيرة فوصلناها بعد مسير اثنى عشر دقيقةصرفنا فيها بضع ساعات ونحن نسرح النظرفي حديقتها الغناءو نشاهدحماماتها الشهيرةومبانيها الفخيمة القائمة على الرمال ثم عدنا الى الشاطئ المقابل للبندقيةوتناولنا الغذاء في احدى المطاعم الموجودة هناك ثم بادرنا بالعودةالى المدينة كما حضرنامنها. ومن هناك استأجرنا زورقاً وكان ذلك في منتصف الليل فتوجهنا في الوقت والساعة الى الباخرة « بوسفورو » احدى بواخر شركة « روباتينو » الطليانية وقد كنا أودعنا أمتعتنا بها في النهارفبتنا تلك الليلة وفي الساعة السادسة من صباح يوم ٨ أغسطس تحركت هذه الباخرة قاصدة الاسكندرية فمررنا على

(أنكون) « وباري » و « برندزي » على الادرياتيك ثم سرنافي بوغاز «أوترانت» الواقع بين تركيا وايطاليا ومنه عرجنا على جزيرة « سيفالونيا » وهي أشهر الجزر اليونانية ثم مررنا تجاه جزيرة « كريت » ومنها الى الاسكندرية وكان وصولنا اليها في الساعة الخامسة من صباح يوم ١٣ أغسطس ولم نعاني في سفرنا شيئاً لصفاء السماء وهدو الماء

على هذه الصورة اتممت هذه الرحلة التي قضيت فيها مايقرب من الثلاثة واربعين يوماً وهي وأن كانت صغيرة الا أن فوائدها كانت بالنسبة لي كبيرة على أنها لم تكلفني اكثر من ٥٥ جنيهاً بعد تنزيل ثلاثين في المئة من أجرة الباخرة في الذهاب والاياب وخمسين في المئة من اجرة السكة الحديد بفرنسا وهو على أي حال مبلغ جزئي في جانب ما أنفقه غيرى من الذين سافروا الى باريس واستغرقوا أوقاتهم بها أما أنا فا ثرت التنقل بجملة جنيهات سعياً وراء الفائدة ورغبة في مشاهدة معالم تلك البلاد على اختلاف أنواعها والحق يقال اني لم أرَ في سياحتي من المدن التي زرتها سواء كان بفرنسا أوسويسرا أو بايطاليا مثل مدينة باريس عاصمة فرنسا ولاشك أن فخامة آثارها وجمال متاحفها وعظم ساحاتها وشوارعها وبهاء حدائقها واتساع نطاق التعليم فيها ولطف وكرم اخلاق ساكنيها يجعل لها المحل الاول بين مدن أوروبا ولكن أفضل عليها بعض جهات سويسرا بالنظر الى اعتدال مناخها وجميل مناظرها وما يجده فيها المسافر من الهدو والسكينة وراحة البال أما مدن ايطاليا فليس فيها شيء جدير بالالتفات غير تلك الآثار الزاهية الباقية من القرون الوسطى فاذا قابل الانسان بين هذه البلاد وبعضها والدرجة التي وصل اليها سكان كل منها يرى أن الفرنساويين خطوا خطوة عظيمة الى الامام خصوصا في الفلسفة والآداب.

حول سياحته

سنة ١٩٠٠

بدائع وغرائب [(١)]

في مدينة العجائب

(باريس)

(١)

مضى على اليوم ثمانية وعشرون يوماً مذ قدمت هـذه المدينة وهي مدة لو قضاها الزائر في مشاهدة المعرض لعرف شيئاً كثيراً عما يحتوى عليـه من العجائب والغرائب ولـكن اشتغالي بالمراجعة والدرس وتأهبي لأداء الامتحان أمام كلية الحقوق بباريس حالا دون إدراك هذه البغية حال وصولي فاضطرني الأمر الى إرجاء هذه الزيارة الى أول أمس وإن كانت رغبتي فيها تزيد يوماً عن يوم . فلما فرغت من الامتحان وعرفت نتيجة فوزي هرولت الى المعرض لرؤية تلك المناظر التي أسمع بها في كل يوم ويلهيني عنها ماذكرت من الشواغل . أما الآن وقد حظيت بهـذه الأمنية فلك عليّ انجاز ماوعدت والتعبير على صفحات مصر عما رأيت وعلمت . غير إني أود قبل ذلك ان أذكر شيئاً عن باريس نفسها وما لقيته مدة إقامتي فيها حتى إذا اتضح للقارئ ما أقوله عنها وعن المعرض العظيم القائم بها الآن وأقف على درجـة التأثير الذي يقع على الانسان لدى مشاهدة تلك الآثار. ولـكن ماذا أقول وماذا يفيد كلامي عن هذه المدينة الطويلة العريضة وقد جمعت من محاسن الآثار وفخامة الابنية واتساع الشوارع ونظافة الطرقات ونضارة الحدائق وجمال المتنزهات ماجعل لها المحل الاول بين مدن العالم . فلاعجب اذا تقاطر اليها الناس من سائر البلاد قاصيها ودانيها خصوصاً في هـذه السنة التي زادها فيها المعرض أهمية فوق أهمية . والذي يحبب الى الاقامة في هذه المدينة أن النافع

(١) نشرت بمصر في ١٧ أغسطس سنة ١٩٠٠ بالعدد ١٣٦٨ .

والجميل اجتمعا فيها فلا يرى الغريب فقط مايفيده ويرقي معارفه بل يلقى في أهلها من كرم الأخلاق والرقة والأدب مايطلق لسانه بالثناء عليهم والاطراء في مدح شمائلهم وكأني بهذه المدينة جنة تحار فيها العقول وكأن أهلها سحرة يخلبون الألباب ويأخذون بمجامع القلوب فاذا أتيحت لك زيارة هـذه المدينة فتوجه الى ساحة « الشوارع الكبيرة » التي تمتد من « المادلين » الى رحبـة « الباستيل » تجد هناك خلقاً كثيراً من أدباء الباريسيين وأكابر الغربيين والشرقيين تمر أمامك المركبات والعجلات على اختلاف أنواعها وتنوع أشكالها وفوق أرصفة الشوارع أناس من سائر الملل والنحل يروحون ويغدون من الصباح الى منتصف الليل والغريب لايخطو خطوة حتى يرى مايستوقف أبصاره من المخازن المتناهيـة في الزخرف والقهاوي والخانات والمطاعم والفنادق والحوانيت وغيرها من محلات البيع والشراء. أشياء تفوق الوصف ولا تقع تحت حصر ولو تأمل الطائف في أحياء هذه المدينة يجد لكل منها شكلاً خاصاً به. ولاهليه صفات تميزهم عن غيرهم من سكان الأحياء الاخرى . فسان جرمان والسان اليزيه وغابة بولونيا ومونسو هي مقام الاشراف والمصارف الشهيرة وحي الأوبرا اشتهر بالزهو والتأنق . وحي لكسمبرج والمدارس المعروف بالحي اللاتيني المقام المحبوب لطلبة العلم ورواد المعارف يقابل في القاهرة جهة الازهر ولكن شتان بين هذا وذاك من جهة فخامة المباني واتساع الشوارع ونظافة الطرقات وسهولة المواصلات منه واليه . أما حي « مونمارتر » فشهور بملاهيه العـديدة الغريبة يرى فيـه الانسان من أنواع الطرب وأساليب اللهو والتفنن في معدات الحظ مايطول شرحه ويحسن السكوت عليه. ومجمل القول إن في باريس مايملأ العين قرة ويسلي الغرباء. تلذ للناس الاقامة فيها على اختلاف مشاربهم وتنوع أميالهم فاذا رآها الانسان مرة لايسلوها وكيف يسلو ما يدخل عليـه السرور ويجلو صداء الاذهان .

وإذا عرف الزائر أن عـدد سكان باريس ٢٦٠٠٠٠٠ نسمة وأن مساحة هـذه المدينـة لاتقل عن ٨٠٠٠ هيكتار ودائرتها ٣٤ كيلومتراً وأن فيها والحالة هذه ألوفاً مؤلفـة من الأجانب يقف مندهشاً أمام اتساع هذا البلد الكبير والحركة العظيمة القائمة الآن. على أنه لايرى شيئاً من الازدحام لأن عربات الترمواي البخاري والكهربائي

والامنيبوس وبواخر السين والسكك الحديدية تخترق المدينة طولاً وعرضاً فتبعثر تلك الجماهير في هذا الفضاء الواسع .

أما أسباب المعيشة في باريس ووسائل الراحة والرفاهية فمتوفرة ولـكنها تستلزم انفاق شيء كثير من الأصفر الرنان شأن كل وسط تكثر فيه الناس وتزيد فيه الحاجة عن القدر الموجود وهو مايعبر عنه علماء الاقتصاد السياسي بزيادة الطلب عن العطاء .

هذا ما أردت ايراده عن باريس بوجه عام قبل الكلام على المعرض وما رأيته فيه من الغرائب والعجائب أذكره لـكم الآن بحسب مايمليه عليّ الفؤاد فاذا رأيتم تقصيراً في الشرح عذرتموني لأني أرى نفسي صغيراً أمام هاتيك المدهشات التي يعجز اليراع عن وصفها ويحار العقل في الوقوف على كيفية توصل القوم لاتقان صنعها واحكام أوضاعها وأنا كلما أمعنت النظر في تلك المصنوعات وتأملت في تلك المعروضات أقف باهتاً صامتاً أمام ذلك الارتقاء الغريب والاقتدار العجيب ولا أفيق من دهشة حتى أقع في أعظم منها لدى الانتقال من مكان الى آخر في تلك الدائرة الواسعة التي خططها المهندسون على ضفتي نهر السين فرتبوها على مثال يخلب العقل ويسلب اللب ويبهر البصائر والابصار فلولا التقى لقلت بلا استغفار جلت قدرة الانسان .

رأيت مجموع المعرض لاول مرة من فوق سراي « التروكاديرو » فتمثل أمامي كمدينة جديدة في غاية الابهة والجمال أقامتها يد الجن فى وسط مدينة باريس. ولما توجهت اليه ومررت بطرقاته التي تحفها الخضرة من الجانبين وتنقلت فى تلك المعاني وهاتيك القصور وقفت أكثر من مرة أفكر فى تلك القدرة العجيبة التي توصل بها ذلك الانسان الضعيف للاتيان بتلك المعجزات ممـا كان لايخطر لي من قبـل على بال وكأني بالقائمين بهذا المعرض والمشتركين فيه حواة انتشروا فى أرجائه يبدي كل منهم من آيات السحر وأساليب العجب مايدهش الزائر حتى كاد يعتقد أنه فى عالم غـير عالم الاحياء وأن كل ماراآه فى ذلك المعرض تخيـلات لا أثر لها فى الوجود ولـكنها وحق العـلم وذويه والاختراع والمفكرين فيه حقائق لاريب فيها بل غرو بلا مراء فى جبين القرن العشرين .

أما المعرض في حد ذاته فيمتد الى مساحة تنوف عن مائة هكتار وثمانية وهو

ينقسم الى خمسة أقسام أولهـا الشان اليزيه أو جنات النعيم وثانيها سـاحة الانفاليد وثالثها الشاطىء الايمن والشاطىء الايسر من السين ورابعها سان دومارس أو ميدان اله الحرب وخامسها سراي التروكاديرو ويلي هذه الاقسام ملحق بجهة فنسين خاص بالسكك الحديدية فاذا أراد الزائر أن يطوف حول هذه المساحة الواسعة أو ينتقل من قسم الى آخر من تلك الاقسام ما عليه الا الركوب في الرصيف المتحرك أو السكة الحديدية الكهربائية الموضوعين لهذا الغرض فالرصيف المتحرك أشبه بتلتوار دائر أو شريط متناهي يبلغ عرضه ٤ أمتار ومتوسط ارتفاعه ٧ أمتار وهو مركب من ثلاثة أجزاء أحدهما ثابت والآخران متحركان بسرعة مختلفة تديرهما قوة كهربائية تولدها محركات عديدة ذات تركيب غريب ويصل اليه الانسان بدرج الى محطات معلومة مقامة على الجزء الثابت منه واجرة الركوب فيه ٥٠ سنتيما بصرف النظر عن طـول المسافة أما السكة الحديدية الكهربائية فتمر بجانب هذا الرصيف فـكأن الاثنين عقربا ساعة يلحق الواحد بالآخر وفي داخل المعرض وسائل أخرى للتنقل تسهل على الزائر الفرجة بلا تعب ولا ملل اذكر منها الـكراسي الدائرة وهي عبارة عن عجلات صغيرة يجرها عمال مخصوصون وأجرتها ٦٠ سنتيماً في كل ربع ساعة والدوائر المتحركه التي يصعد بها الزائر في بعض المباني من دور لدور حرصاً على الوقت ورفقاً بالسافلين أما المطاعم والقهاوي والحانات والتياترات الموجودة في المعرض فعديدة وربحها كثير والجد فيها نادر قليل اذا قصدتها في المساء وجدتها ملأى بالزائرين من جميع البلاد وسائر الملل حيث الموائد ممتدة والـكؤوس مبعثرة والسيدات باسمات والغلمان على استعداد تام لخدمة الزائرين وأغلب هذه المحلات واقعة على شاطىء نهر السين فتراهـا في الليل متلألئة الانوار كأنها جنة تجري من تحتها الانهار ثم اذا عرفت أن بالمعرض مراكز بوليس مخصوصة لحفظ النظام ومكاتب صحية تعتني بأمر النظافة والصحة العمومية ومراكز للبوستة والتلغراف والتليفون لسهولة المواصلات مثل أمامك كمدينة مستقلة تحكم نفسها بنفسها

هذا ما شعرت به ورأيته لدى زيارتي الاولى للمعرض سطرته كما أملاه عليّ الفؤاد وقادتني اليـه عوامل الاحساس فدعني الآن استريح من تعب السير وعناء التحرير حتى اذا تجددت قواي عدت الى زيارة المعرض ففصلت محتوياته تفصيلاً

باريس في ٩ اغسطس سنة ١٩٠٠

باريس
(٢) [١]

أصبحت اليوم وقد زاد بي الشوق لزيارة المعرض فعدت اليه قاصداً دخوله من باب « ميدان الائتلاف » للسير في الزيارة بحسب الترتيب الذي ذكرته في رسالتي الاولى حتى لايفوتني شيء من تلك المشاهد البديعة ولا يضيع وقتي القصير في التكرار وان كان يحلو لي في هذا المقام.

على هذا العزم شرعت في زيارة القسم الاول (جنات النعيم) فقصدت البوابة الأثرية القائمة على ميدان الائتلاف ومادنوت منها وأرسلت الطرف لواجهتها وجوانبها حتى اعترتني هزة الاعجاب أمام هذا الأثر الذي بلغ حد الابداع والاعجاز فكنت أنظر ذات اليمين وذات الشمال ومن فوق ومن تحت وأروح وأغدو وأقف وأسير وأطوف حول هذا الأثر الجليل والعقل مني في اندهال مما رأيت من آيات الزخرف مع احكام الوضع وتنوع الرسوم واختلاف التماثيل والأشكال . تشغل هذه البوابة مسطحاً من الارض مساحته ٥٠٠ متر وهي مركبة من ثلاث أقواس تعلوها قبة بارتفاع ٣٠ متر ومن خلف هذه الاقواس ٣٢ مدخلاً يمكن أن يمر منها في الدقيقة الواحدة ٩٠٠ زائر وفوق تلك القبة سفينة تمثل سعار مدينة باريس يعلوها تمثال بديع لغادة حسناء متشحة بثوب جميل يوافق العصر يرمزون بها الى مدينة باريس في الوقت الحالي وكأني بها ترحب بالزائرين .

ويرى الداخل على جانبي البوابة تماثيل عديدة تمثل الصنائع والفنون والعمال يجدّون ويعملون في إقامة المعرض العام ومن تحت القبة تمثال امرأتين طويلتين عريضتين تمثلان الكهرباء وفي جميع أجزاء البوابة ثقوب صغيرة تراها في الليل مصابيح وهاجة ترسل أشعتها الى ميدان الائتلاف فتبدل الليل نهاراً والظلمة نوراً والفضل في بناء هذه البوابة راجع الى المهندس الفرنساوي الشهير المسيو بينيه فقد أبدع في تشييدها وتفنن في وضعها على شكل غريب لم يسبق له مثيل فهي والحق يقال جديرة بأن تدعى «مدخل جنات النعيم » يمر الزائر من هذه البوابة الى طريق فسيحة توصل الى جسر الانفاليد

(١) نشرت بجريدة مصر بالعدد ١٣٧٤

تحف بها الأشجار والبساتين من اليمين واليسار منظمة على شكل بالغ القوم في أساليب تنسيقه وفي تلك الحدائق والرياض من أنواع الاشجار والأغراس والاعشاب والازهار ماتقر برؤيته العيون وتنشرح له الصدور . وبين هذه الرياض طرقات مفروشة بالحصى والرمل وتماثيل مختلفة واردة من البلاد الاجنبية وحياض تخرج منها أنابيب الماء في جهات متفرقة فتحدث في تلك البقعة الفيحاء خريراً تحن لسماعه الآذان ومنظراً يبهر الأبصار وينعش الفؤاد ولو لم يكن في المعرض غير تلك البوابة وذلك الممر لكفى وجودهما دليلاً على ما أقول . ولقد سرت في هذه الطريق حتى وصلت الى منتصفه فاذا بي في طريق أخرى معروفة باسم نقولا الثاني وعلى يميني بناء فخيم يسمونه القصر الصغير مركب من دور واحد يصعد اليه الزائر بدرجات معدودة من الجانبين فيرى على اليمين واليسار نقوشاً تمثل بعضها نهر السين والبعض الآخر يمثل أدوار الحياة الاربعة. وفي مدخل القصر صفان من العمد يعلوها نقش جميل يمثل مدينة باريس تضم تحت قدميها نهر السين ومن حوله عذارى تمثل الفنون والآداب والمعارف كاكليل فخر لمدينة النور . وفوق ذلك تمثالان يمثلان المحيط والبحر المتوسط . ثم دخلت ردهة تغطيها قبة بديعة توصل الى ساحة مكشوفة من حولها أروقة فيها تحف الفنون الفرنساوية من بدء الحضارة الى نهاية القرن الثامن عشر فرأيت بها آلات الحرب التي كانت مستعملة في القرون الوسطى وأنواعاً مختلفة من العربات التي كانت تحمل على الاعناق في زمن الملوك القدماء وأسلحة عديدة ومنقولات بديعة وأبسطة وموائد وكراسي وشمعدانات جميلة الشكل وساعات متقنة الصنع وستائر وطنافس وأوان كنائسية من الذهب والفضة ومصوغات وتماثيل من البرونز ومشغولات من النحاس والخشب والعظم والعاج والخزف والزجاج والفخار والقيشاني والصيني والحديد وغير ذلك مما يطول شرحه ولا يقع تحت حصر وكل هذه المعروضات مرتبة في القاعات بحسب الازمنة والممالك بطريقة تسهل على الزائر الوقوف على تقدم الصنائع بارتقاء الانسان في المدينة . وهنا كل الفائدة ولكن الذي أعجبني كثيراً اتقان التصوير لاسيما سيدة فتانة وقفت أكثر من ربع ساعة انظر الى وجهها المليح وأتأمل في محاسنها وأقول من حيث لاأشعر تبارك الخلاق وأنا

لا أصدق أنها صورة حتى دنوت منها ومسستها بيدي رغماً عن أن ذلك محظر على الزائرين.

ومما أدهشني فيها جمال عينيها فذكرني بذلك قول الشاعر العربي : —

وعينان قال الله كونا فكأننا فعولان بالألباب ماتفعل الخمر

رأيت كل ذلك حتى كلت الأقدام من طول الطواف ومل العقل من كثرة التأمل في تلك البدائع والغرائب فلم أجد مندوحة من الخروج طلباً للراحة فجلست حيناً بطريق نقولا الثاني أروح النفس بين تلك الرياض اليانعة والحدائق الغناء ثم قصدت القصر الكبير تجاه السراي الصغيرة فوقفت أمامها مدة ليست بقصيرة اتأمل في ذلك البناء البديع قائلاً لابد أن يكون فيه أشياء أبدع وأغرب مما رأيته في القصر ثم تقدمت فرأيت على الواجهة من اليسار أربعة تماثيل تشخص الفنون في مصر واليونان وروما والقسطنطينية ومن اليمين أربعة أخرى تمثل النقش والتصوير والحفر والعمارة . ولما طفت بقاعاتها وجدتها منقسمة ثلاثة أقسام أحدها يختص بالفنون الفرنساوية من سنة ١٨٠٠ الى سنة ١٨٨٩ والثاني يتعلق بتلك الفنون من سنة ١٨٨٩ الى سنة ١٩٠٠ والثالث خاص بمعرض للفنون عند الامم الاجنبية فيرى الزائر القسمين الاولين في الجناح الايمن لتلك السراي والقسم الثالث في الجناح الأيسر وكلها تحتوي على تماثيل عديدة وتصاوير ورسوم ونقوش تفوق الحصر وتدل الزائر على درجة تقدم الامم الاوروبية في هذه الفنون وعظيم اهتمامهم بها وبينما أنا مهتم بمشاهدة تلك المعروضات كنت أحملق بعيني لعلي أجد شيئاً يستحق الالتفات من تحف الشرقيين فلم أر إلا القليل لتركيا واليونان ولولا مارأيته لليابان من الطرف البديعة لقلت على أمم الشرق بأسره السلام .

وخرجت من هذا القصر قاصداً العود الى المنزل لاستريح مما لحقني من التعب والنصب ولكن جسر اسكندر الثالث الموصل لساحة الانفاليد استوقفني فوقفت اتأمل في اتقان صنعه وأعجب ببراعة المهندسين الفرنساويين في إقامة القناطر وبناء الجسور. ويمتاز جسر اسكندر الثالث عن غيره بكونه صُنع كله من الحديد وعلق على نهر السين بلا عمد في وسطه على أنه يبلغ من الطول مئة متر وسبعة ومن العرض أربعين وهو على جانب عظيم من الضخامة والمتانة حتى قيل إن مجموع مايتحمله من الثقل يبلغ

١٧٦٠٠٠ كيلو جرام وفي طرفيه أعمدة بديعة الشكل ومن فوقها تماثيل كبيرة من البرونز المموه بالذهب ترمز الى الفنون والصنائع وبأسفل تلك الاعمدة تماثيل أخرى تمثل فرنسا في الادوار التي تقلبت عليها من القرون الوسطى الى عصر لويس الخامس عشر وفي منتصف هـذه القنطرة أثران تمثل أحدهما شعار مدينة باريس والاخرى شعار قيصر الروس ومعلوم أن هذا الجسر هو الذي احتفل بوضع الحجر الاول فيه جلالة القيصر نقولا الثاني لدى زيارته باريس فى ٨ اكتوبر سنة ١٨٩٦ أما أنواع الزخرف الموجودة عليه من الجانبين فحدّث عنها ولا حرج — قوائم بديعة من فوقها مصابيح أنيقة وأ كاليل جميلة وأزهار غريبة تبهر الابصار خصوصاً إذا رآها الانسان فى الليل حيث تنار تلك المصابيح وعددها لا يقل عن ٥٠٨ .

وقفت طويلاً أستنشق الهواء فوق هذه القنطرة الجميلة وأتأمل في ما حوت من أنواع الزخرف حتى اذا شعرت بملل وكلال نزلت الى شاطىء السين وركبت احدى تلك البواخر الصغيرة للعودة الى حيث أقيم وبينما أنا على ظهر الباخرة سمعت الناس يتحدثون باحتفال يعده رجال المعرض في مساء اليوم بميدان حارس ولما رأيتهم يمدحون ويبالغون عقدت النية على حضور ذلك الاحتفال وإن كان التعب قد أخذ مني مأخذاً عظيماً . فلما عدت الى المعرض في منتصف الساعة التاسعة رأيت الناس يتألبون أمام أبواب الدخول والزحام شديداً لدرجة خيل لي معها أن العالم بأسره اجتمع في تلك النقطة وبعد جهاد وعناء دخلت المعرض والناس تدفعني من اليمين واليسار والخلف والامام حتى بلغت برج ايفل وما لبثت طويلاً أطوف بتلك الساحة وأتأمل في تلك الجماهير حتى ابتـدأ الاحتفال فسطعت الانوار الـكهربائية بجوانب القصور وأنيرت المصابيح المعلقة على الاشجار وعلت المياه أمام قصر الماء بألوان متنوعة تبهر الابصار وقصر الـكهربائية كأنه شعلة من نار وبرج إيفل قائم في تلك الساعة بارتفاعه المعلوم كعروس تحيط بها الجموع وتطاول اليها الاعناق والناس تدخل أفواجاً حتى ازدحمت الحانات والمطاعم فضاقت تلك الرحبة على عظيم اتساعها ولم يبق محل للمرور والجولان وما أزفت الساعة التاسعة حتى ابتدأ المهرجان على نهر السين فهرعت الناس الى الجسر والشواطئ لمشاهدة البواخر الرشيقة التي تسبح على الماء بعضها بشكل طير والبعض الآخر على شكل سمكة

أو أهرام أو برج وكلها منارة بأنوار مختلفة ذات ألوان بديعة ومن فوقها الموسيقى تعزف وتطرب ثم مرت صنادل مشتعلة ترسل لهيباً في الفضاء يسمع أصواتاً كأنها مدافع تضرب على سطح الماء. وقد ذكرني هذا الاحتفال بليلة « جبر الخليج » بجهة فم الخليج ولكن الفرق بين الاحتفالين خصوصاً في السنين الاخيرة واضح كل الوضوح . وبينما أنا لاه بهذا القياس رأيت القوم يسعون الى قاعة الاحتفالات فتبعتهم ولما سألت عن السبب عرفت أن جلالة شاه العجم قادم لمشاهدة الاحنفال فلم يمض طويل وقت حتى وفد جلالته محاطاً برجال حاشيته وكان في انتظاره على الباب المسيو بكارمدبر المعرض وباقي موظفيه فسار جلالة الشاه بين هتاف القوم الى قصر الماء ولكن رطوبة الهواء إضطرته لبارحة المكان فانصرف كما حضر مودعاً بالاكرام والاجلال . أما أنا فبقيت رغماً عن شدة البرد ونزول الامطار ولكني رأيت أن أخرج الى مكان يقل فيه الزحام فصعدت الى قصر التروكاديرو حيث تجلى أمامي ميدان مارس (آله الحرب) في غاية الأبهة والجلال فكان المنظر غريباً لم تر العين نظيره ولا أبالغ اذا قلت أن لن يسمح بمثله الزمان . وفيما أنا اتأمل في زينة تلك السراي وأمتع النظر بمنظرها الجميل وما يتلألأ عليها من الانوار اعترضني رجل سوري وناولني اعلاناً يؤخذ من عبارته أن الشيخ عبد الله المصري الذي زاع صيته في معرض باريس وفي معرض ليبزيج سنة ١٨٩٧ ومعرض فيينا سنة ١٨٩٨ موجود في القسم المصري بالتروكاديرو وأنه مستعد لقبول الزائرين لينبأهم بالمستقبل بطريقة لا يعلم سرها سواه كانت مستعملة عند قدماء المصريين أيام الفراعنة فما فرغت من تلاوة ذلك الاعلان حتى هرولت الى مقام ذلك الشيخ الجليل الذي لم أسمع به من قبل فاستقبلني مترجمه وكاتم أسراره المدعو موسى فيتا من سكان القاهرة وطلب مني (بعد أن نقدته اجرة الزيارة خمسين سنتيما) أن أنتظر قليلا فجلست في دركة أمام مقام الشيخ وبعد حين سمعت جرساً يدق علامة على الاستعداد لقبول الزيارة فدخلت ومعي موسى فيتا غرفة لا تزيد اتساعها عن مترين طولاً ومتر ونصف عرضاً وعلى بابها ستار وبداخلها دكة صغيرة بطول الحائط المقابل للباب وعلى اليسار رجل يناهز الاربعين أبيض اللون أصفر الشاربين على رأسه عمامة بيضاء وفوق كتفيه عباءة حمراء وفي رقبته رباط من الحرير الأبيض

مهفهف الاطراف معقود على النمط الافرنكي ولما جلست أشار الى الشيخ أن أضع اصبع يدي اليسرى على الرمل المفروش أمامه ففعلت كما أشار ثم أخذ يتأمل في آثار أصبعي ويذكر عبارات بالعربية وموسى يترجمها لي بالفرنساوية مؤداها انني تعبت في زمن شبابي كثيراً (شأن كل شاب في هذه الدنيا) وأن المستقبل أمامي حسن (نعم البشرى) وانني سأسافر بحراً وبراً (نعم لأعود الى وطني لأن هيئتي تدل على اني غريب) وأن أمراً ذا بال عزيز المنال يشغل غالباً افكاري (لعله الزواج) وانني سأعمر ٧٧ عاماً (سبحان العالم). الى هنا انتهى البناء وفرغ موسى فيتا من الترجمة التي لا تطابق الاصل فخرجت ضاحكاً من ذلك المحتال مستهزئاً بنبواته التي ما أنزل الله بها من سلطان اذ لا فرق بينه وبين « ضرابي الرمل » الذين ترى بعضهم بشارع عبد العزيز جالسين بجانب الاشجار ولكن ساءني أن هذا التمشيخ يدعى العلم بأسرار الفراعنة وقدماء المصريين على انهم وأولادهم برآء منه وقد كان الأحرى به أن ينسب معارفه ان كانت له معارف لغير هذه الامة الجليلة لانها أرفع من أن تشهر بالتدجيل ولكن هكذا أراد الشويخ عبد الله. فلا راد لدعوته ولا معارض له في هذه البلاد قاتل الله الاحتيال وذويه.

وما ابتعدت قليلاً عن مقام الشيخ عبد الله حتى طرق أذني الطبل البلدي والزمار العربي فدنوت منه تعروني هزة المصري المتأثر بتلك النغمات ثم تقدمت اليّ فتاة دمشقية وقدّمت إليّ اعلاناً عرفت منه أن عندهم في القسم المصري تمثيلاً لرواية فتوجهت الى محل بيع التذاكر حيث يجلس مصري (ابن بلد) بزيه المعروف أي بالعمامة والقفطان والجبه وهو يعرف من الفرنساوية ما يكفي لتوزيع التذاكر والمحاسبة على أثمانها فأخذت منه تذكرة ودخلت الملهى فاذا به بناء فخيم مزخرف برسوم وصور مصرية وقد رأيت كثيرين من اخواننا السوريين بعضهم بالقبعات والبعض الآخر بالطرابيش وكان موضوع التشخيص « ليلة في بغداد » يليها « زفة عروس » و «دخول أمير في حريمه» يتخلل ذلك رقص وغناء تقوم بهما فتيات من مصر وسوريا والسودان على أنواع مختلفة مما هو مشهور ومعروف فحضرت كل ذلك ثم خرجت في منتصف الليل على أمل أن أعود في الصباح الى المعرض لزيارة القسم الثاني منه .

باريس في ١٠ أغسطس سنة ١٩٠٠ .

باريس

(٣) [١]

عدت أمس الى المعرض ووجهتي ساحة (الانفاليد) موضع القسم الثاني فدخلت من البوابة الاثرية وسرت في الطريق الواقعة أمامها حتى جسر اسكندر الثالث الموصل لتلك الساحة فرأيت مباني جميلة على الجانبين ويفصل بينهما شارع عرضه ٢٥ متراً وفي منتهاه سراي الانفاليد قائمة بشكلها الغريب ومنظرها العجيب وأول مايلقاه الزائر في هذه الساحة سراي المصنوعات الفرنساوية على اختلاف أنواعها فمنها الاواني المصنوعة في معامل مدينة (سيفر) الشهيرة ومنها الابسطة والطنافس ذات الرسوم البديعة أعجبني منها بساط عليه رسم يمثل مهمة « جان دارك » المشهورة في تاريخ فرنسا وآخر يمثل « ماري انطوانيت » قرينة لويس السادس عشر محاطة بأولادها وهذا البساط مصنوع بنوع مخصوص لجلالة القيصر نيقولا الثاني ويلي ذلك المعروضات المتعلقة بالاثاث وزخرفة العمائر والمساكن فيرى المتفرج أدوات شرفات وموائد ومكاتب ودواليب جميلة الصنع وأبسطة وطنافس وستائر ومنسوجات وأواني من الفخار والخزف والصيني والقيشاني والبلور والزجاج ومعدات التدفئة وأدوات النور الكهربائي والغاز والزيت والاستيلين الذي ستكون له أهمية كبرى في مستقبل الايام. وبعد ذلك يمر الزائر الى سراي الصنائع المختلفة فيرى آلات لصنع الورق على اختلاف أنواعه وما يلحق به من الغلافات وأوراق المكاتيب والدفاتر وورق اللعب والاقلام والمداد وهناك أنواع كثيرة من السكاكين والشوك والملاعق المصنوعة من العاج والذهب والفضة ثم المصنوعات والمجوهرات والاحجار الكريمة واللؤلؤ والياقوت والزمرد وساعات عديدة من الذهب والفضة وأوان من النحاس مختلفة الاشكال والتماثيل الصغيرة من الزنك ومراوح وغير ذلك مما يطول شرحه ويضيق الوقت عن فحصه وذكره .

وعلى يمين ساحة الانفاليد ترى معروضات الدول الاخرى من هذا القبيل وهي النمسا والمجر وايطاليا وسويسرا وبريطانيا العظمى والولايات المتحدة والمانيا واليابان والدانيمرك وبلجيكا والروسيا ولكن الذي يستحق الذكر بنوع مخصوص فى القسم

---

(١) نشرت بجريدة مصر بالعدد ١٣٧٨

الخاص بالدولة الاخيرة الهدية التي قدمها جلالة القيصر للحكومة الفرنساوية وهي خريطة لفرنسا مصنوعة في احدى معامل روسيا من الاحجار الكريمة على لوح من الرخام بطول متر في متر يحيط بها برواز من حجر يقرب من العقيق وقد مثل فيها البحر من المرمر السنجابي الفاتح والاقاليم الفرنساوية من الجوهر المختلف الالوان والانهر من البلاتين والمدن من حجارة كريمة مختلفة الالوان مركبة على ذهب وهاج فترى باريس من الالماس ومدينة روين من الياقوت الاصفر ومرسيليا من الزمرد وهكذا كل مدينة من مدن فرنسا الشهيرة وعددها ١٠٦ يدل عليها حجر كريم أما أسماء تلك المدن والانهر فمكتوبة من الذهب الابريز ويقال إن هذه الخريطة تزن ٣٥٢ كيلو جراماً وأن العمال قضوا في صنعها ثلاث سنوات متوالية وأن قيمتها لا تقل عن أربعة ملايين فرنك ومن رأي العارفين أن هذه الهدية من أبدع ما أبرزته يد الصناع ولذا ترى الزحام عليها شديداً والاعجاب بها كثيراً . أما أقسام الدول الأخرى فملأى بالتحف والطرف مما يدل على تقدم القوم في الصناعة لدرجة غريبة فقد برعت كل دولة في فرع مخصوص يميزها عن الاخرى فترى مثلاً في قسم سويسرا مصنوعات بديعة من الخشب المخروط وفى اليابان انسجة غريبة نادرة المثال وفي الولايات المتحدة مجوهرات مختلفة تبهر الأبصار

الى هنا ينتهي القسم الثاني من أقسام المعرض أما القسم الثالث فتدخل فى دائرته المباني الجميلة الواقعة على شاطئ نهر السين وقد ابتدأت بزيارة الشاطئ الايمن فدخلت أولاً معروضات مدينة باريس الخصوصية وهو بناء غاية في الزخرف يعلوه شعار هذه المدينة من سنة ١٢٠٠ وبداخله حديقة بديعة الشكل وفى جوانبه طرقات عرضت فيها أعمال المصالح التابعة لادارة المدينة ومجلس بلديتها مثل الضابطية والتنظيم والمرصد والتنوير والصحة حين يرى الزائر رسوماً تمثل للعيان عمل التشريح البيطري والامراض المعدية وفى دهليز هذا البناء بهوان فيهما أدوات التعليم الابتدائي وقسم العمارات والمكتبة.

أما الملاهي الموجودة بقرب معرض مدينة باريس فمختلفة كثيرة أخص بالذكر منها « بيت القهقهة » الذي قامت بتشييده ادارة جريدة الضحك المعروفة فى باريس على مسطح يبلغ مساحته ٤٠٠ متر يرى فيه الزائر رسوماً ونقوشاً وصور والعاباً تضحك الثكلى وتفرج عن القلب الحزين كل كربة

وانتقلت بعد ذلك الى معرض الأزهار والنباتات فتخيلت نفسي في حديقة غناء

جمعت من انواع الازهار والفواكه والنباتات مالا أعرف لأغلبه اسما كلها منسقة بنظام عجيب تقر لرؤيته العيون في بقع مغطاة بالواح من الزجاج تقصد من تحتها النار لأن الحرارة لازمة لبقاء تلك النباتات . والذي زادني عجباً أن الأزهار موضوعة بترتيب يمثل أمام أعين الجمهور أجمل وأغرب الأنواع بحسب ظهورها على توالي فصول السنة فلبثت طويلا أمام هـذا المنظر البديع ثم نزلت من ذلك الموضع الى بناء على على شاطىء السين بداخل الماء يعرف عند القوم « بالا كوام» وهو منار بالكهرباء رأيت فيه أنواعا كثيرة من السمك والمرجان والاسفنج ثم صعدت منه الى سطح المعرض فزرت سراي المؤتمرات والاجتماع الاقتصادي التي قامت بتشييدها جمعيات العمال بمدينة باريس وجعلت بها قاعات فسيحة لاجتماع أعضاء المؤتمرات وعددها ١٥٠ يلتقي مندوبوها في هذا البناء للبحث والمناظرة في أهم المسائل الحاضرة تحت رئاسة الموسيو « بوشيه » أحد وزراء التجارة والصناعة السابقين في فرنسا

ثم مررت من هذا السراي الى شارع طويل ممتد على شاطىء السين يدعونه «باريس القديمة » فرأيت به مبان حقيرة وحوانيت صغيرة تمثل هيئة باريس في الزمن القديم كما كانت في أيام فرنسوا الاول وهنرى الثالث فلم يرق هذا المنظر في عيني ولم أهتم له لاني غريب عن هذه البلاد والحق يقال اني قد خرجت من هـذا الشارع آسفاً على الخمسين سنتيماً التي دفعتها للدخول به فعدت من حيث اتيت وبينما أنا افتش على المباني التي لم أزرها بعد وقع نظري على كشك قرأت على بابه هـذه الالفاظ « رقادات الأولاد » دخلته فرأيت به آلات مربعة الشكل واركانها من زجاج وهي موضوعة فوق موائد صغيرة وبداخلها أطفال صغيرة منتعشة بنسيم الحياة وقد ظننت حين نظرتها من الالعوبات التي نراها في مائة الف صنف ثم دنوت منها واخذت اشخص اليها ولا أعلم السبب في وجودها في هذا المكان حتى قربت مني سيدة هي مديرة هذا الكشك فعلمت منها أن هذا الكشك تابع لجمعية خيرية تأسست في سـنة ١٨٩١ بمدينة « نيس » أخذت على عاتقها أن تربى مجاناً الاطفال الذين يولدون قبل الميعاد المحدد للولادة فلا تساعدهم حالتهم الصحية على مقاومة التأثيرات الجوية وذلك على أثر العلم بان عدد الذين يولدون فى فرنسا بهذه الحالة يبلغ ١٥ في المئة بما قدر مجموعه في السنة الواحدة بمائة وسبعة وعشرين الف نسمة. وتنحصر مهمة هذه الجمعية وفروعها في وضع هذه المخلوقات الضعيفة

في جو يوافق حالتها ويضمن بقاءها فيوقدون تلك الآلات ثم يرقدون الطفل على جانبه الأيسر حتى لا يحصل ضغط على الكبد ويضعون بين الجسم وبين الفراش قطعة من المشمع ويتركون الحرارة ترتفع شيئاً فشيئاً حتى لا يتم تغيير فجائي يضر بصحة الطفل أما الغذاء فيحصل بواسطة سكب اللبن في أنف الولد بملعقة مخصوصة ولهم طرق أخرى للنظافة وتغيير الملابس بما يلزم لذلك من الاعتناء العظيم حتى اذا صح الولد وصار في حالة لا يخشى عليه بعدها ردوه الى والديه . ويدل الاحصاء على أن عدد الأطفال الذين نجحت فيهم هذه الطريقة ٨٠ في المائة وهي نسبة عظيمة تذكر بالثناء والشكر الجزيل على القائمين بهذه الأعمال . وجميع أعضاء تلك الجمعية التي أدت خدمات جليلة للانسانية وخلصت أمهات كثيرات من آلام الحزن من السيدات فلا عجب اذا تسابق أولو البر والاحسان ومحبو الانسانية لمساعدة تلك الجمعية حتى نمت وصار لها فروع في جميع مدن فرنسا واوروبا وأميركا ويا ليت رجال الطب في القاهرة يهتمون بانشاء فرع لتلك الجمعية فالحاجة اليها شديدة في بلادنا كما لا يخفى

هذا ما رأيته في القسم الثالث على الشاطئ الايمن لنهر السين أما الشاطئ الايسر فانه حافل بقصور الدول الاجنبية بطول الشارع المعروف بشارع الامم وأول قصر يستلفت الانظار في تلك الجهة قصر ايطاليا لانه مشيد على هيئة كنيسة مار مرقص بالبندقية التي وصفتها لكم في رسالة من اوربا اثناء سياحتي في سنة ١٨٩٨ ويرى الزائر على جدران هذا القصر شيئاً كثيراً من أنواع النقش والزخرف وهي تحتوي على معرض الفنون بايطاليا وتحف وطرف الصنائع فيها وقد اقفلت أبوابه الآن علامة على الحداد لفقد ملك تلك البلاد . ويليه سراي الدولة العلية التي لم يتم بناؤها إلا من زمن قريب لعدم توفر المال لدى شركة المعرض العثماني وانتظارها المساعدة من الدولة نفسها وقد رأيت بهذه السراي أبسطة ازمير وحرائر دمشق وحلي بيروت ومصنوعات الاستانة وسالونيك واوروشليم وبيت لحم وغيرها من الاشياء الشرقية وبالدور الثاني من تلك السراي على جدرانها رسوم تمثل مدينة أوروشليم وقبر السيد المسيح وجبل الزيتون وبيت لحم وغير ذلك من الآثار المقدسة . وهناك عمال سوريون يشتغلون أمام المتفرجين

بصناعة الصدف. ثم يمر الزائر من هذه السراي الى قصر الولايات المتحدة فيرى فوقه النسر الاميريكاني ناشراً اجنحته وهذا القصر مركب من ثلاثة أدوار بالدور الاول قوس نصر يعلوها تمثال بديع يمثل آلهة الحرية على عربة التقدم والارتقاء وبالدورين الآخرين معروضات الولايات المتحدة على اختلافها ويلي هذا القصر قصور للدانيمرك والبورتغال والنمسا والبوسنه والهرسك والبيرو والمجر وبريطانيا العظمى والعجم وبلجيكا والنرويج ولكسمبرج وفينلندا والمانيا واسبانيا وبلغاريا وموناكا واسوج ورومانيا واليونان والصرب ولكل من تلك القصور شكل مخصوص وصنعة تميزه عن الآخرى فاذا أتى الزائر الى آخرها تخيل له انه طاف بجميع تلك البلاد وعاشر أهلها وزار دور التحف والآثار بها. وقد رأيت في بعض تلك القصور ما لا يصح التغاضي عن ذكره ففي قصر النمسا قاعة عرضت فيها الجرائد النمساوية وعددها لا يقل عن ألف ومائتين وفى سراي بريطانيا العظمى (المبني على شكل نزل ملوكي قليل الزخرف كثير المتانة) قاعة استقبال وغرفة لسمو البرنس أوف ويلس اعدت لاقامته حين قدومه لباريس وفيها أيضاً رسم بارز لمدينة لندن من أجمل ما صنع من هذا النوع وفى قصر العجم من السجاجيد الفاخرة ولآلئ خليج العجم ما لا يقوّم بقيمة. وفى سراي المانيا المقامة على شكل كنيسة نخيمة تحف وطرف يندر وجودها. وفى قسم بلغاريا مجموعات ثمينة للبرنس فرديناند وغير ذلك منعني عن رؤيته جيداً ضيق الوقت وزيادة التعب.

بقي عليّ أن أبدي لكم ما رأيته بسراي الجيوش البرية والبحرية الواقعة بين جسر ألما وجسر ايانا حيث ينتهي القسم الثالث من أقسام المعرض غير انى أود أن أذكر لكم قبل ذلك بعض الشيء عن ديوان الجرائد الموجود بتلك الجهة بجانب معرض مكسيكا ففيه مكتبة وجرائد عديدة وقاعات جميلة للمطالعة والمسامرة وتليفون وكل ما يلزم للتحرير والتحبير ولجنة تجتمع تحت رئاسة المسيو دوبوي لتبادل الافكار بين اصحاب الجرائد على اختلاف مشاربها وفيه مندوب مخصوص لاستقبال مراسلي الجرائد الاجنبية وتقديم بعضهم الى بعض ولذلك الديوان سطح فسيح يصعد اليه أرباب الاقلام وأمراء الكلام فيتمثل أمامهم المعرض بكل ما فيه حيث يتسع المجال للوصف والتعبير

أما سراي الجيوش البرية والبحرية فيدخل اليها الزائر من دهليز يرى فيه تمثالين

عظيمين احدهما (لدوجسلان) المعروف في تاريخ فرنسا باسم الكونيتابل والآخر (لبيار) الذي اشتهر بالشجاعة والبسالة فى أيام الملك فرنسوا الاول وقد عرضت بهذه السراى الآلات الحربية ومعدات الهلاك والقتال مثل السفن والمدرعات والمدافع والقنابل والمفرقعات والطوربيد بعضها لفرنسا وبعضها للدول الاجنبية مما يدل على أن صناعة هذه المهلكات تقدمت تقدماً سريعاً فى مدة السنوات الأخيرة وأن الامم تتناظر ويا للاسف فى تلك الاستعدادات ولكن لا عجب فكل واحدة واقفة للأخرى بالمرصاد وقد هالني منظر هذه الآلات المريعة فآثرت التقهقر بانتظام وسلام حيث كانت الساعة السابعة مساء وقد طاف رجال البوليس يدقون الطبل علامة على انه حان وقت انصراف الزائرين .

باريس فى ١٢ — ٨ — ٩٠٠

باريس

(٤) [١]

إذا كان في أقسام المعرض التي ذكرتها في رسائلي السابقة مايفتن العقول ويخلب الألباب ففي ميدان إله الحرب مايبهر البصائر ويقضي بالعجب العجاب . قصدت هذا الميدان وأخذت أطوف في جوانبه وأشخص الى القصور الفخيمة المحيطة به وأسرح الطرف في الحدائق والرياض الموجودة فيه فكان أمامي قصر الماء بمنظره الغريب ومن خلفي برج ايفل بشكله العجيب وعلى يميني سراي المنسوجات والملابس وقصر المناجم والمعادن وسراي الأزياء والطواف حول الارض وعلى يساري سراي الصنائع الكيماوية والهندسية والملكية ووسائط النقل والتربية والتعليم والآداب والمعارف والفنون وسراي البصريات وقصر المرأة والسراي المنيرة وغيرها من الملاهي والمطاعم مما يقضي على المتفرج بالدهش والاعجاب فوقفت ساكتاً لا أدري أي قصر أولى بالزيارة حتى رأيت الزائرين يزدحمون على قصر الماء فدخلت في زمرتهم ولا عجب إذا تكأكأ الناس على هذا القصر الفخيم والأثر العظيم الذي يعد غرة في جبين المعرض فهو أشبه بمغارة

(١) نشرت بجريدة مصر بالعدد ١٨٣٥ فى سبتمبر سنة ١٩٠٠

أقيمت على ارتفاع ٣٠ متراً تحيط بها برك ترسل الماء الى الفضاء فتظهر في الماء بألوان عجيبة مختلفة مثل الماس والزمرد والياقوت ثم تهبط الى حوض كبير حيث تكفي لادارة الآلات الميكانيكية الموجودة في سراي الكهربائية وفي وسط هذه البرك تماثيل كبيرة تمثل الانسان يطأ تحت قدميه الرذائل . ومن خلف هذا القصر سراي الكهربائية قائمة على ارتفاع ٨٠ متراً بحيث يراها الانسان ظاهرة ومن فوقها تمثال الكهربائية واقف في عربة تظهر عنها أشعة التقدم والارتقاء وفي تلك السراي أكثر من خمسة آلاف مصباح مختلفة الاشكال متنوعة الألوان إذا رأيتها مضيئة في المساء ظننت هذا البناء شعلة من نار . وفي جناحي السراي وضعت الآلات التي ترسل التيار الكهربائي الى جميع قصور المعرض فتبدل الليل فيها بنهار وهي دوران خصص الاول لمعرض الآلات الكهربائية الواردة من الدول الاجنبية وفي الدور الأعلى من العدد والآلات مايمثل أمامك كيفية استعمال هذه القوة في التلغراف والتليفون والسكك الحديدية والطب والساعات والمعادن والاشغال العمومية وغير ذلك مما يدلك على الفوائد الجليلة التي عادت على الانسان من وراء اكتشاف هذه القوة العظيمة .

وبين سراي الكهرباء وقصر الماء ممشى يصل منها الزائر من جهة الى قسم الآلات ومن الجهة الأخرى الى قسم الصنائع الكيماوية فرأيت في الاول من أنواع الآلات الضخمة والدقيقة منها مايتحرك بالهواء والماء والغاز والبخار والكهرباء وكلها تدل على تقدم الاختراعات في أوروبا وأميريكا تقدماً غريباً في هذه الأيام أما سراي الصنائع الكيماوية فعرضت فيها الشركات الفرنساوية والاجنبية من المركبات الكيماوية مثل الحوامض والاملاح والادواء شيأ كثيراً وقد أعجبني هنا صناعة الورق حيث رأيت آلة كبيرة للمسيو (داربلاي) تظهر للعيان كيفية هذه الصناعة فقد أخذ العامل أمام المتفرجين قطعة من الخشب ووضعها في آلة فنزلت كالعجين وهي تنتقل من إناء الى آخر وتأخذ في كل شكلاً مخصوصاً حتى صارت أوراقاً كما تراه بين أيديك فعجبت لهذه الصناعة الغريبة وخرجت شاكراً للأحوال التي أسعدتني برؤية هذه الاختراعات. جزى الله أصحابها وعارضيها خير الجزاء.

وتوجهت بعد ذلك الى سراي الهندسة الملكية لوسائط النقل فوقع نظري على

نقش بمثل وسائط النقل التي استعملها الانسان من قديم الزمان الى يومنا هذا فأكثرت التأمل فيه والاعجاب باتقان صنعه ثم دخلت السراي فاذا بها ملأى بمهمات السكك الحديدية والتراموامي والخرط والرسوم وأدوات الرسم وتصليح الطرق وتنوير السواحل وتوزيع الماء والغاز والبالونات بكامل معداتها والعجلات وما شاكل ذلك مما تلذ للغريب مشاهدته ثم أسرعت الى سراي الآداب والعلوم والفنون حيث طاب المقام وطال كيف لا وفي هذه السراي مايمثل أمام الولد مستقبل عمله والشاب نتائج درسه وكده والرجل ثمرات علمه وآدابه والشيخ متروكاته ومخلفاته فقد عرضت في هذه السراي الكراريس والكتب والمؤلفات والرسوم والخريطات وعلى وجه العموم كل معدات التربية والتعليم الابتدائي والثانوى والعالي والتعليم الخاص بالصنائع والفنون والتجارة والزراعة والرسم والجغرافيا والموسيقى والطب والتشريح والشرع وغير ذلك من الفنون النافعة وعلوم العصر وكلها موضوعة داخل الزجاج بأكمل ترتيب وأجمل نظام كأنها تمثل أدوار الحياة .

وما فرغت من زيارة هذه السراي حتى تولاني التعب والنصب بحيث لم استطع بعد الاستمرار على الطواف والجولان فخرجت الى الميدان ابتغاء الراحة واستنشاق الهواء واخذ بعض المرطبات حتى اذا شعرت بتجدد القوة في الساقين هممت بمداومة السير فتوجهت الى سراي الزراعة والمواد الغذائية وهناك رأيت محصولات فرنسا مرتبة لكل أقليم على حدته والآلات الزراعية بجميع أنواعها وما يلزم للفلاحة والحراثة أما المواد الغذائية المعروضة في هذه السراي فتفوق الحصر ولكن الذى يستلفت الانظار عمل البيرة وتكرير السكر وتخمير النبيذ وغير ذلك بحيث يمكن للزائر أن يرى بعينيه عمل هذه المشروبات وأن يتناول جزأ يسيراً مما يعمل بحضرته من انواع المأكل والمشرب مثل الخبز والفطير واللبن والزبدة والحلوى والشراب . أما أنا فقد أعجبتني صناعة الشكولاته بكامل أنواعها من الكاكاو والبن والفانليا والباستليا مما تتوق النفس الى تناوله ويحلو في الحلقوم وقد أخذت منه شيئاً كثيراً

وبين القسم الخاص بالزراعة والقسم الخاص بالمواد الغذائية بتلك السراي قاعة الاحتفالات قائمة على مطبخ من الأرض تبلغ مساحته ٦٣٠٠ متراً بحيث تسع ما يزيد

عن خمسة وعشرين الف شخص وفيها من النقش والرسوم وأنواع الزخرف ما يبهر البصائر ويفوق الوصف فخرجت منها متعجباً مندهشاً مما رأيته بها من آيات التصوير والابداع

بقى على أن أذكر لكم من القصور المهمة الموجودة فى ميدان آله الحرب سراي الملاحة وقصري الغابات والقنص والصيد الواقعين على شاطئ نهر السين فقد رأيت على واجهة الاول رسماً يمثل «نبتون» وآخر يمثل أقسام الارض الخمسة أما السراي فرأيت فيها انموذجا للسفن والمراكب والبواخر والصنادل والزوارق وأدوات النجاة من الغرق والشراع وغير ذلك مما يدل على تقدم صناعة السفن ومالها من الحركة العظيمة في البحار والانهار . والذي يتأمل يرى أن الدول عرضت في هذه السراي دلائل قوتها البحرية فكانت لبريطانيا العظمى المحل الاول لأنها سيدة البحار

باريس

(٤) تابع[١]

أما سراي الغابات والقنص والصيد فواقعة بين جسر (ايانا) ومحطة (سان دوماس) ويرى الزائر على وجهتها رؤوس الحيوانات والاسماك وفي الدور الاول منها آلات الصيد بانواعها وأجناس الاسماك واللؤلؤ والصدف والاسفنج وغير ذلك من مستخرجات البحر وجميع الآلات الخاصة بادارة الغابات وتربية الاشجار وقطع الاخشاب وفي الدور الثاني الطيور على أشكالها والريش بجميع أنواعه والقرون والجلود والعاج وما شاكل ذلك وفي تلك السراي قاعة مخصوصة عرضت فيها انواع كثيرة من الخشب والفلين والقشور والرتنج وغيره مما فاتني معرفته وبها قاعة أخرى خصصت لمعروضات الدول الاجنبية من هذا القبيل

وبعد أن فرغت من زيارة القصور الفخيمة والمباني العظيمة التي أبدع في تشييدها المهندسون وتفنن في زخرفها المصورون فألبسوا كلاً منها شكلاً مخصوصاً بناسب نوع المعروضات الموجودة بها رأيت من الواجب أن أبرح ذلك الميدان قبل الصعود الى برج

(١) نشرت بالعدد ١٣٨٦ من جريدة مصر

أيفل وكنت قد صعدته في سنة١٨٩٨ اثناء اقامتي في باريس ولكنني قصدت الصعود اليه في هذه السنة أن ألقي من فوقه نظرة الى المعرض عملاً بنصيحة الكثيرين فركبت تلك الآلة الرافعة (الاسانسير) وصعدت الى الدور الاول من البرج وأخذت أطوف جوانبه فرأيت بجهة الشمال قصر الملاحة والتجارة ونهر السين فيه المراكب الرشيقة وجسر (إيانا) وسراي التروكاديرو مع حديقتها وقصور المستعمرات الفرنساوية والاجنبية وبجهةالغرب قصر مراكش وخط الاستواء وسراى البصريات ومناظر البحر والبر ومحطة (سان دوماس) وبجهة الجنوب حديقة ميدان آله الحرب وبها قصر الماء العجيب ومن خلفه سراى الكهرباء وعلى اليمين واليسار القصور التي سبق ذكرها عند الكلام على المعروضات التي رأيتها بها وبجهة الشرق في وسط البساتين قصر (سان مارن) وسيام والسراى المنيرة وسراى الازياء وعلى بعد قصور الدول الاجنبية وباريس القديمة وجسر اسكندر الثالث وسراى (الشان اليزيه) فوقفت مدة أجول بنظرى في تلك المباني الفخيمة ثم تاقت نفسي الىالارتقاء .. فصعدت الى الدور الثاني حيث تمثل أمامي ذلك المنظر بأجلى بيان وأكمل شكل غير أني لم أكتف بذلك بل طمعت في العلو فأخذت تذكرة أخرى الى الدور الثالث ولكني ما وصلت اليه حتى أسرعت بالنزول منه لاني كنت أرى ذلك المعرض الكبير صغيراً فلم استطع صبراً على هذا الضيم . . .

هذا ما يراه الزائر من فوق برج ايفل أما ارتفاعه فمعلوم وهو كما لا يخفى من آثار معرض سنة ١٨٨٩ ولكنهم انفقوا على زخرفه في هذه السنة ما ينوف عن مئة الف فرنك وركبوا على جوانبه المصابيح الكهربائية وعددها لا يقل من سبعة آلاف فاذا نظرت اليه على بعد في المساء ظننته مناراً كبيراً قائماً في وسط البحر ولكن الفرق بين هذا وذاك أن الفنار يحذر الناس من خطر الاقتراب منه وبرج ايفل يدعوهم الى المسرات التي تحيط به من كل جانب

بناء على هذه الدعوة توجهت ليله الى السراي المنيرة فاذا بها مصنوعة من الزجاج تتلألأ بها الانوار من الداخل والخارج بحيث يراها الانسان نوراً في نورفاذا صعدت على درجتها أومررت فيطرقاتها أو نظرتالى جدرانها رأيتها مشتعلة من الاولالى الآخر

ومن فوق ومن تحت وقد أخذمني العجب مأخذه من وضع هذه السراي الغريب ثم نزلت الى الدور الأول منها فرأيت القوم يضعون أمام الجمهور أوان وتماثيل غريبة من الزجاج فى أقرب وقت فطلبت تمثال من حصان فعمل وكأس طلا فصنع سيف صغير فانجز كل ذلك وانا واقف في ذهول اشخص الى تلك الصناعة وأعجب ببراعة الصانع في تبديل قطع الزجاج الى ما يطلبه منه المتفرجون من الاشكال والانواع والاغرب من ذلك انه لا يستعمل في تلك الصناعة قوالب مخصوصة يصب فيها الزجاج كما يتبادر للذهن بل يهيئ بمهارته الخصوصية وصنع ايديه تلك الاواني المختلفة فتظهر باجمل شكل وا كمل وضع فتأمل

ثم خرجت من هـذه السراي مندهشاً معجباً فوجدت على مقربة منها سراي البصريات وقد قيل لي إن فيها مناظر أعجب وأغرب فدخلتها مع كثيرين من المتفرجين حيث رأينا مناظر مخلفة تدهش العقول مثل مهاوي المحيط وبطن الارض وأفق السماء وغير ذلك من الخيالات والذى أعجبني في هذه السراى وهو أهم شيء فيها النظارة العظيمة التي يقولون انها تسمح للانسان برؤية القمر على بعد متر واحد وهي مبالغة في أهمية هـذه النظارة على أن واضعهـا المسيو فرنسودولونكل لم يقصد بهذا العمل إلا أن يهيئ أمام أعين الجمهور آلة فلكية تفوق أعظم وأقوى النظارات التي استعملها الفلكيون الى يومنا هـذا فوضع تلك النظارة وقطرها متر وخمسون وطولها ٦٠ متراً وثقلها ٣٠٠٠٠ كيلو جرام وقد أعجبني أيضاً في هذه السراى تمثال من الذهب لاتقل قيمته عن مليون فرنك أما الذى هالني فمنظر رجل حي ظهرت عظامه عارية عن لحمه أمام أعين المتفرجين فهرع الجميع الى قاعة أخرى رأينا فيها عشرين منظراً تمثل تاريخ الارض والتحول الحيواني على رأى « دارون » وقصارى القول انني خرجت من هذه السراى وكأني عائد من سياحة علمية طويلة نزلت في أثنائها الى قاع البحر ودخلت في بطن الارض وصـعدت الى السماء ثم هبطت الى البسيطة فرأيت نفسي (في ميدان إله الحرب) .

وقصدت بعد ذلك الانصراف من المعرض قانعاً بما رأيت ولـكني لقيت في طريقي عند باب الخروج (القرية السويسرية) وقد سمعت من قبل انها فريدة في بابها فلم أر مندوحة من الدخول اليها فاذا بها تمثل بلاد سويسرا بحالتها الطبيعية حيث أقيمت فيها

الجبال والصخور بوضع متقن فى الصناعة وفيها المسالك المنحدرة والوديان الخضراء وبينها القصور البديعة والمراعي الحقيقية وفيها البقر كما هي في تلك البلاد ومن ثمة الجبال تهبط المياه بخريرها المعتاد فتدير الطواحين ثم تتبعثر فتنصرف الى بحيرة صغيرة تمثل (بحيرة الاربع ولايات) ولها منظر يبهج الفؤاد وتقر له العيون وعند سفح الجبل مدينة اقيمت فيها البيوت الجميلة باوضاعها الهندسية الاصلية وبينها البيت الذي قضى فيه (روسو) الفيلسوف الفرنسوي الشهير شبوبيته والمنزل الذي تناول فيه نابوليون طعام الافطار عند مروره بطريق (سان جوتار) وفي هذه المدينة صناع وتجار كثيرون لبيع الجواهر والحلى والساعات وكل ما تبرزه الصناعة في سويسرا ثم ترى الحقول والقرى وسكانها بملابسهم الاعتيادية وبيوتهم المقامة حول الكنيسة والمواشي والرعاة يصنعون الجبن والزبدة وغير ذلك مما يظهر بسويسرا للعيان في قلب باريس وهذا من أعجب ما يراه الانسان في هذه الأيام فخرجت من هذه القرية منشرح الصدر منتعش الفؤاد كأني قضيت اجازتي بتلك البلاد وفي أثناء الطريق لاحت مني التفاتة فقرأت على باب احدى الملاهي هذه اللفظة « فشوده » فتاقني هذا الأسم ودخلت المكان فاذا به ممشى طويل فيه جملة مناظر تمثل تلك الحادثة الشهيرة فترى في المنظر الاول هجوم العصاة على رجال مرشان وفي الثاني نقل مهمات الارسالية من جهة (ماينما) الى (كاجولي) وفي الثالث مرور الارسالية في نهر (سوبب) ببحر الغزال وفي الرابع وصول الارسالية الى فشوده وهجوم المهدويين عليها وفي الخامس احتلال فشوده باسم فرنسا وفي السادس التقاء مارشان وبارتبيه بالسردار كتشنر باشا يحيط به الضباط على ظهر باخرة في النيل وفي السابع استقبال الكولونل مرشان لدى جلالة امبراطور الحبش بأديس ابابا وفي الثامن وصول الارسالية الى ميناء طولون

وفي التاسع استقبال الكولونل مرشان بمحطة ليون بباريس وفي العاشر استعراض في يوم ١٤ يوليو ومرور الكولونل مرشان ومن معه من الضباط والعساكر السنغاليين أمام رئيس الجمهورية وأعضاء مجلس الشيوخ ونواب الأمة وفي هذا المكان احد رجال الارسالية يشرح للمتفرجين ما رآه بالعيان وكلما انتقل من منظر الى آخر استوقفه الناس

وطلبوا منه زيادة الشرح والافاضة في الكلام مما يدل على اهتمام القوم بهذه الحادثة وتشوقهم لمعرفة الادوار التي تقلبت عليها وبجانب (فشوده) قهوة يسمونها (شارع القاهرة) دخلت اليها لعلي أجد بها منظراً من مناظر العاصمة أو أثراً من آثار الوطن العزيز يسليني عن الغربة ولكن وجدت ويا للأسف أن ذلك الاسم على غير مسمى لان هذه القهوة لا تختلف عن غيرها من القهاوي الفرنساوية الا برواء مشروباتها وسوء أخلاق الخادمين بها ولم أر فيها من آثار الشرق غير رجل وامرأة من العرب هو يطبل وهي ترقص فقلت على شارع القاهرة السلام .

باريس

(٥) [١]

ذكرت في رسائلي السابقة أهم ما رأيته في جنان التعليم وساحة الانفاليد وضفتي نهر السين وميدان اله الحرب فلم يبق عليّ إلا التكلم عن « التروكاديرو » موضع القسم الخامس من أقسام المعرض وهو وان كان الأخير الا انه لا يقل في الاهمية عن غيره من الأقسام لا سيما وقد يأتي فيه ذكر المعرض المصري وملاحظاتي عليه

وسراى « التروكاديرو » هذا هو الأثر الوحيد الباقي من معرض سنة ١٨٧٨ فيرى الزائر بجناحها الأيسر متحف النقش وبجناحها الأيمن متحف الآثار التاريخية وبينهما قاعة الاحتفالات المشهورة باتساعها وقد اختارت لجنة المعرض حديقة « التروكاديرو » لوضع معروضات المستعمرات الفرنساوية والاجنبية بها فاذا طاف الزائر بتلك الحديقة وشاهد تلك المعروضات خيل له أنه دائر حول الأرض في بضع ساعات لما يراه من المناظر الغريبة والآثار المختلفة والازياء المتنوعة التي توجد في تلك المستعمرات .

ويقسم القسم الخامس من أقسام المعرض الى شطرين الأول يختص بمستعمرات فرنسا والبلاد التي تحت حمايتها والثاني بمستعمرات الدول الأجنبية ومعارض بعض

(١) نشرت بالاعداد ١٣٩١ و ١٣٩٢ و ١٣٩٣ في سبتمبر سنة ١٩٠٠

البلاد فابتدأت بزيارة « مدغسكر » الواقعة في ميدان التروكاديرو خلف السراى وأهم شئ رأيته فيها رسم « بانورما » يمثل كيفية استيلاء الجنود الفرنساوية على تاناناريف عاصمة الجزيرة في ٣٠ سبتمبر سنة ١٨٩٥ تحت قيادة الجنرال جاليني وبجانب مدغسكر لجهة اليمين « بانورما مرشان » تمثل مناظر الجهات التي مرت بها تلك الارسالية في أواسط افريقيا وغاباتها واويانجي وحريق احدى بلدانها لعصيان سكانها ومقابلة النجاشي وغير ذلك مما يشخص مسير مرشان ورجاله أمام الجمهور بأجلى بيان . ومن هنالك مررت الى معرض الكونغو حيث رأيت ما تمتاز به تلك البلاد من المحصولات ثم عدت الى سراي نظارة المستعمرات فمررت تحت قبة تمثل اسيا وافريقيا واميريكا والاقيانوس ودخلت دهليزاً اقيمت فيه تماثيل لأعظم رجال فرنسا الذين جالوا تلك الاقطار من ابتداء القرن السادس عشر الى الآن . وفي طرف هذا الدهليز حديقة فيها أنواع كثيرة من أشجار المستعمرات . أما السراى ففيها جملة قاعات رأيت باحداها رسماً جميلاً يوضح مواصلات البريد والتلغراف بين فرنسا ومستعمراتها وباخرى مجموعة ثمينة لطوابع البوستة في سائر المستعمرات الفرنساوية وبها ثلاث مجلدات توضح طرق الاستعمار وتقارير خاصة بالمحصولات والوارد والصادر والارساليات العلمية والاكتشافية ويقابل سراى « التروكاديرو » ايوان « لكالدونيا الحديثة » رأيت فيه على الأخص صنف البن وهو من موارد الثروة بهذه الجزيرة ثم زرت معرض «جويان » «والجواديلوب» والمارتينيك والاتحاد أما الهند الصينية فلها جملة مبان منها ايوان الكامبورج الذى يمتاز ببرجه العالي وايوان التونكين والغابات ومعابد الأصنام وسراى محصولات اللوشنتشين وبعض المستعمرات الصغيرة مثل « سان بيير وميكلون » المشهورة بصيد الحوت وساحل الصومال وجيبوتي «ومايوت» «وكومر »وفيها معمل السكر والمستعمرات الفرنساوية بالاقيانوس وعاصمتها «تاييتي» حيث يكثر صيد اللؤلؤ

وبعد ذلك توجهت الى معرض تونس فرأيت به من المباني ما يمثل الآثار الشهيرة بتلك البلاد وكثيراً من انواع المحصولات مثل النبيذ والحبوب والمعادن وفيه جامع يقصده اخواننا المسلمون لاداء الفرض الديني وبجانب هذا المعرض جملة مبان للمستعمرات الفرنساوية الأخرى مثل غينيا وساحل العاج والداهومي وملحقاتها وعلى يمين هذه

المستعمرات كشك جرائد المستعمرات حيث يجتمع اصحاب الصحافة والمشتغلون بمسائل الاستعمار وقاعة كبيرة يأتى اليها السائحون لقص ما اكتشفوه وعرفوه عن اخلاق وعوائد سكان تلك البلاد وخلف غينيا كشك «الاتحاد الفرنساوى» والسنغال والسودان والهند الفرنساوية حيث عرضت المحصولات وأصناف التجارة والصناعة مثل الارز والحبوب والصبغة والفلفل وغيره ويلي ذلك معرض وسائل النقل بالمستعمرات وعمارة الاندلس فى أيام العرب التي يمثل بابها مدخل « الالـكازار » التسهير فرأيت فيها جملة مناظر تمثل حال هذه البلاد فى تلك الأيام وملاه كثيرة وراقصات من اولاد نايل بجمالهن الفتان وملابسهن الفاخرة وسحرة من حملة الثعابين واكلة النار والزجاج وحوانيت عديدة فيها أبضعة غريبة من تلك البلاد ومتحف للصور الشرقية وعجوز تنبئ بالمستقبل فيؤم حجرتها كل غريب وقريب وقد جلست فى مكان بهذه العمارة تناولت فيه فنجان قهوة ذكرنى بقهوة مصر فلذ لي مذاقها واعتدل المزاج وانشرح الخاطر وذهب التعب والنصب فصعدت الى برج هذه العمارة ممتطياً متن حمار من الجبل الاسود حتى وصلت لارتفاع ٤٠ متراً اقتداء بالملوك أيام كان يصعدون الى برج « جيرالدا »على ظهور الخيل ليروا السمس عند غروبها

ثم نزلت من هذا البرج قاصداً زيارة معرض الجزائرفدخلت أول ديوان الحكومة الرسمي وهو بناء على شكل جامع جميل من جوامع الجزائر عرضت فيه أهم محصولات تلك المسنعمرة ورسوم بارزة وصور لمناظر تلك البلاد وعلى يساره الملاهي وهي مجتمع منازل غريبة ومن هناك مررت بشارع مظلم يمثل أحد شوارع المدينة في الزمن الغابر وبجانبيه جملة حوانيت لباعة من الجزائر وفي طرفه قبة يدعونها « باب البايلك »

وبرى أيضاً فى الاستيريوراما المتحركة أهم مرافىء الجزائر وهو اختراع غريب الفضل فيه لاحدالغربيين والربح من داخله عظيم كثير وهناك مكان آخر يقال له «مغارة الذهب » عرضت فيه قطعة كبيرة من هذه المعادن تساوى قيمتها مليون فرنك وأخرى من الفضة بهذه القيمة

وخرجت من معرض الجزائر مندهشاً معجباً بما رأيت فيه ثم توجهت الى معرض الارساليات الكاثوليكية التي ساعدت على نشر لغة الفرنسيس في انحاء الارض وامتداد

نفوذهم في الاقطار الشاسعة فوجدت به من الآثار التاريخية والمؤلفات وأعمال المرسلين والمرسلات بتونكين والصين وسيناغامبيا ومدغسكر والأقيانوس ما يذكر بالثناء على همة أولئك الرجال وماأتوه من الأعمال الجليلة ونشر العلوم والمعارف والآداب بتلك الانحاء

وبعد ذلك بارحت المعرض وقد تخلفت عنه يومين للتوجه الى بعض الأماكن في باريس وضواحيها لزيارة الآثار التي فاتني رؤيتها في سنة ١٨٩٨ فقصدت يوماً مدينة فرساي لمشاهدة حديقتها الغناء وقصرها الجميل حيث رأيت صورة المعلم جرجس الجوهري والشيخ البكري والشيخ المهدي وكلها مأخوذة من مصر أيام وجود نابوليون بها وتمكنت في اليوم الثاني من الحصول على أذنين أحدهما من باشمنهدس صحة باريس لزيارة المجاري والآخر من مدير « الكاتاكومب » لزيارة مستودع عظام الأموات وكلاهما تحت الارض فعرفت على أثر زيارة المجاري فوائدعلمية يطول شرحها ورأيت بمستودع العظام مناظر غريبة لامحل لذكرها الآن

وعدت الى المعرض حيث انتهت بي الزيارة الاخيرة فرأيت في أيوان المستعمرات البرتغالية جملة رموز تشير الى فتوحات الملاحة وبداخله قاعة كبيرة فيها محصولات جزائر «ماديرا» و«الرأس الاخضر» وأقليم «انجولا» في الكونغو « وديوجومار كيز » وموازامبيق « وماكاؤو » في الصين « وديلي » في خليج تيمور بالاوقيانوس ويلي هذا الايوان السراي الصينية المبنية على شكل قصر امبراطور مملكة السماء وبها العمال يشتغلون ببعض الصنائع والتجار يبيعون البضعة من محصولات تلك البلاد ثم قصدت السراي الروسية فوجدتها مشيدة على شكل مدينة روسية وفي وسطها برج يبلغ ارتفاعه ٥٧ متراً وعلى واجهتها وجدرانها رسوم تمثل أشهر الآثار الروسية وبداخلها على اليمين قاعة استقبال مخصصة لجلالة القيصر وأكابر المملكة ويقابل المدخل العمومي قاعة فسيحة وقاعة أسيا الصغرى والى واجهتها جامع سمر قند وعلى يمين ويسار هذه الساحة غرف عرضت فيها محصولات سيبيريا من خشب وطنافس وانسجة وجلود وقطن وأحجار وقطع ذهب ولكن الذي تهم مشاهدته بالآثار الروسية معرض سكة حديد سيبيريا بين موسكو والصين حيث يركب المنفرج عربة سكة حديدية حتى اذا استقربه المقام يمر أثناء ركوبه بجميع الجهات الواقعة على هذا الطريق فيجتاز المدن ويمر على

الجسور وينظر الجبال والغابات بلا انقطاع الى أن يصل القطار الى محطة بيكين فينزل الركاب من العربات حتى يروا انفسهم في وسط القسم الصيني وهذا من أبدع ما أبرزته عقول المخترعين في هذه الايام

وقد توجهت على أثر هذه السياحة التصورية الى معرض مستعمرة الهند لمملكة البلاد الواطئة وهو مركب من معبد « جند يصارى » وبجانبه من اليمين واليسار بيوت تمثل مساكن الاهالي على جبل بادنج بسومترا وفي أحدها مدفن الآلهة الهنود ثم توجهت الى معرض الترنسفال في حديقة التروكاديرو فرأيت به ابواباً تحتوى على الاوراق الخاصة بالمصالح العمومية والتعليم والسكك الحديدية والبريد والتلغراف ومجموعة مالية من المعادن وعدداً عظيماً من آثار « الـكفر » وخلف هذا الايوان حقل يوىرى يمثل مسكن الفلاح الترنسفالى وعلى بعد منه منجم الذهب حيث يشتغل العمال لاستخراج هذا المعدن النفيس . أما معرض المستعمرات الانـكليزية فينقسم الى خمسة أقسام (أولها) الهند على شكل سراى نخيمة يصعد اليها الزائر بدرج من الرخام الجميل ثم يمر في دهليز واسع يوصل الى القاعة الملوكية فيرى مصنوعات بديعة من الخشب الخرط والحجر والحلى والطرف والتحف وفيه قاعة لأرباب الصنائع الهندية وتجار كالـكوتا وأهم مدن هندستان وولايات بارودا وجوالير وبنجاب وفي قاعة اخرى اصناف البن والشاى «والبوت» وغير ذلك من محصولات تلك البلاد (وثانيها) كاندا وعلى جـدرانها رؤوس حيوانات تلك الانحاء وبداخلها مصنوعات من خشب الصنوبر والفراوى الجميلة (ثالثها) استراليا الجنوبية حيث عرضت أصناف الخشب الاحمر ومصادر الذهب (ورابعها) جزيرة سيلان وهي تحتوى على بعض الحلى والأواني وفيها فتيان حسان يقدمن الشاي للزائرين (وخامسها) مطعماً يتناول فيه المتفرجون الأطعمة الهندية

وزرت بعد ذلك سراي اليابان وكلها مركبة من الخشب ومزينة من الخارج بالالوان الذهبية ولها شرفات مدهونة باللون الاحمر الجميـل وعلى واجهتها تماثيل لآلهة اليابان وعلى شبابيكها تماثيل طيور ومن تحتها أشجار اللوطس وقد أقيمت هذه السراي على مثال هيكل قديم يعرف باسم « الـكوندور » بمدينـة « نارا » وتحتوى على معرض الفنون المستظرفة باليابان في الأزمنة القديمة والحاضرة وأشياء كثيرة واردة من السراي

الملوكية ونقوش وتصاوير وحلى ذهبية وغـير ذلك من الغرائب التي يقال انه تصعب رؤيتها في ذات بلاد اليابان لوجودها في متاحف خصوصـية يصعب الدخول اليها وقصارى القول اني رأيت بهذه السراي من المصنوعات الغريبة مايدل على تقدم أهالي تلك البلاد تقدماً غريباً يبيض وجه الشرق ويدهش عقول الغربيين أنفسهم .

بقي عليّ التكلم عن المعرض المصرى الموجود بجانب المعرض اليابانيعلى اني زرته مراراً قبل الآن ولـكني تحاشيت الـكلام حتى أعرف كل مااحتوىعليه فأطيل الشرح وأردفه بالملاحظات التي عنت لي على أثر هذه الزيارات المتوالية .

يشغل المعرض المصرى مسطحاً من الارض تبلغ مساحته ٢٦٤٠ متراًمربعاًبزاوية شارع « مجدبورج » وأمامه رحبـة تبلغ مساحتها ١٤٠ متراً أقيمت فيها تماثيل لأبي الهول والمسلات المصرية وهو ينحصر في ثلاثة مبان (أولها) المعبد وقد أقيم علىمثال هيكل دندره ببلاد النوبة وعلى وجهاته الاربع نقوش بديعة عن هيكل أبيدوسوقصر أنس الوجود والـكرنك وأبي سنبل وغيره مما أبدع فيه المصورونوأنفقتعليه شركة هـذا المعرض الاموال الطائلة فقد أخبرني الخواجه بولاد انهم كانوا ينقدون العامل الفرنساوى خمس فرنـكات عن كل ساعة يقضيها في هذه الصناعة ويصعد الزائرالىهذا الهيكل بدرج يوصل الى بابه الغريب فيدخل الى بهو فسيح تحيط به العمدان البديعة وتزينها صورة الخديوى عباس الثاني وبه قليل من المحصولات المصرية مثل القطن والقمح وفي طرف هذا البهو بابان يوصلان الى الدور الأعلى وتحت الهيكل ممشى طويل يحتوى على قبور قدماء المصريين . رأيت به على الجهة اليسرى رسماً يمثل شخصين وطفلاً يؤدون فروض العبادة أمام آلهة العدل والحقيقة وعلىرأسهذهالآلهة عصابة من ريش النعام رمزاً للعـدالة وهي تبسط يدها اليمنى علامة على الرعاية وعلى الجهة اليمنى الملك أمينوفيس ظافراً منصوراً وعلى بعـد منه الاله أنوبيس يلحظ بعينيه موميته مطروحة على سرير الموت وعلى سقف هذا الممشى صور للعقبانتحومفيالفضاء وهي قانصة رجليها على رموز العدل والحقيقة وعلى جوانب الجدران والاعمدة رسوم تمثل الآلهة والاعيان يقدمون لهم الذبائح ويؤدون لهم فروض العبادة وبهذا الممشى ست غرف في الاولى ثلاث موميات وعلى جدرانها رموز للذبائح والتقدمات وفيالثانية

ثلاث صناديق بأحدها مومية من آثار العائلة التاسعة عشر (١٤ سنة قبـل الميلاد) ورسم يمثل شخصاً ساجداً أمام الثور أبيس ورمزاً لفرعون ماسكاً بشعر زعماء القبائل المنهزمة ويحرك على رؤوسهم أسلحته كأنه يريد أن يذبحهم تقدمة للاله الذى ساعده على النصر والغلبة وبجانب هذا الرمز تمثال آلهة واقفة ترضع أميراً صغيراً وتمثال آخر للاله أمون جالساً على كرسيه وبيده الصولجان والصليب علامة على الحياةا لابدية وفي الغرفة الثالثة مومية لنبية الآلهة « تائيت » وعلى رأسها غطاء مذهب مزين بالـكتابات الغريبة وقد اكتشفت هـذه المومية بطيبة في مقابر العائلة الحادية عشرة وفي الغرفة الرابعة موميات من أيام البطالسة اكتشفت بالفيوم وبجدران هذه الغرفة رسم يمثـل امرأة تضرب على العود وشخصين واقفين أمامها أما الغرفة الخامسة والغرفة السادسة فيحتويان على جملة صناديق وموميات وعلى جدرانهما رسوم تمثل بعضها الالهأوزيريس يزن القلب وحوله ٤٢ من القضاة وامامه المتوفي تقوده آلهةالعدل وآلهة الحقيقة وبينهما الميزان وفي احدى كتفيه ريشة نعام رمزاً الى العدل وفي الاخرى قلب المتوفي وتحت قدمي أوزيريس حيوان يتشخص النار المطهرة وغـير ذلك من الرسوم التي ترمز الى القيامة والحياة الأبدية .

البناء الثاني من المعرض المصرى هووكالة اقيمت بجانب المعبد على مثال وكالة القطن بخان الخليلى ويتصل بواجهتها سبيل على هيئة سبيل الجماليـة وفي حومتها حوانيت لـكثيرين من التاجرين يعد المصريون منهم على الاصابع وعلى ابوابها الباعة لا يكتفون بدعوة الزائرين الى التفرج على بضائعهم بل يمسكون بملابسهم لابتياعها وهو أمر ممقوت لا تراه بالاقسام الاخرى وبحوش الوكالة درج يوصل الى الدور الأعلى حيث توجد قاعة جميلة تمثل بهو سراي الوكالة الفرنساوية بالقاهرة ومع ان الشركة انفقت على صنعها مبلغاً وافراً حتى جاءت آية في الابداع والاعجاب تراها ويالللأسف مهجورة لا يلتفت اليها وبجانبها غرفة اعدت لفتاة أرمنية لا يدين لها ولا ساعدين ولـكنها تأتي برجليها من الاعمال مثل الغزل والنسج والضرب على آلات الطرب على ما سمعت ما يدهش العقول أمام هذه القدرة الغريبة فلما رأت الشركة ان الاقبال عليها قليل وان نفقتها كثيرة أعادتها الى وطنها فأصبحت تلك الغرفة قاعاً صفصفاً

أما البناء الثالث فهو تياترو أقيم على شكل معبد مصرى قديم وامامه العمدان الجميلة وحوله الصروح البديعة مزخرف من الداخل برسوم مصرية وفيه مرسح تبلغ مساحته ٢٤٧ متراً مربعاً تلعب عليه في أغلب الليالي فتيات من مصر والشام والسودان. هذا ما احتوى عليه القسم المصري والحق يقال إن الشركة لم تقصر في اتقان مبانيه وزخرفها على الشكل المصري. وقد علمت أن مجموع ما انفقته يبلغ ٨٠٠ الف فرنك ولكن الربح منه يكاد لا يذكر والسبب في ذلك على ما أظن ينحصر في ثلاثة اوجه (اولاً) إن الشركة لم تهتد مع ادارة المعرض على اختيار مكان أليق بالقسم المصري بدلاً عن وجوده في مكانه الحالي غامضاً في وسط المستعمرات وعندي انه كان يجب وضعه على شاطئ نهر السين بجانب معارض الدول الاجنبية اذ لا فرق بينه في الاهمية وبين قسم المكسيك مثلاً خصوصاً وأن لمصر في العالم المتمدين أهمية في التاريخ والآثار والمحصولات لا تخفى على أحد (ثانياً) إن الشركة قصرت في نشر الاعلانات على الجمهور للعلم بالقسم المصري وما يحتوي عليه من الآثار بل اكتفت بنشر الاعلانات عن التشخيص بالتياترو والشيخ عبدالله الملقب نفسه بالنبي المصري الشهير ويسرني أنها تنبهت أخيراً لهذا الأمر فكلفت سعادة دابينوس باشا وكيل الدايرة السنية سابقاً بتأليف كراسة يوضع فيها ما احتوى عليه المشى من الموميات والرسوم ونقدته في نظير ذلك ٧٥٠ فرنكاً (ثالثاً) إن المعروضات المصرية الحقيقية تكاد لا تذكر لانها لا تتعدى جزأ يسيراً من عينات القطن والقمح كما سبق القول فأين الحصر المنوفية المتقنة الصنع المختلفة الالوان وأين أواني الفخار التي تصنع في فم الخليج مثلاً وأين أنسجة الحرير وصباعته وأنسجة المحلة ومناديلها وأين العبي والدفيات والخيم والصواوين والمقاعد والبراويز المصنوعة من الخشب المخروط وغير ذلك مما لا تعدمه البلاد فقد كان الاليق بالشركة ومن فيها من الاعضاء المصريين أن يستحضروا العمال والادوات اللازمة الى باريس ليمثلوا أمام أعين الجمهور الصناعة المصرية في الوقت الحاضر كما فعلت الاقسام الاخرى وشركة المعرض العثماني. فقد قال لي كثيرون من الفرنسس انه يعار على أبناء مصر ان يعرضوا في القسم الخاص بهم أصناف من باريس وسوريا فاحمرّ وجهي وأطرقت

رأسي خزياً وعاراً وكيف تنتظر الشركة أن يكون لها نصيب في الربح والحال كما ذكرت على إن الذي يتأمل في المعرض العام يرى أنه مجموع صنائع مختلفة ومحصولات متنوعة تسابقت الدول والامم كبيرة كانت أو صغيرة الى عرضها اظهاراً لدرجة ارتقائها وتمثيلاً لوارد الثروة بها. فاذا نظرنا الى القسم المصري نجد أنه خلو من هذه المميزات فكأنه اسم بلاجسم. والذي يوجب زيادة الأسف أن الشركة مع حسن أميالها قد أنفقت أموالاً طائلة فى هذا السبيل ولكنها لا تعرف من اين تؤكل الكتف . وإن مصر لم تظهر بمظهرها الحقيقي وما لها من الاهمية كما كان ينتظره الجمهور فلا عجب اذا رأيت القسم المصري غامضاً فى المعرض والاقبال عليه قليلاً

بقي عليّ أن احدثكم قليلاً بملحق فنسين الكائن حول بحيرة (رومنين) بضواحي باريس فقد توجهت اليه بالسكة الحديدية المعروفة بالسنتير وقضيت فى زيارته يوماً كاملاً والذي أعجبني فيه ساحة كبيرة عرضت فيها شركات ومصالح السكك الحديدية بفرنسا وانكلترا والولايات المتحدة باميريكا والروسيا والمانيا والنمسا وسويسرا أنواعاً كثيرة من العربات والوابورات والاشارات والعدد التلغرافية والتليفونية من أحسن طرز وأحدث اختراع وعرضت فيه أيضاً قومبانية عربات النوم من مركباتها الجميلة التي يختلف حجمها باختلاف الخطوط التي تسير عليها وتركيبها الداخلي بحسب الطقس فى البلاد المستعملة بها ويلي تلك الساحة سراي الاوتومبيل حيث عرضت أجمل وأخف العربات المعروفة بهذا الاسم وكثر استعمالها فى هذه الأيام ثم معرض الدراجات وغير ذلك من هذا القبيل. ومما أعجبني أيضاً بهذا اللحق قرية صغيرة اقيمت فيها بيوت العمال على الطراز الصحي المتبع فى مثل هذه المباني بفرنسا وانكلترا والمانيا والنمسا وبلجيكا وسويسرا وقد تأسست فى تلك القرية شركة أخذت على نفسها تقديم الاطعمة للعمال بأثمان معتدلة وتوزيع الارباح عليهم وهي من الشركات التي يقدر قيمتها المطلعون على علم الاقتصاد السياسى

الى هنا اقصر الكلام على المعرض وما رأيته فيه من الغرائب والبدائع ولم يبق علي إلا القول إنه جاء فريداً فى بابه وقلما يسمح الزمان بمثله فقد حوى من آثار العلم وآيات الصنائع والفنون ما يدل على درجة ارتقاء كل امة بحيث اذا زاره الانسان وتنقل

في مبانيه تخيل أنه طاف حول الارض وشاهد آثار سائر الامم وعاشر جميع الآدميين على اختلاف نزعاتهم وتنوع جنسياتهم . على أن الذي رأيته وكتبت لكم عنه قليل من كثير وكنت أود لو يسمح لي الوقت باطالة الاقامة فى باريس فاستوفى البحث وأطيل الشرح ولكن ذلك على ما أرى يستغرق أياماً وشهوراً وربما حل أجل المعرض ولم انته من الزيارة طبق المرام فاقتصرت على ما ذكر لا سيما وانى عازم على السفر الى انكلترا وبعض البلاد الاخرى قبل عودتى من الاجازة فاعذرونى على هذا التقصير واكتفوا بالقليل للاستدلال على الكثير

ام العواصم

لندن (١)

أعني بها مدينة لندن العظيمة وعاصمة انكلترا الفخيمة قدمت اليها عن طريق « كاليه » فبرحت باريس صباح ٢٠ أغسطس الماضي على القطار السريع وبعد أربع ساعات وصل القطار الى « كاليه » بعد أن وقف بضع دقائق بمدينة « اميان » مسقط رأس بطرس العابد مسبب الحروب الصليبية وفي الساعة ٣ والدقيقة ٥٠ بعد الظهر قامت بنا الباخرة الى « دوفر » وأخذت تسير الهوينا حتى خرجت من المرفأ فسارت سيرها المعتاد وكان البحر هادئاً والجو صحواً فطاف بائع الشاي يقدم المشروب لمن أراد من الركاب ثم جاء أحد عمال الجمرك لتفتيش العفش منعاً للعطل لدى الوصول الى دوفر وهو تسهيل يذكر بالشكر لادارة الجمارك وبعد ذلك دار عامل شركة البواخر لجمع أجرة السفر كل ذلك والركاب جالسون في مقاعدهم يتناولون الشاي ويدخنون حتى اقتربنا الى السواحل الانكليزية فما نشعر إلا وقد تغير الهواء وحجب السحاب النور عن الأبصار وهاج الريح وبرد الهواء ونزل المطر .

غير أن هذه الحال لم تدم والحمد لله طويلاً إذ رست السفينة في الساعة الخامسة والدقيقة عشرين مساء على رصيف الميناء حيث كان القطار متأهباً للسفر فركبت ذلك

(١) نشرت بجريدة مصر بالعدد ١٣٩٨ والعدد ١٣٩٩ في سبتمبر سنة ١٩٠٠

القطار في الساعة ٥ والدقيقة ٤٥ وبعد المسير والمرور من نفق الى آخر والوقوف في بعض المحطات وصلنا محطة شارنج كروس بلنـدن في الساعة ٨ والدقيقة ١٥ وهناك انتظرنا قليلاً ريثما أنزل العفش من القطار فهرول كل لاخذ أمتعته وركبت عربة من ذات العجلتين الى أن وصلت الموضع المقصود في ميدان ووبرن وقضيت تلك الليلة عند عائلة انكليزية دلني عليها صديق مصري خبير بلندن وأحوال المعيشة بها .

وقد أقمت بهذه العاصمة اثنتيعشر يوماً عرفت في خلالها شيئاً كثيراً عن المدينـة وزرت أهم آثارها وأجمل حدائقها وضواحيها وها أنا اليوم أذكر لـكم ما عرفته عنها وشاهدته بها وفاء بالوعد وافادة للقراء الذين لم تسمح لهم الاحوال بهذه الزيارة حتى إذا أتيحت لهم زيارتها في مستقبل الأيام رأوا بالعيان ما أحدثـكم به الآن .

تمتد هذه المدينة العظيمة بجانبي نهر التيمز على مسافة ستين ميلا من مصبه ولـكن اسم « لندن » كان في الأصل لجزء معلوم من تلك العاصمة الهائلة يعرف عندهم الآن باسم ستي أو المدينة وهو يمتد على مسطح من الارض تبلغ مساحته ١١٧ ميلا مربعاً وقد صار مقر الصناعة والتجارة وحركة الاعمال . أما العاصمة فتمتد على مساحة تبلغ ٦٩٨ ميلاً مربعاً وفيها من السكان مايقرب من خمسة ملايين . ولهذه المدينة حكومة ذات شكل مخصوص تماز به عن حكومة المدن الاخرى فهي تتألف من المحافظ « اللورد ماير » ومن أعضاء المجلس البلدي الذين ينتخبهم الاهالي ومنهم القضاة المعروفون باسم « شريف » ومن مجلس عام مؤلف من مائتي عضو وستة أعضاء . ومما تمتاز به لندن أيضاً الجمعيات المعروفة باسم « جيلدس » ومهمتها تنحصر في الدب عن أرباب الحرف والصنائع على اختـلاف أنواعها ومد يد المساعدة للفقراء والمعوزين وملاحظة سـلوك أعضاء كل حرفة وضبط الموازين والمـكاييل والاهتمام باقامة الشعائر الدينية والاحتفال بأعياد القديسين وعقد اجتماعات في قاعات مخصوصة ومنها « جلد هول » محل اجتماع المدينة كما لايخفى . أما الأعمال البلدية الخاصة بالعاصمة دون قسم « الستي » فتقوم بملاحظتها مجالس محلية ولـكنهم صدقوا أخيراً على مشروع يقضي بتقسيم العاصمة الى ٢٨ قسماً يعـين لـكل منها محافظ وقضاة ومجلس عام يكون من اختصاصاته الاهتمام بالتنوير ونظافة الشوارع وملاحظة المحلات العمومية وما شاكل ذلك من الأعمـال

البلدية ويبلغ عدد نواب العاصمة بما فيها « الستي » في مجلس النواب ستين وفيها ماينوف عن الخمسين ألف نفر من رجال الشرطة عليهم حراسة تلك العاصمة العظيمة وملاحظة الأمن والراحة فيها ومنع أيدي المغتالين من السطو على النفائس الموجودة في مخازنها وهم تابعون لوزير الداخلية . أما رجال المطافئ فيبلغ عددهم تسعمائة وهم يمتازون عن زملائهم فى العواصم الأخرى بدقة الالتفات وشدة الحرص على واجباتهم فتراهم دائماً مستعدين لاقل إشارة عند حصول حريق ولكن الخطر الذي يخشى منه أكثر مما ذكر هو الحركة المستمرة في الحارات والازدحام الهائل في الشوارع والطرقات وتوالي العربات من كل نوع وحجم مما يدهش الغريب ويزعج الأجنبي المعتاد على سهولة الجولان في المدن الهادئة والبلاد الساكنة فلا يسعه في مثل هذه الحالة إلا الوقوف ساكتاً باهتاً وأسهل مخرج له من هذه الورطة أن يلجأ إلى أحد رجال البوليس فيلقى منه أدباً كاملاً ولطفاً زائداً فيسهل عليه اختراق هذه الجماهير في الحال لان اشارة البوليس تكفي لايقاف تلك العربات وفض ذلك الاشكال .

أما شوارع العاصمة وأزقتها فليست تحت حصر وكلها مزدانة بالمخازن الجميلة على الصفين وفيها من الاصناف والابضعة مايسد الاحتياجات على اختلاف أنواعها فترى أهم المخازن وأكثرها زخرفاً وأفخرها أبضعة في غرب العاصمة وشوارع المدينة . على أن فى باقي الجهات من حركة الأعمال وأنواع التجارة مايدل على انتشار روح النشاط بسائر أنحاء العاصمة فاذا مررت من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب تتمثل أمامك « لندن » كسوق كبرى جمعت من آثار الصناعة وأصناف التجارة ما لاتراه فى غيرها من العواصم ولو تأمل الطائف فى أحياء المدينة لوجد فى كل منها نوعاً مخصوصاً من التجارة والأعمال فيرى مثلاً تجار الغلال ومحصولات المستعمرات فى شوارع « مارك » و « متسن » وتجار الاموال والسماسرة حول بنك انكلترا فى شارع « لومباردي وشارع الامراء » وادارات الجرائد والمطابع الشهيرة بشارع « فيليب » و « استراند » والمحامين بجانب « لينكلتران » و « جراى ان » والمهندسين فى وستيمنستر وبشارع فكتوريا ورجال الانشاء والتحرير والتصنيف والمصورين فى » جونسوود » وهكذا مما يطول شرحه ويمل القارئ من ذكره خصوصاً وأن أغلب

أسماء هذه الشوارع قديم لايلذ سماعه لغير أبناء هذه البلاد لانه يذكرهم بآثار الاولين ويمثل أمامهم الادوار التي تقلبت عليها هذه العواصم على أنه قد حدثت فيها تغييرات كثيرة وتحسينات مهمة فى هـذا العصر الفكتوري حيث اتسعت طرقاتها وامتـدت شوارعها مما دعت اليه الحاجة على أثر زيادة عدد السكان من سنة لأخرى وقد كانت نتيجة هـذه التغييرات حصول تحسين فى صحة الاهالي فى مدة الخمسين سنة المـاضية ولـكن السبب الأكبر فى ذلك كثرة الرياض والمنتزهات بهذه العاصمة الكبيرة أذكر منها « هايدبارك » و « ريجنتس بارك » و « سان جيمس بارك » و « جنوين بارك » و « فـكتوريا بارك » وغـيرها من الحدائق الموجودة على شاطئ النهر وفى الميادين والرحبات ممـا لاتخلو منه بقعة فى المدينة. ثم اذا عرفنا ان التيمز يمر فى وسط المدينة وبطولها نعلم أن ساكني لندن متمتعون بمزايا صحية عظيمة وأن لاخوف عليهم مهما زاد عددهم وامتدت المباني واتسع نطاق العمران بهذه العاصمة خصوصاً وأن الطريقة المتبعة فى تصريف المجاري من أحسن الطرق الصحية المستعملة فى هذه الايام أما توزيع المياه على سكان المدينة وتنويرها ففي أيدي شركات كبيرة وأغلب الشوارع المهمة والعمارات الـكبيرة والمخازن العمومية منورة بالنور الـكهربائي .

ويصـل العاصمة بباقي أنحاء المملـكة خطوط شركة من شركات سكك الحديد منها أربعة لجهة الجنوب واثنتان للشرق وخمسة للشمال وواحـدة للغرب . أما طرق المواصـلات بذات العاصمة فلها جملة سكك حـديدية بعضها يسير بالبخار وبعضها بالـكهرباء وكلها متصلة بالسكك الحديدية الممتدة لانحاء المملـكة بحيث يتمكن القادم من أي جهة من الوصول الى أي حي من أحياء المدينة هذا فضلاً عما يوجد فيها من عربات الركوب المختلفة الانواع والامنيبوس والترمواي وبواخر التيمز فاذا رأيت تلك القطارات تمر بعضها فوق وجه الارض وبعضها تحت الارض وهذا القطر داخلا للمحطة وذاك خارجاً منها والاول يصفر والاخر يدخن والعربات تجري فى الشوارع والناس تغدو وتروح بلا انقطاع تقف مندهشاً أمام هذه الحركة العظيمة التي لايعرف لها أول من آخر حتى انهم اضطروا منعاً للزحام الى عمل ممرات تحت الشوارع فى بعض المواقع فينزل اليها الانسان وبعد سير قليل يصعد الى الشارع من جهة أخرى آمناً شر صدم

العربات وهو اختراع مفيد حبذا لو عمموه في باقي الجهات مهما كلفهم ذلك من النفقات حفظاً لارواح العباد . ولكن الدخان الذي يتصاعد من المعامل وتلك القطارات العديدة يجتمع بالضباب فيغير جو المدينة ويجعل لعماراتها وبيوتها منظراً كئيباً ثم إن الهواء فى هذه العاصمة لايبقى على حال فتارة يشتد الحر وآونة يجيء البرد وأخرى تطلع الشمس ثم لاتلبث أن تغيب فيحجب السحاب النور وتتساقط الامطار كل ذلك فى اليوم الواحد .

هذا ما وقفت عليه مدة اقامتي في لندن أم العواصم وزعيمة مدن العالم ولكن هنالك أمراً يدهش الاجنبي الا وهو تمام سكون المدينة في أيام الآحاد ووقوف حركة الأعمال بها فاذا مررت في يوم من هذه الأيام بالجزء المعروف «بالستي» رأيت المدينة هادئة لا حركة بها كأنها قرية صغيرة خالية من السكان وتلك المخازن الكبيرة والبنوك العظيمة مقفلة وليس فيها من الادميين غير الحراس والشوارع والازقة مهجورة والسكوت عاماً فلا تسمع إلا دق الاجراس يدعو الناس الى الصلاة والحضور الى المعابد والكنائس التي لا يقل عددها عن الف وخمسمائة لجميع المذاهب والعقائد وفي المساء يخرج الناس الى الرياض والحدائق فمنهم من يجلس لسماع الموسيقى ومنهم من يجتمع في «هايد بارك» حول الخطباء والوعاظ لسماع النصائح والآراء السديدة مما لا يقال إلا في هذه البلاد

أما الآن وقد ذكرت هذه المعلومات العمومية فدعني أن أحدثكم بما رأيته في هذه العاصمة الفخيمة من الآثار المهمة والعمائر العظيمة . وأول أثر قصدت زيارته هو المتحف البريطاني لانه من أفخر متاحف الدنيا خصوصاً وأن به من الآثار المصرية مالا يوجد في غيره فيدخل الزائر الى هذا المتحف من ساحة كبيرة في طرفها درج يوصل الى مدخل قائم على اثنى عشر عاموداً عليها نقوش تمثل ارتقاء الجنس البشري وتقدم المعارف والفنون ثم يمر في دهليز يرى فيه تماثيل عديدة أخص بالذكر منها تمثال أعظم شعراء الانكليز شاكسبير الشهير وفي طرف هذا الدهليز قاعة القراءة في وسط المتحف ومن حولها غرف الكتب وفيها على ما يقال أكثر من ثمانين الف مجلد وتلحق بها غرفة لقراءة الكتب المنسوخة واخرى جمعت فيها جرائد لندن وأهم الجرائد الانكليزية في مدة الأربعين سنة الماضية

أما المتحف في حد ذاته فيضيق الوقت ويعجز القلم عن وصف ما به من الطرف والتحف والآثار والعجائب اذ يلزم لمجرد معرفة ما يحوى عليه جملة أيام وللوقوف على تفاصيل تلك الآثار سنين واعوام فاقتصرت على المرور بقاعاته وقضيت أغلب وقت الزيارة في مشاهدة ما به من الآثار المصرية وهذا المتحف مركب من دورين في كل منهما قاعات هائلة اذا طفت بها ولو على عجل تمثل أمامك تاريخ الأمم القديمة مثل المصريين والبابليين والاشوريين والفنيقيين واليونان والرومانيين وغيرهم فآثار المصريين الموجودة بهذا المتحف تدل على درجة الارتقاء التي وصلت اليها تلك الامة المصرية العريقة في التمدن فقد رأيت في الدور الاول مجموعة الآثار التي أخذت من الفرنسيس عند تسليمهم الاسكندرية سنة ١٨١٠ مع ما أضيف اليها فيما بعد من التحف والهدايا وأكثرها واردة من منف وابيدوس وطيبه وهذه المجموعة التي يندر وجود مثلها فى المتاحف الأخرى تمثل حال المصريين وديانتهم وعيشتهم المنزلية وما كان للمرأة عندهم من الاحترام وعلومهم وآدابهم وصنائعهم فى عهد الممالك الثلاثة وأهم تلك الآثار حجر رشيد وهو من الرخام الأسود قائم فى وسط القاعة وعليه صورة أمر عال من قسوس منف بالتبريك على بطليموس الخامس ملك مصر فى سنة ١٩٥ قبل الميلاد وهو مكتوب باللغات الثلاث المصرية القديمة ولا يخفى أن هذا الحجر وما عليه من الكتابة كان سبباً فى التوصل الى حل طلاسم الكتابة المصرية وقد وجده الفرنسيس سنة ١٧٩٨ فى حصن بجانب رشيد ثم أخذه الانكليز كما سبق القول وأودعوه هذا المتحف سنة ١٨٠٢ . وفي الدور الثاني مجموعة اخرى معروضة فى اربع قاعات وهي تنحصر فى موميات وصناديق وملابس وأغذية تمثل اعتقاد قدماء المصريين فى انتقال أرواح الأموات الى عالم آخر وشدة حرصهم على تحنيط الاجسام واهتمامهم بدفن الموتى وتقديم كل ما يلزم لهم من الحاجات فى الحياة الثانية . ولما كانت الآثار المصرية على جانب عظيم من الاهمية كان لها المحل الأول فى هذا المتحف وكانت عناية رجاله بها كبيرة فوضعوا التماثيل الهائلة على قواعد متينة والموميات والآثار الأخرى داخل خزائن من الزجاج كتبوا عليها بالاحرف الذهبية اسماءها وتاريخها وجهة ورودها.

أما البابليون والاشوريون فتدل آثارهم الموجودة بهذا المتحف على انهم بقوا مدة

أجيال أقوى الأمم فى غرب آسيا ولـكن تاريخهم أقل قدماً من تاريخ المصريين وتمدنهم أقل في الارتقاء. وإن اتساع نطاق ممالـكهم في وادى الدجلة ونهر الفرات جعل لهم السلطة التامة على من جاورهم من الامم مدة طويلة وإن لتاريخهم ارتباطاً كبيراً بتاريخ العبرانيين حيث يرى الزائر على كثير من النفائس والآثار ما يلمع الى الاشخاص والحوادث المذكورة في التوراة.

واذا لم يكن الفينيقيون أمة عظيمة فلا ريب انهم لعبوا دوراً مهماً في العالم القديم فآثارهم في هذا المتحف تدل على أنهم عاشوا من قديم الزمان على سواحل سوريا حيث أزهرت في أيامهم مدينتا صور وصبدا وانتشرت منها التجارة الى جميع شطوط البحر المتوسط والبحر الأسود وقد كانت لهم جملة مستعمرات أهمها قرطجنة التي فاقت شوكتها شوكة رومه ولم يأفل نجمها إلا بعد كفاح عنيد. وقد نشر الفينيقيون التمدن في جميع البلاد التي وصلت اليها تجارهم والفضل لهم في ايصال بلاد البحر المتوسط بعضها ببعض ومعلوم أن الحروف التي ألفوها من مواد مصرية هي أس الحروف المستعملة في اللغات الاوربية الحاضرة.

وعمر اليونان جزر بحر « ايجيه » والساحل الغربي لآسيا الصغرى واستولوا على جملة نقط بجنوب ايطاليا وصقليا وكانت بلادهم منقسمة الى جملة ولايات مستقلة كل تهتم بشؤونها الخصوصية ولم تنضم بعضها الى بعض الا لمحاربة الفرس ورد هجماتهم عن البلاد فصارت اثينا عاصمة اليونان مدة طويلة ظهرت فيها أجمل العمارات وأبدع النقوش التي أبرزتها يد الانسان وقد تدل الآثار الموجودة بالمتحف أن هذه الأمة برعت في الفنون ولم تجارها غيرها في هذا المضمار بخلاف الرومانيين لانهم اكتفوا بما أخذوه عن اليونان فاشتغلوا بالفتح والادارة وقد كانوا في مبدأ أمرهم قبيلة صغيرة على نهر «تيبر» ثم امتدت سلطتهم شيئاً فشيئاً الى انحاء ايطاليا وأخذت تزيد حتى صاروا أعظم مملـكة في العالم القديم خصوصاً بعد طرد الملوك من رومه وتأسيس الجمهورية. وللرومانيين بالمتحف البريطاني آثار كثيرة باقية من أيام احتلالهم للبلاد الانكليزية من عهد الامبراطور كلودبوس سنة ٤١٠ بعد الميلاد وقد عثروا على هذه الآثار في جملة مدن

مثل لندن وكاشستر وينشستر وفي نهر التيمز وأماكن أخرى متفرقة فجمعوها ووضعوها في قاعة مخصوصة .

وبهذا المتحف غير آثار الأمم القديمة أشياء كثيرة مثل صور القديسين والالهة والملابس الكهنوتية التي كانت مستعملة عند البوذيين والبراهميين والمسيحيين ومجموعة من أنواع العملة القديمة ومجوهرات وحلي واواني من الفخار من صنع اليونان والرومان وكوريا واليابان والصين وسيام والهند وايران وقاعة تحتوي على آثار الانكليز في عهد الرومان والساكسون وأخرى فيها آلات ومهمات غريبة من التي كان يستعملها الانسان في حالته الاولية وهي من بقايا العصر الحجري والعصر النحاسي والعصر الحديدي وغير ذلك شيء كثير من انواع الاسلحة المستعملة في جميع البلاد وآثار اميريكا الجنوبية والشمالية والهند الغربية وهناك مكتبة يدعونها بمكتبة الملك فيها عدة كتب مطبوعة تمثل تاريخ فن الطبع من قديم الزمان الى يومنا هذا ويؤخذ من الآثار الموجودة بها أن الصينيين هم أول المخترعين لهذا الفن قبل معرفة طريقة الحروف المتحركة التي توصل اليها جوتنبرج في شهر نوفمبر سنة ١٤٥٥

هذا ما سمح لي الوقت برؤيته في هذا المتحف الجامع الحافل وقد قنعت منه بما ذكر لعلمي أن أيام حياتي لا تكفي للوقوف على تفاصيل النفائس والتحف المودعة فيه وأن مدة اقامتي في لندن قصيرة وبها آثار أخرى تستحق الزيارة أحدثكم بها في رسالة ثانية ان شاء الله .

ام العواصم

(٢) [١]

بعد أن فرغت من الفرجة على المتحف البريطاني رأيت أن أحج الى كنيسة مار بولس فتوجهت اليها في الصباح بطريق السكة الحديدية التي انشئت حديثاً تحت الارض حتى اذا وصلتها وقفت أتامل طويلاً في فخامة هذا البناء وأعجب بهندسة وجهاته وعلو ابراجه ولما دنوت من مدخله أخذتني رهبة الاقدام فخلعت القبعة وخففت وطأة قدمي

(١) نشرت بالعدد ١٤٠٤ من مصر في ١١ اكتوبر سنة ١٩٠٠

حتى لا يسمع لسيري صوت وأخذت أطوف في تلك القاعات المقدسة وأشخص لزخرفة جدرانها وما فيها من دقائق الصناعة وأرسل الطرف الى تلك القبات الشاهقة حتى اذا ملّ النظر وتعبت من طول المسير جلست الى مقعد طلباً للراحة ثم هممت بالصعود الى برج الكنيسة للتفرج على ما حوله الى أن حلت الساعة الثانية عشرة فبرحت هذا المعبد بعد أن عرفت عنه شيئاً كثيراً أذكره بالايجاز

يروي البعض أن هذه الكنيسة أقيمت موضع معبد للالهة « ديانا » من آلهة اليونان ولكن هذه الرواية تفتقر الى الاثبات والمحقق أن الكنيسة شيدت في مكان معبد بناه الرومان عند احتلالهم البلاد وانها هدمت في أيام دقلديانوس مع غيرها من الكنائس فأقيمت مكانها كنيسة أخرى في عهد قسطنطين وبقيت الى أن دمرها عباد الاوثان من الساكسون فاسترجعها أحد الملوك في سنة ٦٠٧ بعد الميلاد ورسمها باسم مار بولس الرسول ولكن الحريق الهائل الذى حصل في مدينة لندن سنة ١٦٦٦ لم يبق لها على أثر فأقام السر « كريستوفرون » على أطلالها الكنيسة الحاضرة في وسط العاصمة على جزء من المدينة وهي تعد ثاني كنيسة في الدنيا فلا يفوقها في الفخامة غير كنيسة بطرس بروما وقد استغرق بناؤها ٣٠ سنة تحت ملاحظة المهندس الشهير « كريستوفر » ويقال ان أحسن شيء كان يوده الرجل في أيام شيخوخته أن يحمله الناس الى مكان يبصر منه أجمل أعماله وهي تلك الكنيسة الفخيمة التي يبلغ طولها ٥١٥ قدماً وعرضها ١٨٠ ودائرتها ٢٢٩٢ قدماً رأيت على واجهتها الغربية نقشاً بارزاً يمثل مهمة ماري بولس يعلوه تمثال ذلك الرسول وعلى بابها الشرقي لوحة من رخام نقشت عليها هذه العبارة : « تحت هذا دفن كريستوفر » مهندس هذه الكنيسة والمدينة بعد أن عمر زهاء التسعين سنة لا لنفسه بل للنفع العام. ومن الداخل رحبة واسعة وأجنحة وضعت فيها تماثيل الأبطال في الحروب البحرية والبرية أذكر منها تمثال الدوك أوف ويلنجتون قائماً من النحاس على اثنى عشر عاموداً وعليه نقوش تمثل الحقيقة تلطم الكذب والرياء . والشهامة تعاقب الجبن . وحول قواعد التمثال أسماء المواقع الشهيرة التي انتصر فيها ذلك القائد العظيم ثم تمثال اللورد « نلسن » متكأً على سفينة وبجانب قدمه اليمنى السبع البريطاني والجانب الآخر بريطانية تشجع رجال السفن للاقتداء

بفعاله وغير ذلك تماثيل كثيرة يطول ذكرها . وفي أحد أطراف هذه الرحبة محل الارغن وفي وسطه كرسي لرئيس أساقفة كنتربري يقابله كرسي المحافظ «اللوردماير» ومن فوق تلك الرحبة قبة نخيمة يبلغ قدرها ٢٤ قدماً يعلوها مصباح عليه كرة وصليب من الذهب وحواليها جملة أبراج في أحدها ساعة جسيمة لها ثلاثة أوجه قطر كل منها ١٧ قدماً وفي برج آخر جرس هائل يقال إنه يزن ١٨ طناً . وفي الجانب القبلي درج يوصل الى قبة الكنيسة ورأيت في الدور الاول مكتبة تحتوي على ثمانية كنوز من الكتب المقدسة وآثار الآباء القديسين وتصانيف كثيرة تختص بجامع الكنيسة وفي الدور الثاني دائرة الهمس « الوشوشة » سميت كذلك لانها مصنوعة من حديد اذا همست عليه من جانب سمع كلامك من الجانب الآخر وتحت قبة الكنيسة قاعة على شبابيكها رسوم تمثل دفن السيد المسيح وفيها مقابر لأغلب الرجال الذين ترى تماثيلهم بالكنيسة أذكر منها قبر نيلسن من الرخام الاسود وفيه نقش مصنوع من خشب السفينة الفرنساوية « أوريان » التي كانت تخفق عليها راية الأميرال الفرنساوي في واقعة أبي قير الشهيرة وعلى بعد قبر الديوك أوف ويلنجتن قائد الجيوش الانكليزية في واقعة واترلو وبجانبه العربة التي حمل عليها نفس هذا القائد العظيم . وفي تلك المقبرة غير ذلك من بقايا أشهر الرجال في بلاد الانكليز ممن خدموا البلاد ولهم في التاريخ اسم يذكر فيشكر

وقصدت بعد ذلك بنك انكلترا وهو ذلك البناء الهائل التي تخزن فيه أموال الامة الانكليزية وكان قصدي أن أتفرج على خزائن الذهب ولكنهم أخبروني أن ذلك أمر عزيز المنال بدون إذن من محافظ البنك أو أحد مديريه ولما لم يكن لي سبيل الى هؤلاء اكتفيت بالمرور بقاعاته العمومية حيث يباح الدخول والجولان فذهلت من ترتيبها ونظامها وكثرة عدد المستخدمين فيها والحركة العظيمة السائدة عليها ثم خرجت من البنك وأخذت أدور بجوانبه فلم أر منفذاً واحداً وهذا وجه الغرابة في بنائه وقد قصدوا بذلك منع الاشقياء من اغتيال ما به من الكنوز ولكن أنى لهم ذلك وقد سدت في وجوههم الأبواب والمنافذ ووقف الحراس بالنهار والجند بالليل يخفرون هذا البناء.

ويقابل بنك انكلترا عمارة جميلة يدعونها « منشن هوس » وهي المقام الرسمي للورد ماير محافظ لندن زرت بها قاعة القضاء حيث كانت الجلسة منعقدة فلبثت حيناً

أرى مجرى التحقيق وكيفية القاء الأسئلة على المتهمين وأجوبتهم عليها ثم ازدحمت القاعة فخرجت الى الباب حيث أخبرني بعضهم أن أهم أثر يجب زيارته بهذه العمارة هي « القاعة المصرية » فهرولت اليها غير منتظر زيادة بيان أو ايضاح فوجدتها مزدانة بالنقوش والرسوم من أبدع ماصنعه المصورون فى بلاد الانكليز وهي القاعة التي يولم فيها محافظ المدينة الولائم الرسمية وفيها من الموائد والقاعد ما يكفي لاربعمائة مدعو فوقفت أتأمل فى تلك الرسوم وأعجب بذلك الاتساع ثم برحتها على أني قصدت السؤال عن سبب تسميتها بالقاعة المصرية ولكن لم يفدني أحد فهل من عارف لهذا السبب ينبئنا به وله الفضل .

ولما خرجت من تلك العمارة أردت أن أجتاز الميدان الواقعة عليه فتعذر عليّ ذلك نظراً للازدحام الهائل والحركة العظيمة ولا عجب فهذا الميدان أهم بقعة فى المدينة والجولان فيه دائم بلا انقطاع وهو أشبه بمثلث تتفرع منه عدة شوارع مهمة منها شارع الملكة فكتوريا وشارع الامراء وشارع الملك ويليم وشارع لمباردوغيره فوقفت أتفرج على مرور العربات على اختلاف أنواعها من هذا الميدان الى تلك الشوارع من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب وبالعكس فلم أخاطر بعمري وآثرت النزول الى ممر تحت الارض سرت به قليلاً حتى وصلت الى الجانب الآخر وهو من الممرات التي أوجبت الحالة عملها فى مثل هذه المواقع وذكرت لكم شيئاً عنها فى رسالتي السابقة .

وتوجهت فى اليوم التالي الى برج لندن وهو أشهر قلعة فى بلاد الانكليز يشغل مسطحاً من الارض تبلغ مساحته ١٢ فداناً تقريباً على شاطئ نهر التيمز حيث كانت قلعة للرومانيين وقد بقى أكثر من خمسمائة سنة مقام ملوك انكلترا فتوّج فيه كثيرون وقتل البعض وسجن آخرون فدخلت اليه من البوابة المعروفة ببوابة السبع حتى وصلت الى « البرج الابيض » وهو أقدم أثر بهذه القلعة به ممشى يبلغ طوله ١٥ قدماً وعرضه ٣٣ وقد أودعت فيه أنواع كثيرة من الاسلحة والملابس التي كان يحملها الانكليز فى حروبهم وعلى الجدران أسماء الذين كانت تستعمل فى أيامهم ومن هذا الممشى وصلت إلى فسحة رأيت بها مجموعة الاسلحة التي أخذها الانكليز مدة حروبهم الأولى فى الهند . ثم انتقلت الى حجرة السر « ولترراليه » وهو رجل أودع السجن أثر تهمة

غير ثابتة وحكم عليه بالاعدام ثم أطلق سراحه لقيادة حملة على أميريكا ولما لم تفلح هذه الحملة أمر الملك بتنفيذ الحكم عليه بعد مضي ١٤ سنة من تاريخ صدوره. وفي تلك الحجرة أنواع الآلات التي كانت مستعملة لتعذيب المسجونين وقطع الرؤوس والشنق في العهد السابق مما لم يبق له أثر والحمد لله في العصر الفكتوري وهو عصر التمدن والارتقاء فخرجت من هذا البرج المخيف قاصداً برج « بوشان » حيث رأيت على الجدران أسماء الاشخاص الذين سجنوا فيه في أزمنة مختلفة . ثم برحته الى « برج الدم » سمى كذلك تذكاراً لفعلة فظيعة أقدم عليها الملك رتشرد الثاني حين قتل أميرين صغيرين من أبناء أخيه الملك ادوارد حتى يخلو له جو الملك . وبمدخل هذا البرج قاعة عرضت فيها التيجان والجوهرات في خزائن من الحديد تحيط به الواح الزجاج فتظهر تلك الدرر بشكلها العجيب ونظرها البديع منها تاج القديس « أدوارد » الذي صنع لدى تتويج الملك تشارلس الثاني وبقى مستعملاً في تتويج من خلفه من الملوك وبجانبه تاج الملكة فيكتوريا اشبه بعصابة انيقة من القطيفة مزدانة بالالماس والحجارة الكريمة وبينها قطعة ياقوت وقطعة زبرجد يقال انهما أثمن ما يوجد من نوعها في هذه الأيام ومع ذلك التاج الصولجان الملوكي وهو مركب من عصا وصليب من الذهب الخالص وفي وسط ذلك الصليب قطعة الماس تدهش الابصار ويوجد بهذه القاعة من معدات التتويج سيفا الرحمة والعدالة واناء الزيت المقدس الذي يستعمل لمسح الملوك وقطعة الماس معروفة باسم جبل النور وغير ذلك من الحلى والجوهرات التي تقدر قيمتها بثلاثة ملايين جنيه

وفي الجهة الشرقية من هذا البرج جسر عظيم على نهر التيمز معروف باسم « جسر البرج » وضع الحجر الاول فيه سمو البرنس « أوف ويلس » بالنيابه عن جلالة الملكة في شهر يونيو سنة ١٨٨٤ واحتفل رسمياً بفتحه في شهر يونيو ١٨٩٤ وهو من الجسور الهائلة القليلة المثال ويقال إن مجموع ماأنفق على بنائه يبلغ ١٨٤٠٠٠٠ جنيه انكليزي وعليه برجان يبلغ ارتفاع كل منهما ١٥٠ قدماً من سطح المياه يصلها ببعضهما من اسفل ومن اعلى جسران اذا فتح الاول لمرور المراكب بقى الثاني ثابتاً لمرور المشاة فيصعدون اليهما بدرج داخل البرجين من ذات اليمين وذات الشمال .

وفي ٢٤ اغسطس الماضي توجهت الى دير وستمنستر حيث يحتفل بتتويج الملوك وبدفن

العظماء ورجال المملكة وأشهر قوادها وشعرائها واربائها وعلمائها وكل من تعتز به البلاد وهو قائم تجاه مجلس الامة على طول ٥٢٠ قدماً وعرض ٢٠٠ قدم تقريباً وله جملة ابراج يبلغ ارتفاع اكبرها ٢٢٥ قدماً وبه مماش فسيحة يظن الزائر انها عملت بهذا الاتساع نظراً للاحتفالات العظيمة التي تقام بالكنيسة وعلى زجاج الشبابيك صور تمثل موسى وهارون واباء العهد القديم والمسيح والرسل وغيرهم من القديسين أما الذين دفنت بقاياهم بهذا الدير فكثيرون اذكر منهم «بيت» و«فيكس» من رجال الدولة المشهورين وغلادستون الذي يغني ذكر اسمه عن تعريفه «وستيفنس» « وبرتل » « وتريفثك » من المهندسين الكبار وهناك تماثيل عديدة منها تمثال ستانهوب القائد العظيم واسحق نيوتن والسر ولترسكوت وجون هنتر وتشارلس كنجسلي مؤلف رواية « هايبشيا » فيلسوفة الاسكندرية وشاكسبير وتنيسن الشاعر المعروف وملتن صاحب « الفردوس المفقود» وماكفرسن وتشمبرلن أول من الف دائرة معارف باللغة الانكليزية وكرومويل وفرنكلين وغيرهم مما يطول شرحه .

وعدت من دير وستمنستر قاصداً متحف الصور «ناشيونال جاليري» فاستوقفني ميدان «ترافلجار» الممثل للواقعة التي انتصر فيها الاميرال «نيلسن» في جهة «الطرف الاغر » ببلاد الاندلس وهو ميدان فسيح جميل قال عنه السير « روبرت بيل » أحد رجال الدولة الانكليزية انه أجمل ميدان في أوروبا ولكني أرى أن ميدان «الكونكورد» بباريس حيث اقيمت المسلة المصرية أولى بهذا الوصف على أن ميدان ترافالجار وإن كان أقل اتساعاً وجمالاً لا يقل عنه في الابهة فترى بأحد جوانبه عاموداً يبلغ ارتفاعه ١٧٧ قدماً يعلوه تمثال ذلك الاميرال الشهير وعلى جوانب قاعدته نقوش تمثل وقائع النيل وسان فنسان وترافلجار ويقال إن مجموع ما انفقته الامة لاقامة هذا الأثر يبلغ ٢٨٠٠٠٠ جنيه حتى سنة ١٨٤٣ وخلفه تمثال آخر لغوردون بطل الخرطوم وغيره من مشاهير القوم فوقفت أتأمل في صنع هـذه التماثيل وأطوف حول ذلك الميدان وأعجب باهتمام القوم بتخليد ذكر الابطال والاعتراف بفضل ذوي النبل من الرجال . ثم توجهت الى متحف الصور الكائن شرقي ذلك الميدان فاذا به يحتوى على ١٥ قاعة علقت بجدرانها صور كثيرة لاشهر المصورين فى جميع الأجيال على أن العهد ليس ببعيد على تأسيس

هذا المتحف ولكن القوم بذلوا في هذا السبيل المال الكثير والهدايا النفيسة حتى بلغ ما صرف لابتياع الصور التي أودعت فيه الى سنة ١٨٧١ ـ ٢٣٧٠٠٠ جنيه عدا ٧٠٠٠٠ جنيه صرفت بعد ذلك وغايتهم أن يوجدوا في عاصمة بلادهم متحفاً يضارع متحف اللوفر في باريس ودرسدن بالمانيا وبروكسل وامستردام فجاء متحفاً نفيساً يعد من أعظم متاحف الصور باوروبا

ولما كان ٢٥ أغسطس يوافق السبت وهو اليوم الذي تباح فيه فى أكل اسبوع زيارة قصر البرلمان أو مجلس الامة رأيت من الواجب ان انتهز هذه الفرصة فتوجهت اليه مع كثيرين بتذاكر مخصوصة توزع مجاناً على الباب فاذا به عمارة نخيمة تحتوى على جملة قاعات بعضها لمجلس اللوردات وبعضها لمجلس النواب ولولا التكرار لأطلت الشرح في وصف ذلك البناء وأسهبت الكلام عن البرلمان الانكليزي وتاريخ تأسيسه ونظامه وكيفية اجتماعاته . وقد قضيت بعد ظهر ذلك اليوم فى التفرج على معرض النساء بجهة « ارلس لورت » حيث قامت لجنة مؤلفة من عقيلات أشراف الانكليز ببسط أعمال النساء في هذا الجيل مما يدل على أن نجاح كل امة موقوف على ارتقاء حالة المرأة بها وانها أينما سارت انتشر التمدن وصفا العيش وعمّ الهناء فليسمح لي القارئ أن أذكر طرفاً من تاريخها في العهد السابق وابين درجة العلم والمعرفة التي وصلت اليها فى هذه الأيام مما رأيته ممثلاً فى ذلك المعرض الجميل وليس غرضي أن أبدي ما كانت عليه المرأة فى العهد السابق من الرق والاستعباد بل أن اثبت بالادلة التاريخية انها دلت من قديم الزمان على صفات تمكنها من مجاراة الرجل فى جميع الاعمال والمهام فقد أسست بابيلون امرأة وصلت بسمو ادراكها وسعة معارفها وحكمتها الى درجة عظيمة من القوة والاقتدار فعمرت المدن واقامت الجسور وفتحت الطرق واسلمت بنفسها قيادة الجيوش وبالجملة فقد كانت أول العاملين على نشر التمدن ببلاد آسيا ومصر وتلك الارض التي ظهر بها اولئك العقلاء واستنار من علومها ومعارفها اليونان والرومان ولم تبلغ من الثروة والتمدن قدر ما بلغه فى عهد آخر ملكاتها التي كانت تعتقد أن المعارف أس ارتقاء الممالك فاعادت تلك المكتبة النفيسة التي احرقتها يد ذلك الرجل الاحمق ومن قبلها كانت النساء يشتغلن خارجاً عن البيوت بكثير من المهام مثل التجارة وغيرها

تاركات أعمال الغزل والنسج للرجال وهل فات القراء ذكر هاييتيا التي وصلت الى درجة فائقة في العلوم والمعارف فهي التي كانت تدرس الفلسفة بالاسكندرية وتلقي المقالات على جمهور العلماء فكان يقصدها الطلاب من جميع انحاء الشرق ويستشيرها القضاة والحكام في المسائل المهمة أما في بلاد اليونان فكانت المرأة في بدء التاريخ خاملة لا يعتنى بتربيتها ولكنها ارتقت كثيراً في عصر « بيريكليس » فقد دلت أعمال « ازيازيا » قرينته أن المرأة قادرة على مجاراة الرجل في تدبير الممالك فترك لها ادارة شؤون اثينا فساستها بحكمة بالغة وذاع صيتها في المعارف والآداب حتى كان يؤم مجلسها العلماء والشعراء فيدور البحث ويحلو الكلام ومن ذلك العهد أخذت المرأة اليونانية في الارتقاء فتعلمت البلاغة والبيان وكانت تلقي الخطب على الجمهور . وفى رومه اشتهرت المرأة بالجد والعمل ليس فقط فى ادارة البيوت بل وفي انواع كثيرة من الصناعة وقد كانت « لورنيلس » مثال الشهامة والعفة في عصر عمّ فيه الفساد وهي التي خلقت لرومه ولدين أدخلا اصلاحات مهمة فى البلاد . ثم ظهرت الديانة المسيحية فرفعت المرأة من درجة الانحطاط التي كانت بها ووضعتها بمساواة الرجل وكانت لها فى جرمانيا منزلة عظيمة ومقام كبير حتى انتشر فى القرون الوسطى المثل القائل « اكرم الرب ثم المرأة » وبعد ذلك ظهرت «جان دارك» فى فرنسا ومعلوم انها استلمت قيادة الجيوس فى السابعة عشرة من سنها وأظهرت من الوطنية ما خلد لها الذكر العاطر فى البلاد ثم قامت اليصابات فى اسبانيا تشجع الاكتشاف والاختراع وتذب عن الدين والعلم والفلسفة فقد كانت حاشيتها مدرسة للفضيلة والادب وهي التي سهلت لكريستوف كولومبس سبيل اكتشاف اميريكا ولا تنس « ماري تيريز » امبراطورة جرمانيا فقد كانت أعظم نصير لنشر العلوم والآداب ففتحت المدارس ووسعت نطاق التجارة وشجعت الصناعة حتى أحبها الأهالي فلقبوها بأم الرعية .

واذا حولنا النظر الى نساء الاندلس نرى منهن كثيرات برعن فى الادب والبيان فى عهد فرديناند وقد كانت عائشة أعلم نساء عصرها بالشعر والرياضيات والطب وعلوم ذلك العصر حتى قال عنها أحد المؤرخين انها « بحر علم وجبل عظمة ومحيط معارف»

وامتازت فى ايطاليا جملة نساء بالبراعة فى الفنون المستظرفة والانشاء والادب فقد كانت « ماري اجنيزي » مدرسة فى كلية بولونيا سنة ١٧٦٣ ولكن النساء أظهرن فى الجيل التاسع عشر من سعة الاطلاع وجميل الخصال ما جعل لهن المحل الاول والمنزلة السامية فى الاجتماعات والاحتفالات فمؤلفات ماري « سومرفيل » فى انكلترا تعد من أحسن المؤلفات التي أبرزها العقل البشري فى هذه الأيام واشتهرت «كارولين هرسل » بابحاثها الفلكية ودلت «هاريت » فى مؤلفاتها على رقة الاحساسات فقد قومت المعوج ودافعت عن الضعيف وطعنت فى الباطل وذبت عن الحقيقة وأبدت «فلورانس نايتنجيل» من الخدم فى حرب القرم ما يذكر لها بالثناء العاطر فقد خففت آلام المصابين واهتمت بتحسين حالة الجند وترقية المستشفيات على القواعد الصحية فكانت خير قدوة للسيدات الذين يأتين الآن بمثل هذه الاعمال فى الحروب الحاضرة

وقصارى القول إن المرأة وصلت فى هذه الايام الى درجة غريبة من التقدم والارتقاء ولا عجب فقد انقضى الوقت الذي كان يعتقد فيه الناس انها ضعيفة بطبيعتها لا قدرة لها على مجاراة الرجل في ميدان الاعمال ومن كان في ريب من ذلك فليزر معرض النساء بمدينة لندن حيث يقدر عناية الامهات برضاعة الاطفال واهتمامهن بتربية الاولاد ودرجة تقدم السيدات في الصناعة من غزل ونسيج وحياكة وتطريز ونقش وتصوير واشتغالهن بتوسيع نطاق التجارة وتفننهن في زينة البيوت وجلب الهناء والسرور الى العائلات واقتدارهن على البحث والخطابة والانشاء وادارة الشؤون ومعالجة المرضى والجرحى وغير ذلك مما عرض فى قاعات ذلك المعرض الواسع وطرقاته وممراته فيدل على أن المرأة أثرت تأثيراً حسناً فى جميع مظاهر الحياة ومما يزيد فى أهمية هذا المعرض أن فيه مكاناً يدخل اليه الزائر باجرة مخصوصة فيرى نساء من جميع الملل وكل واحدة فى مقام مخصوص كما هي فى بلادها بزيها الاعتيادي وحالة معيشتها الطبيعية وما تشتغل به من أنواع الصناعة فتمر بتلك السيدات المختلفات الزي والقد والحسن والجمال وتنظر وتسمع ولكن لا تتكلم لان هذا غير مباح وكأنهم أرادوا أن يستكملوا معرض النساء فنقلوا من قلب أفريقيا الى وسط أم العواصم قرية من جهة دارفور يدعونها فنسوده والدنكر ذكرى لغوردون وكتشنر ونجت فتراها بعشتها ونسائها ورجالها وأولادها واوانيها

المنزلية ومصنوعاتها وعدد النساء الموجودات بها خمسون يمثلن نساء تلك الانحاء ويقال انهن ميالات الى العمل كثيرات الارتباط بمنازلهن ومن صفاتهن الجرأة واحتمال المشاق فيشتركن فى المعارك والحروب وفى المساء يجتمعن بساحة تلك القرية على شكل دائرة يرقصن ويغنين كحالهن فى افريقيا حتى اذا انتهى هذا البسط وقفن يمعن المتفرجين تذاكر بوسته عليها صور تلك القرية السودانية وأمر هذه النساء موكول الى رجل اسرائيلي يحسن الكلام بالعربية أظنه من سكان القاهرة هذا وبمعرض «ايرلز كورت» غير ذلك ملاه كثيرة وألعاب متنوعة تستميل الزائر الى التفرج عليها ولكن ذلك يستلزم وقتاً طويلاً ونفقات ليست بقليلة فآثرت الانصراف مكتفياً بما رأيت .

ام العواصم

(٣) (١)

خرجت فى يوم الاحد ٢٦ اغسطس الماضي وفى نيتي الاستمرار على زيارة ما بقي من آثار المدينة ولكن وجدت جميع العمائر مغلقة والمخازن مقفلة والشوارع ساكتة والمدينة كلها هادئة لا شيء فيها يدل على الحركة العظيمة التي كانت بها أمس فقفلت راجعاً بصفقة المغبون ولبثت حتى تناولت طعام الغذاء وبرحت المنزل بعد الظهر للتفرج على قاعة « البرت » الملوكية التي قصد البرنس البرت قرين الملكة بناءها بعد انتهاء معرض سنة ١٨٥١ لتكون مجتمعاً لبعض المؤتمرات ومعرضاً لآثار الفنون والمعارف ولكن المنية أدركته قبل أن يخرج هذا المشروع الى حيز الوجود فقامت لجنة تحت رئاسة ابنه سمو البرنس اوف ويلس وانجزته ولا عجب فهم قوم صدق عليهم قول القائل « اذا مات منهم سيد قام سيد» . وفى شهر مايو سنة ١٨٦٧ وضعت جلالة الملكة الحجر الاول لهذه العمارة الفخيمة وكان تمام بنائها فى سنة ١٨٧١ وبلغ مجموع ما انفق عليها ٢٠٠ ٠٠٠ جنيهاً وهى عمارة مستديرة الشكل يبلغ قطرها سبعون قدماً ولها ٢٦ مدخلاً وفيها قاعة واسعة يقال انها أكبر قاعة في الدنيا ترى حواليها المقاعد والغرف على هيئة

(١) نشرت بجريدة مصر بالاعداد ١٤٠٨ و ١٤٠٩ و ١٤١٠

مدرج وفي وسطها ارغن عجيب من أجمل ما يوجد من نوعه فبقيت مع رفيق لي اتلذذ بسماع تلك الالحان حتى الساعة السادسة فبرحنا المكان الى حديقة « هيد بارك » حيث رأينا تجاه تلك القاعة تمثال « البرت » قائماً على قاعة كبيرة من رخام يصعد اليها بدرج من جميع الجهات وحواليه صور عديدة تمثل أشهر رجال الصنائع في سائر الازمنة وفي كل زاوية من قاعدته تماثيل ترمز الى الصناعة والزراعة والتجارة والعمارة . أما التمثال في حد ذاته فمصنوع من النحاس المذهب وهو يمثل الأمير جالساً وعليه حلة فارس ومن تحته على زوايا الدرج تماثيل ترمز الى اوروبا واسيا وافريقيا واميريكا ومن تحتها هذه الالفاظ مكتوبة بماء الذهب «من الملكة فيكتوريا ورعيتها الى البرت البرنس القرين اعترافاً بالجميل لحياة انقضت فى النفع العام » فوقفنا مدة نتأمل فى صنع هذا التمثال البديع ونعجب بما حواليه من النقوش الجميلة ونقرأ ما عليه من الكتابات ثم سرنا الى هيد بارك يحدث كل منا الآخر باعتراف القوم بالجميل . فذكرت لرفيقي مترجماً عن العربية قول الشاعر :

وكل امرء يبدي الجميل محبب   وكل مكان ينبت العز طيب

أما هيدبارك فحديقة كبيرة تمتد على مسطح من الارض تبلغ مساحته مايقرب من ٤٠٠ فدان تخترقها بحيرة يدعونها « سربانتاين » وقد جمعت من الأزهار والخضرة النضرة والطرق الواسعة والميادين الرحبة ماجعلها المنتزه المحبوب لسكان لندن وزائريها فيخرج اليها العظماء والأمراء والأشراف والأغنياء وعامة الأهالي ألوفاً ومئات في أصيل كل يوم وخصوصاً يوم الاحد للتمتع بمناظرها البديعة واستنشاق الهواء في طرقاتها وميادينها الجميلة ولا سيما ذلك الطريق المعروف باسم « روتن رو » حيث تزدحم العربات والفرسان . أما ركاب العجلات من الرجال والسيدات فلهم طريق مخصوص يجرون فيه من اليمين إلى الشمال ومن الشمال الى اليمين ولا خوف عليهم ولا خطر من صدم العربات أو مقابلة الخيل. وفي « هيدبارك » تمثال اكتتبت في إقامته نساء لندن تذكاراً للدبوك أوف ويلنجتن ورفاقه في الحروب وبجانبه ممر فيه أنواع كثيرة من أجمل مايوجد من الزهر في أم العواصم وفيها أيضاً منزل لجمعية النجاة من الغرق ولا يخفى انها من أنفع الجمعيات في العالم وفي مساء يوم الاحد تجتمع خلق كثير

بميادين تلك الحديقة حول الخطباء لسماع آرائهم في في السياسة والدين والأدب فكأن هذه الحديقة منتزه ومدرسة فى آن واحد وهذا مايميزها عن باقي المتنزهات في العواصم الأخرى . ثم برحت هيدبارك وتوجهت مع رفيقي إلى كنيسة يسوع بميدان «وبرن» لحضور صلاة العشاء حتى إذا انتهت قام راعي الكنيسة وألقى موعظة ضمنها كثيراً من الحكم وختمها بالدعاء لجلالة الملكة وعائلتها ورجال حكومتها وطلب الرحمة للذين داهمهم الموت فى ميدان القتال فأمن عليه الحاضرون .

وفى يوم ٢٧ قصدت التفرج على حديقة الحيوانات المعروفة عند أهالي لندن باسم (ذو) فرأيت بها من أنواع الحيوانات والطيور مالايقع تحت حصر ولا أذكر لاغلبه أسماء وفيها بيوت مخصوصة للفيل والزرافه وجاموس البحر والحمير والأسود والنمور والقرود والأسماك والطيور على أشكالها والحشرات والدواب ومن تلك البيوت بيت بني حديثاً لحمير الحبش بلغ مجموع ما أنفق عليه ١١٠٠ جنيه وفي الحديقة ما يزيد عن مائة ملاحظ للاعتناء بتلك الحيوانات وتقديم مايلزم لها من الأغذية فى أوقات معلومة وبمقادير محدودة من الحشيش والشعير والقمح والفول والأذره والخبز والكعك والفطير واللبن والبقسماط والبيض والاسماك واللحوم والبطاطس والعنب والموز والتفاح والكمثرى والبرتقال والبلح والبندق والقاوون وغير ذلك من أنواع الأغذية حسبما يوافق كل حيوان وطير . والذي أعجبني من تلك الحيوانات (الاورانج أوتانج) لما كان يبديه من الحركات والاشارات والاعمال التي تدل على انه لايفترق عن الانسان في غير النطق حتى كدت أعتقد صحة رأي « دارون » فخرجت مندهشاً من ذكاء ذلك الحيوان معجباً باعتناء القوم بترتيب هذه الحديقة واهتمامهم بجمع سائر أنواع الحيوان والطير بها مما جعلها من أهم الأماكن التي لاتفوت زيارتها الأجنبي فضلاً عن ابن البلاد

وفى أصيل ذلك اليوم قصدت زيارة قصر البلور الشهير بملاهيه فركبت القطار من محطة فيكتوريا وكان وصولي اليه بعد نصف ساعة فوجدته مصنوعاً من الزجاج وقد أقامته شركة على مثال قصر البلور الذي أقيم فى معرض سنة ١٨٥١ . وأدخلت فيه جملة تحسينات فجاء آية فى الجمال والكمال ترى فيه البحيرات والحدائق والمقاعد حين

يجلس المتفرجون لسماع نغمات الموسيقى . وفى الليل تنار تلك السراي بالكهرباء وتوقد فيها الالعاب النارية فى أيام معلومة من الأسبوع فتزيدها جمالا على جمال وتدعو أهالي لندن للاقبال عليها فتزدحم بهم على اتساع رحباتها وهي مركبة من جملة أدوار يصعد اليها الزائر بدرج أو بالآلة الرافعة وفيها الطرق الجميلة يحيط بها أزهار أنيقة على شكل غريب وفى وسطها الحياض ترسل الماء الى الفضاء على ارتفاع ٢٥٠ قدماً . وفى كل دور منها قاعات للموسيقى والتياترو والتصوير والمطالعة وغيرذلك. ومن أجمل ما رأيته بها رحبات فيها أعمدة جميلة تمثل الصناعة فى مصر وبلاد اليونان وروما والاندلس فى أيام العرب والقسطنطينية وعهد النشأة بايطاليا وكلها من أجمل ما صنع من نوعها والحق يقال إن هذه السراي جمعت من أنواع الملاهي والمناظر العجيبة ماجعلها فريدة فى بابها فبقيت فيها مع صديق مصري صادفته هناك على غير ميعاد الى أن حلت الساعة العاشرة من مساء ذلك اليوم فعدنا معاً ونحن نتحدث بتلك المناظر وتفنن القوم فى لندن بها .

وفى يوم ٢٨ أغسطس تفرجت على متحف « كنسنجتن » الجامع لآثار العلوم والفنون فرأيت فيه جملة قاعات بعضها ملأى بالتماثيل البديعة وبعضها بالصور الغريبة وأخرى بالمؤلفات المختصة بتلك الفنون وغيرها بالعلوم والآداب وهناك مدرسة للرسم والتصوير وأخرى لتمرين مدرسي هذين الفنين .

وفى المتحف قسم خاص لمصنوعات الهند رأيت فيه الاواني التي تستعمل فى الطقوس الدينية بتلك الانحاء وأبسطة من القطن والكتان وشيلان كشمر وملابس للرجال والنساء وغير ذلك مما يمثل حالة الهنود وصناعتهم وكيفية معيشتهم وفى ذلك القسم السجادة التي استعملت فى « دلهي » يوم الاحتفال بتولية جلالة الملكة امبراطورة الهند وأرغن عجيب كان ملكاً لأحد الهنود وهو مصنوع على هيئة نمر يفترس ضابطاً بريطانياً .

ثم انتقلت من ذلك المتحف الى سراي التاريخ الطبيعي القريبة منه وهي سراي فخيمة يقال إن مجموع ما أنفق عليها يبلغ ٤٠٠٠٠٠ جنيه فمررت تحت قبوة يدعونها قبوة القرود الى قاعة فسيحة يبلغ طولها ١٧٠ قدماً وعرضها ٩٧ وبها تماثيل لأشهر

أساتذة التاريخ الطبيعي من رجال الأمة الانكليزية وفي طرفها دُرج صعدت اليه فرأيت أمامي تمثالاً هائلاً ورأيت عليه اسم (تشارلس دارون) ثم أخذت أطوف في قاعاتها فوجدتها غنية بأنواع الحيوانات والاسماك والمرجان والطيور والنباتات والزهور والحشائش والمعادن مما لم أر له مثيلاً من قبل فخرجت معجباً بهذا المتحف الذي يقال انه أجمل متحف من نوعه في الدنيا ولا عجب فالانكليز قوم جابوا الارض من مغربها الى مشرقها والبحار قاصيها ودانيها فأودعوا هذه السراي ماعثروا عليه في الارض واستخرجوه من قاع البحر .

أما يوما ٢٩ و٣٠ أغسطس سنة ١٩٠٠ فقضيتهما في التربص بضواحي لندن مع شاب الماني كريم الأخلاق عالي التربية وهو دكتور في الفلسفة على انه لم يتجاوز الثانية والعشرين وقد قدم لندن قصد الاقامة بها بضعة أشهر للتمرن على التكلم باللغة الانكليزية وسماعها عن أهلها على انه يقرأها ويفهمها جيداً . فتوجهنا في صباح يوم ٢٩ الى جهة « همرسمث » في عربة الامنيبوس ومنها ركبنا الترامواي الى حديقة النبات بناحية كيو وهي من أجمل ضواحي لندن فوجدناها متسعة الأرجاء تبلغ مساحتها ٧٥ فداناً وفيها أماكن مخصوصة لانواع النباتات والأشجار مما يستفيد منه خصوصاً طلبة علم النبات ولا يخفاكم إني لست منهم . ولكن الذي أعجبنا بها شجرة صنوبر أصلها من كاليفورنيا يبلغ ارتفاعها ١٥٩ قدماً ويقال انها أعلى شجرة في الدنيا وشجرة أخرى يبلغ ارتفاعها ٥٠ قدماً يدعونها باسم شجرة نابوليون وقد كانت فرعاً صغيراً حينما أحضرت في سنة ١٨٥٢ من البقعة التي دفن فيها ذلك الامبراطور بجزيرة القديسة هيلانة وغيرها أشجار كثيرة تقر لها العيون وتنشرح لها الصدور ومن تلك الحديقة توجهنا بطريق الترامواي الى « ريتشمند» فاذا بها تفوق « كيو » لما تحتوي عليه من محاسن الطبيعة حتى تغزل في جمالها الشعراء وهام بحبها طلاب الخلوات أما البستان الموجود بها فحدث عنه ولا حرج نظراً لجماله واتساعه حيث يمتد على مسطح من الارض تبلغ مساحته ٣٠٠ فدان تقريباً ويحيط به سور يبلغ طول دائرته ٨ أميال وفيه البحيرات والقصور للأمراء والاشراف وعلى جانبي طرقاته المقاعد تظللها الاشجار فاستمالنا جمال هذه البقعات وطاب المقام وطال ولكنا لم نر مندوحة من مبارحة ذلك البستان الى سراي « هامتن كورت »

القائمة في وسط حديقة غناء تحيط بها مياه التيمز من ثلاثة جهات والسراي المذكورة من أجمل القصور الباقية الى الآن فنرى بداخلها الرحبات الواسعة والغرف الملوكية وعلى سقوفها وجدرانها صوراً عديدة لاشهر المصورين في مواضع شتى وقد أعجبنا منها غرفة رأينا على سقفها صوراً تمثل اله الحرب وآلهة الجمال وآلهة الحب وغرفة أخرى فيها مرآة موضوعة بميل مخصوص يجعل صورة الغرف الأخرى تنعكس فيها وغير ذلك من الصور الجميلة مما أبدع فيه المصورون ثم نزلنا الى الحديقة للتفرج على كرم العنب في بناء مخصوص وهي شجرة غرست في أيام الملك جورج الثالث سنة ١٧٦٨ فبقيت الى الآن موضوع عناية خدام مخصوصين لانها من أحسن ما يوجد من نوعها في الدنيا فتثمر في كل سنة أكثر من ثلاثة آلاف عنقود ولكنهم لا يحملونها أكثر من ١٢٠٠ حتى اذا نضجت بلغ وزنها من ٥٠٠ الى ٦٠٠ رطل ونظراً لشهرة هذه الشجرة ترى الازدحام عظيماً على مكانها ويقدرون عدد زائريها في كل يوم بستة آلاف فلبثنا مدة نعجب بعظم تلك الشجرة وامتداد فروعها وما عليها من العناقيد ونكثر من الاستفهام عن تاريخها حتى جاء وقت الانصراف فعدنا الى لندن كما حضرنا منها وبعد تناول طعام العشاء توجهنا الى التياترو المعروف باسم «تياترو الملكة» حيث كان الممثلون يمثلون رواية «السكرتير الخصوصي» فاجادوا حتى أتت الساعة الثانية عشر فخرجنا وكل يذكر رفيقه بما سمعه من النكات وما شاهد من الحركات .

وقصدنا مدينة « وندزور » وهي تبعد عن لندن مسافة ٣٥ دقيقة بطريق السكة الحديدية فزرنا قصر جلالة الملكة وما يلحقه من المباني والحدائق مبتدئين بكنيسة ماري جرجس وهي على صغر حجمها آية في الزخرف والجمال ثم صعدنا الى قلعة وندزور فرأينا من فوقها هذه المدينة وضواحيها في بقعة يجدر حقيقة أن تكون مقاماً للملوك والعظماء وبعد ذلك قصدنا غرف السراي حيث يباح الدخول بتذاكر مخصوصة تعطى مجاناً اثناء غياب حاشية جلالة الملك فكنا ننتقل من قاعة الى أخرى تحت قيادة أحد حراس السراي بكل وقار واجلال وقد أخذ الاعجاب منا كل مأخذ لما رأيناه في تلك الغرف من المقاعد الفاخرة والطنافس والحلى والطرف واسرة الملوك والاواني الذهبية والموائد الغريبة الصنع والهدايا الثمينة التي اهديت لجلالة الملكة في عيد اليوبيل

والاسلحة التي غنمها القواد الانجليز في الحرب ومن بينها في دهليز السراي بعض الاسلحة التي اخذها اخيراً اللورد كتشنر من المهدي واتباعه في حرب السودان وكأنها وضعت في تلك السراي اعترافاً بفضل أولئك الرجال وتمثيلاً لجليل اعمالهم أمام ملكة تلك البلاد فلا عجب اذا تفانى القوم في خدمة المملكة وبذلوا النفس في توسيع سلطتها وامتداد نفوذها في سائر الارجاء والانحاء .

ولما اصبح يوم ٣١ تأهبت لمبارحة لندن ولكني عدت فآثرت البقاء للاقاة همام مصري له على الايادي البيضاء فحظيت بمقابلته وقمت بواجب الوداع لدى سفره من محطة « واترلو » قاصداً باريس ثم انثنيت راجعاً الى المنزل لقضاء تلك الليلة على عزم السفر في صباح اليوم الثاني الى أوستند لاسيما وانه لم يبق لي من اجازتي غير شهر وفي نيتي زيارة أهم مدن بلجيكا الشهيرة بصنائعها والمانيا الشرقية وما على شواطئ نهر الرين من المدن الجميلة والمانيا الجنوبية وما فيها من المدن الشهيرة مثل فرنكفور ومونيخ وعاصمتي النمسا والمجر وما بهما من آثار التاريخ والمعارف الفنون حتى اذا تمت لي هذه السياحة المفيدة عدت اليكم

المتحف الجديد (١)

كنت أود من صميم الفؤاد أن اكون في عداد الزائرين يوم الاحتفال بافتتاح المتحف الجديد لاشترك في اداء واجب التهنئة للالهة والعظماء والقدماء بسلامة الانتقال الى مقامهم الجديد ولكني رغماً عن شدة رغبتي لم أحصل على المرغوب لاقتصار الدعوة على نفر قليل من اصحاب المراكز العالية فلزمت قسراً السكوت وفي نيتي أن أقوم بهذا الواجب ريثما تسمح لي الظروف

(١) مقالة نشرت بجريدة مصر في ٢ ديسمبر سنة ١٩٠٢

بزيارة خصوصية اعتذر فيها للآباء والأجداد عن هذا التقصير وأقدم لهم ما يليق بهم من واجبات الاجلال والتكريم .

ويسرني أن ابشر اخواني بانه قد تم لي ذلك في الاسبوع الماضي فما أتت الساعة التاسعة من الصباح حتى هرولت الى هذا القصر الفخيم القائم في وسط ذلك البستان الجميل ووقفت أحدق بمقلتي الى واجهته البديعة واحاول ان أقرأ ما رسم على جدرانها من الحروف الذهبية ولكني لم أتمكن من ذلك لعلو الجدران وقصر نظري فاكتفيت بالاعجاب خصوصاً وأن موعد الزيارة قد حان والخدم وقوف بالباب في الانتظار فتقدمت شامخاً عالي الرأس كبير النفس وبينما أنا أتهيأ للدخول أشار لي بعضهم فأدركت أن الدخول غير مباح قبل اداء بعض الرسوم فنقدتها خمسة قطعة واحدة عن طيب نفس لعلمي انني سألقي بداخل الدار من حسن الوفادة ما يعوّض عليّ أضعاف اضعافها . والذي هوّن عليّ الأمر ظريف لقيته بالباب اهداني بدليل تمكنت بواسطته من الوصول بسهولة الى كبار الالهة وأعاظم الملوك ومشاهير الامراء وعمد البلاد . وأخص ما عرفته من هذا الدليل الكريم وأقصه عليك اليوم أن هذا القصر يحتوي من الجهة القبلية عند مدخله على رواق مستطيل يقال له رواق الشرق العظيم تعلوه قبة جسيمة ويمتد جناحاه للشرق والغرب وأمامه دهليز يعرف بالدهليز ذي الاربعة أعمدة ينزل منه الزائر بدرج الى حوش قائم على خمسين متراً تقريباً ومنه يصعد الى دهليز آخر فرواق عظيم مقابل للرواق القبلي وهذان الرواقان تصلهما ببعضهما من الشرق او الغرب صفان من القاعات تعرف كل منها بحرف مخصوص من حروف الهجاء الافرنكية وقد رتبت فيه بقايا الالهة والملوك والامراء على شكل غريب لم أعرف له مثيلاً

من قبل فرأيت للقواعد القائمة عليها آثار كل حقبة لوناً مخصوصاً يميزها عن غيرها من آثار الازمنة الأخرى وهي بدعة في المتحف الجديد يستحق عليها مبتكروها الثناء والشكر من جمهور الزائرين

أما وقد شرحت لك ما أتحفني به ذلك الدليل من البيانات النافعة فدعني أقص عليك ما لقيته لدى مروري بتلك القاعات الجليلة . غير اني أريد أن أذكر لك أمراً أعاد الى ذهني حادثة يذكرها المصريون بالحزن الى الآن فقد رأيت في طرف الرواق العظيم من الجهة الغربية تابوتاً جميلاً للملكة « نيتوكريس » . ولا يخفى أن هذه الملكة ابنة بساميتيك الاول ذلك الملك أكرم وفادة الأجانب وسهل لهم الاستيطان بوادي النيل فكانت مقدمة لسلطتهم على مصر من ذلك العهد المشؤوم . ولما تذكرت ذلك لم استطع صبراً على الوقوف بجانب ذلك التابوت. على أن صنعه بديع يستحق التأمل والامعان ولكني كما تعلم سريع التأثير لا قبل لي على الضيم فتحولت عنه الى القاعات العربية لعلي أجد فيها ما يؤاسيني أو يسليني فما دخلت بالقاعة المعروفة بحرف B حتى لقيت أمامي الملك «خفرع» أحد ملوك العائلة الرابعة جالساً في وسط المكان وهو موضوع اكرام واعجاب جميع الزائرين وكأنه كاسف البال يندب سوء حظه لان بعض الحاذقين اتهموه بالعسف فقالوا انه بخس الناس حقهم وأهضم اجورهم فابتنى لنفسه الهرم الثاني على نفقة الفعلة المساكين وقد تمكن منهم هذا الزعم حتى اخرجوا جثته وكسروا تابوتها ورموها الارض احتقاراً وازدراء . وبينما أنا اتأسف لمصاب هذا الملك واجادل بعض الزائرين بما يدرأ عنه تلك التهمة لاحت مني التفاتة فرأيت شيخ البلد معاصر الملك «خوفو» والناس من حوله يعجبون بجميل خلقته وكمال

صنعه وعظيم مهابته ولولا الموانع لقبلت رأسه اجلالاً ووقاراً . كل ذلك والرجل واقف على قدميه متكئ على عصاه كأنه يريد أن يبقى هكذا طول الايام موضوع اكرام واعجاب السابقين واللاحقين فبعد أن وفيته حقه من الاحترام هممت بمبارحة تلك القاعة ولكن الكاتب المتربع استوقف نظري بعينيه المرصعتين كأنه يريد أن يناقشني الحساب عن اسباب تقصيري في عدم المرور به . على انه من الرجال المعدودين المشهود لهم بالبراعة وسعة الاطلاع والدقة في الارقام لا سيما في حسابات « الصنف » كيف لا وهو القابض على دخل ومصرف المخازن العمومية وعليه المعول في توزيع محصول الاطيان بين المالك والزارع والموظف وغيرهم من رجال الدولة الفرعونية . فلما رأيته يقرأ ورقة من البردي ويكثر في التفكير آثرت الانصراف حرصاً على وقته الثمين وسرت الهوينا حتى وصلت الى القاعة المعروفة بحرف F فرأيت الامير « راهوتبو » والاميرة «نوفريت» من امراء العائلة الخامسة فمثلين في وسط المكان فوقفت أعجب لكمال الامير وجمال الاميرة واتأمل ذلك الوجه المليح وتلك الطلعة البهية وبقيت هكذا أعجب بتلك المحاسن حتى سمعت جلبة وضوضاء كثيرين باحدى القاعات المجاورة فهرعت اليها واذا بعدد عديد من الزائرين يدورون حول مقبرة هارهوتبو المشهور وكلهم بين معجب ومندهش لفخامة تلك المقبرة واتقان صنعها وحسن وضعها وبهاء الالوان والنقوش المرسومة عليها وبقائها هكذا رغماً عن مرور الأيام وكر الاعوام. والذي زاد الزائرين اعجاباً التماثيل البديعة التي تحيط بتلك المقبرة وعددها تسعة وكلها لاوسرتسن الاول أحد ملوك العائلة الثانية عشرة وهو صاحب المسلة المشهورة في المطرية التي يرجع تاريخ بنائها الى ثلاثة آلاف سنة تقريباً

قبل الميلاد . أما أنا فوقفت أعجب للنقوش البارزة المرسومة على جوانب تلك التماثيل وهي تمثل طوراً النيل وتارة الالهين « حور » و « ست » يضمان معاً النباتات التي ترمز الى الوجهين القبلي والبحري . ولكن الذي قضى عليّ بالاندهاش ما رأيته بالقاعة حرف M من آثار العائلتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة المشهورتين بآل رعمسيس أصحاب الهمم العالية والمآثر الجليلة فمن تلك الآثار حجر امنوفيس الثالث الذي يسميه اليونان « بالممنون » وهو الذي انشأ على ضفة النيل الغربية تجاه الاقصر معبداً لم يبق من آثاره إلا تمثالين كان يقال إن احدهما اذا اشرقت عليه الشمس اخرج صوتاً يستمر مدة من الزمن وهي الحكاية التي ألمع اليها اللورد دوفرين في تقريره عن مصر في سنة ١٨٨٣ عند الكلام على الفلاح المصرى حيث قال «إن الفلاح كممنون مصر القديم الذي لم يلبث ان تأثر حين اشرقت عليه شمس التمدن الحديث فارتجت شفتاه ولكنه لم يخرج بعدُ صوتاً » ومنها حجر تحوتمس الثالث وعليه من الاعلى صورة الملك يقرب القرابين للالهة وتحتها عبارات مدح وتنشيط موجهة له من «آمون» اله طيبه ومنها تمثال عجيب «لخونسو» أية في الحسن والدلال وقطعة من تمثال « لامنمحوتب » الثالث يمثل هذا واقفاً وهو يقدم لامون محصولات الارض والنيل من قمح ولوتس وطيور مائية وغير ذلك وهناك أعمدة وتماثيل عليها من الكتابات ما أفاد التاريخ فائدة لا تقدر لها قيمة فأخذت أتنقل من عامود لعامود ومن تمثال لآخر وأطيل النظر في تلك البدائع حتى كلت الاقدام من استمرار السير وملت العيون من اطالة النظر وتعب العقل من كثرة التأمل فهبطت الى مقعد في الرواق البحري حيث انتهى بي الجولان وما عادت لي قواي حتى استأنفت

المسير فأثرت بذلك الرواق حجر طيبه الشهير الذي ورد فيه لأول مرة ذكر بني اسرائيل وتغلب الملك منفتاح عليهم والحكاية معروفة ومشهورة ولكن الذي يجب ملاحظته أن ذكر هذه الحادثة بتاريخ الفراعنة يوافق زمن خروج بني اسرائيل من أرض مصر كما جاء في التوراة .

ومن ذلك الرواق مررت بالقاعة حرف P فوجدتها ملأى بالقرود وما شاكلها من تلك الرؤوس المخيفة فهالني منظرها على اني لم أخش ذات أبي الهول القائم في وسط تلك القاعة وهو التمثال البديع الذي كان موضوعاً بمدخل متحف الجيزة لو يذكر الزائرون بل وقفت أعجب بصنعه. ثم انتقلت الى القاعة T فرأيت بها حجر بطليموس الثالث المشهور بتجريداته على سوريا للأخذ بناصر شقيقته الملكة برنيس وهو الملك الذي أحبه المصريون لانه استرجع لهم من الفرس تماثيل الآلهة المصرية . وفيها أيضا كاهن أمون العظيم وفيها بيان جميع ممتلكاته والحجر المعروف باسم نوكراتيس اكتشفه دولة الأمير حسين باشا كامل (صاحب العظمة مولانا السلطان)وأهداه للمتحف في سنة ١٨٩٩ .

أما القاعة حرف U ففيها غطاء لتابوت أحد الكباش المقدمة لمدينة مندس (أشمون) وعلى مقربة منه سرير من الصوان الاسود للاله أوزيريس وجده المسيو أميلينو العالم الافرنسي الشهير في خرائب أبيدوس (العرابة المدفونة) وللآن لم تتفق آراء العلماء على تاريخ قدمه . وتحتوي القاعة X على آثار ملوك نبتا (عاصمة الأثيوبية) الذين استولوا على مصر في الجيل الثامن قبل الميلاد ففيها تمثال عجيب للملكة « أمنيرتيس » صاحبة الرقة والعفاف وتمثال جميل للاله أوزيريس وآخر للظافر « طاهاركو » وعليه علامات

الشجاعة والاقدام وغيره للمستشار « مونتونيمات » اكتشفته سيدة انكليزية حين زيارتها لمدينة طيبه في السنين الاخيرة .

بقى عليّ أن أقص عليك بعض مارأيته بالقاعات الشرقية من آثار اليونان والرومانيين أيام حكمهم على أرض مصر فأهمها اللوح المشهور باسم « كانوب » (مدينة بجوار أبي قير) القاضي بأن تكون عبادة بطليموس الثالث باللغات الهيروغليفية والديموتيقية واليونانية وهناك حجر آخر روماني دلت عليه ابحاث الكبتن ليونس في خرائب أنس الوجود عند شلال اصوان سنة ١٨٩٧ وعليه كتابات بثلاث لغات تذكاراً لنصرات الضابط « جاللوس » في أعالي الصعيد وتمثال للامبراطور « كاراكلا » مرتدياً بلباس الفراعنة وغيره تماثيل عديدة يطول شرحها .

وآخر مارأيته في الجهة الشرقية الآثار القبطية وهي تدل على أن زمن الفنون المصرية القديمة قد انقضى وأعقبه عصر ظهرت فيه فنون جديدة موافقة لظهور دين جديد فاضمحلت الآثار الوثنية وقامت مقامها صور تمثل مظاهر الديانة المسيحية من ملائكة وقديسين وصلبان وغير ذلك من الأشكال الهندسية التي تدل على أن هندسة الأبنية قد وصلت في عصر الاقباط الى درجة عظيمة من الجمال والكمال فوقفت طويلاً أعجب لتلك الآثار وأقابل بين الحاضر والماضي وبعد طول التردد انتهى بي الأمر الى أن كفرت ببتاح وأمون وإن كانا من آلهة آبائي وأجدادي الأولين وخرجت من المتحف كما دخلت اليه قبطياً حراً مؤمناً بالله العظيم .

متحف للآثار المصرية

في مدينة هلدسهايم [1]

أما وقد عدت من مدينة « هلدسهايم » بعد أن حضرت الاحتفال بافتتاح ذلك المتحف المصري فأنا قائم بما وعدت شارح بالايجاز ما سمعت وما شاهدت .

قضى المسيو « بليوزايوس » صاحب اليد الطولى في تأسيس هذا المتحف مايزيد عن الثلاثين سنة وقد قام في خلالها بانجاز عدة مشروعات مهمة وأعمال مالية كبيرة عادت عليه بالربح الوافر حتى صار الآن من أصحاب اليسار . على أن اشتغاله بهذه المهام لم يقلل من رغبته في جمع الآثار الثمينة وقد أصبحت لديه مجموعة مهمة منها فرأى أخيراً أن أحسن وسيلة للتصرف فيها اهداؤها الى مدينة « هلدسهايم » مسقط رأسه وبلد آبائه وأجداده .

وتبعد هذه المدينة عن « هانوفر » بمسافة ساعة بالسكة الحديدية وقد وصلت اليها يوم ٢٨ الماضي وفي صباح اليوم الثاني قصدت محل الافتتاح فركبت عربة الترامواي مع آخرين من المدعوين وابثت أنتظر من يعطي لي التذكرة ويحصل الاجرة كالمعتاد فلم أر تذاكر توزع ولا محصلاً يطالب بنقود . ولما قربنا من جهة الوصول سألت عن السبب فدلني بعضهم على ثقب من خارج العربة يلقي فيه الداخل أجرة الركوب وليس من يرى ولا من يسمع .

قلت واذا ركب أحدهم ولم يدفع فماذا تكون الحال . قال محدثي إن

---

(١) من مقالات نشرت له في اغسطس سنة ١٩١١ بعنوان «ايامي السابعة في أوروبا»

الاهالي هنا قد شبوا على الصدق وتعودوا دفع هذه الاجور من تلقاء أنفسهم فأصبحت الثقة بهم كبيرة واستراحت شركة الترمواي من طبع التذاكر وتعيين العمال .

فأسرعت الى الثقب المشار اليه وألقيت فيه القدر المعلوم ثم هرولت الى محل الاحتفال واذا بالمتحف الجديد تخفق عليه الرايات وتفد اليه العربات والسيارات من كل جانب وما وافت الساعة الحادية عشر حتى امتلأ بهو المتحف بعلية القوم من رجال الادارة والدين والعلم والادب. ولما انتظم عقد الاجتماع قام المسيو بيلوزاوس وافتتح الاحتفال بمقال رقيق ذكر فيه انه يعد هذا اليوم من أسعد أيام حياته حيث تحققت له أمنية من أكبر أمانيه ألا وهي اهداؤه لمدينة « هلدسهايم » مسقط رأسه تلك المجموعة وقد ضحى في الحصول عليها وقتاً طويلاً فيرجو أن يكون في هذه الآثار المصرية ما يدعو الافراد لزيارة المتحف الجديد والعلماء الى درس تلك الآثار وكشف اسرارها خدمة للعلوم والفنون . ثم قال انه كان بود أن لا تفترق عنه هذه المجموعة النفيسة طول ايام حياته ولكن رغبته في رؤيتها معروضة في المحل اللائق بها تحت نظر العلماء وبحث الاثريين هي التي قضت بذلك الفراق . أما اهداؤه هذه الآثار الى مدينة هلدسهايم دون غيرها من المدن الكبيرة حيث يزيد عدد الزائرين ويكثر عشاق التاريخ فلأن هلدسهايم مسقط رأسه وبلد ابيه وجده وقد نشأ من الصغر على حبها والارتباط بها مع طول ايام غيابه عنها فهو مرتاح تمام الارتياح الى هذا العمل لاسيما وانه قد حصل على تعيين الاستاذ « روبنزون » مديراً للمتحف الجديد حيث قام بوضع تلك التحف

في الاماكن المعدة لها على احسن نظام واجمل ترتيب و يشتغل الآن مع قرينته في اعداد صور تلك الآثار وحل الغازها ونشر البيان الكافي عنها وقد صرح المسيو بيلوزاوس أن هذه الآثار التي يرجع تاريخ بعضها الى ستة آلاف سنة يتعذر حفظها في اوروبا بقدر ما حفظتها أرض مصر الجافة ولكنه لا يشك في انها ستكون موضوع اعتناء من عهدت اليهم فتبقى ما أمكن البقاء. وقد كان لكلام المسيو بيلوزاوس تأثير كبير ووقع في النفوس فقوبل بالتصفيق الحاد والاستحسان العظيم ثم وقف عمدة المدينة ومحافظ اقليم هانوفر واثنى كل منهما على المسيو بيلوزاوس لهمته في جميع تلك الآثار الثمينة التي تدل على درجة ارتقاء تلك الأمة المصرية العريقة في التمدن وشكرا له حبه لوطنه واهداءه هذه المجموعة للمدينة قائلين إن هذا العمل يخلد له ذكراً لا تمحوه الأيام. وبعد ذلك وقف الاستاذ الدكتور أيرمن بالنيابة عن علماء الآثار المصرية في المانيا والقى خطاباً بليغاً أظهر فيه اعجابه بعمل المسيو بيلوزاوس والفرح الذي شعر به لدى طلاعه على تلك الآثار الجليلة قائلا انه كان يود لو أن بعض هذه التحف العجيبة اهديت الى متحف برلين. أما وقد قضت رغبة صاحب المجموعة ببقاء كل هذه الآثار بمدينة هلدسهايم فقد تعين على ادارة المتحف الجديد أن تبين للعالم الحاضر ما كانت عليه الأمة المصرية القديمة من الارتقاء العقلي وبلادها بلا مراء مهد للعلوم والفنون والآداب التي وصلنا اليها في هذه الايام. فقد شاد المصريون اعظم المباني وانجزوا ادق الاعمال من الزجاج والخزف والنحاس ولم يكن لديهم ما عندنا الان من العدد والآلات فالامم الحاضرة لم تستفد من آثار بابل والهند والصين والمكسيك مثل ما استفادت من آثار قدماء المصريين. ونحن اينما نحول الطرف في انحاء العالم الحاضر نجد اننا

محاطون باشياء وأشكال قد أوجدها المصريون وكملها اليونان فكل ما نراه بقاعات المتحف الجديد كنز ثمين يلزم المحافظة عليه خصوصاً وانه توجد فيه بعض قطع فريدة وتحف طالما حلم بها علماء الآثار مثل النقوشات البارزة على الهياكل وملابس الكهنة والالواح الجميلة والمصنوعات الذهبية البديعة وغير ذلك من النفائس فهنيئاً لمدينة « هلدسهايم » بكنزها الجديد.

ثم وقف الدكتور روبنزون وقال إن المتحف الجديد منهل عذب يستقي منه العلماء ويرتوي عما فيه المشتغلون بالفنون الجميلة وإن ما عول على نشره من وقت الى آخر عن هذا المتحف سيجعله ملكاً عاماً لجميع محبي المعارف وعشاق الآثار. وقد قدم الدكتور « روبنزون » للمسيو بياوزاوس مثالاً من هذه النشرات بحث فيه بنوع خاص عن انموذج الاواني الفضية كما كانت تصنع بمدينة منفيس وهو موجود بالمتحف الجديد وترجع صناعته الى صياغ الاسكندرية وخلفائه الذين ينسب الى تلامذتهم كنز الاواني الفضية التي وجدت في ذات مدينة «هلدسهايم» وما فرغ الدكتور روبنزون من كلامه حتى تسابق الحاضرون الى تهنئة المسيو بيلوزاوس بعمله المجيد ومن ثم قصد المدعوون من سيدات ورجال قاعات المتحف ففضوا فيه ساعة ونصف بين مشاهدة وفحص واستفهام واعجاب وثناء ولما كنت في عداد المعجبين رأيت أن أنشر هذا البيان اعترافاً بجميل ذلك الوطني الغيور .

تأسيس جمعية التوفيق (١)

أيها السادة الكرام :

اليكم يامن أجبتم داعي التوفيق ، نقدم عبارات الشكر ونرفع واجبات الامتنان . فمبادرتكم الى تشريف هذا المحل تبرهن على حسن أميالكم نحو هذه الجمعية ورغبتكم في تحقيق نواياها الخيرية . وقد سمعتم ما أتته من الأعمال وكيفية مقابلة العموم لها . فأرجو ان تكونوا قدرتم تلك الاعمال قدرها وأيقنتم أن أعضاء جمعية التوفيق لاهمّ لهم إلا تقدم أبناء جنسهم. وقد رأيتم أن هذه الجمعية التي نشأت من منذ ثمانية شهور كشجرة صغيرة قد كبرت ونمت وتفرعت أغصانها وأتت بثمار التقطها الناس فكانت نوراً للمستضيء وعظة للجاهل ومنبهاً للغافل .

وقد كانت نشأة هذه الجمعية باجتماع نحو عشرين فرداً من أبناء الملة القبطية الذين أخذتهم الغيرة الجنسية والحمية الملية فتكاتفوا وتعاضدوا وعقدوا النية على تشكيل جمعية توفق بين أفراد الأمة وتنبه العموم الى لزوم إصلاح الأحوال وتحسين الشؤون غيرة منهم لما كانوا يرونه كل يوم من تقدم الأمم الأخرى وتقهقر أبناء الملة القبطية وعلماً بأنه لا يتسنى لنا النهوض من الغفلة إن لم ينبهنا منبه بعد هذا الرقاد الطويل الذي عاد علينا بالدمار وغادرنا في أخريات الناس .

كيف لا ! وقد فقدنا جميع المزايا التي تتمتع بها الأمم الأخرى فأصبحنا ولغتنا مفقودة وقوانينا الشخصية مهملة وتاريخنا متروك وأولادنا بلا تربية

(١) نص الخطبة التي ألقاها فى حفلة تأسيس الجمعية .

وأيتامنا وأراملنا بدون عائل وأموالنا العامة مختالة وجهالنا بلا واعظ وضعفاؤنا بلا معضد ومرشدونا بلا علم ورؤساؤنا بلا جامعة ولا رابطة الى غير ذلك مما يطول شرحه .

ومن المعلوم أن الملة القبطية في حالتها الراهنة لا يحق لها أن تنتظر الاصلاح والانتشال من وهدة الانحطاط المحدق بها إلا اذا حكت جلدها بظفرها وعملت على تقويم خللها بيدها . وهذا كما لا يخفى لا يتم إلا باتحاد آراء أفرادها وجمع كلمتهم . ولكن من أين لنا ذلك الاتحاد ونحن لا نعلم شيئاً عن حقيقة أحوالنا ونسبتنا الى غيرنا من الأمم وما كنا عليه وما نستؤول اليه الى غير ذلك مما تتنوّر به الأذهان وتتقرب بسببه الافهام ويؤدي الى تشابه الآراء وتوافق الخواطر واتحاد القلوب والتوصل بذلك الى العمل العام اللازم حصوله لتحصيل الاصلاح وتحسين الأحوال .

تلك أيها السادة هي الدواعي التي أوجبت تأسيس جمعية التوفيق التي أخذت على عاتقها أن تظهر للعموم أوجه الخلل الموجود عندنا وطرق اصلاحه وتنبه الأفكار الى لزوم اتحاد الكلمة والاتحاد على المبادئ الصحيحة الموصلة لتلك الغاية الحميدة .

ومع كون هذا هو غرض جمعية التوفيق فقد رأينا ما يقضي بالعجب العجاب إذ أخذ الناس يتحدثون بها . فمنهم من كان يقصد إثارة الخواطر عليها بدعوى انها جمعية قامت ضد الدين وضد الاكليروس. ومنهم من أخذ يوهم البسطاء بأنها جمعية ذات مآرب وأغراض خصوصية. ومنهم من كان يتعرض للطعن فيها بقوله : انها مؤلفة من شبان حديثي السنّ لا يلتفت الى أقوالهم ولا ينتظر منهم نفع كغيرهم من الشبان الذين أسسوا جمعيات. ولم يمض عليها

وقت طويل حتى أصبحت في خبر كان . ومنهم من كان يندد عليها تشيعاً وتعصباً فقط بدون معرفة شيء عنها . ومنهم من أخذ يسعى في دس الدسائس لضررها واحباط مساعي أعضائها . وهكذا كثر اللغط والقيل والقال . غير أن هذه الاحوال لم تثن ـ والحمد لله ـ عزائم أعضاء جمعية التوفيق فثابروا بحزم وعزم وثبات على مقاومة تلك الصعوبات والعراقيل التي كانت تحول دون الاستمرار على خطتهم . ولولا ميلهم الغريزي الى الاصلاح واخلاصهم لأبناء ملتهم لما قويت عزائمهم واشتد أزرهم آزاء تلك الاتعاب والمشاق الجسيمة فاشتغلوا ببث الآراء المفيدة والمباديء الحسنة الصحيحة .

ولما ظهرت أعمال هذه الجمعية للعموم واطلع الناس على نواياها ومقاصدها وعرفوا أن النية سليمة والغاية حميدة . لم تلبث أن تغيرت تلك الأفكار التي كانت قائمة بخواطر البعض منهم وإن ما كان يتحدث به المضلون لم يكن إلاّ عن جهل بعضهم وسوء نوايا البعض الآخر. وأدرك الجميع ضرورة الاصلاح ووجوب المبادرة به وقامت على ذلك الادلة القاطعة والبراهين الساطعة بما كان من استحسان العموم لاعمالها وازدياد عدد أعضائها وتأسيس جمعيات فرعية لها بأشهر مدن الوجهين القبلي والبحري ـ كما سمعتم حضراتكم تفصيل كل ذلك في التقرير الذي تلاه عليكم حضرة رئيس جمعيتنا ـ ودلكم مافيه على النتائج الحسنة التي حصلت عليها جمعيه التوفيق . غير انه لايخفى على علم حضراتكم أن هذه الاعمال التي تمت وإن كانت في حد ذاتها مفيدة إلا انها ليست بشيء يذكر في جانب الاصلاحات التي تحتاج اليها الامة ويودّ كل شخص يغار على تقدم أبناء جنسه السعي في الحصول عليها. ولذلك فسيكون مطمح أنظار الجمعية وموضوع سعيها في المستقبل هو تحقيق تلك

الاصلاحات المطلوبة لايجاد تلك الهيئة الشوروية الادارية التي تحن القلوب الى وجودها وترى الحكومة السنية ضرورتها لخير الملة القبطية واصلاح شأنها ثم ادخال النظامات اللازمة في الاوقاف وغيرها من مصادر الايراد لايجاد مالية وافية بالنفقات التي يقتضيها تحسين حال الاكليروس والفقراء والايتام والمدارس والكنائس والاديرة والعلاقات الودية التي بيننا وبين الكنائس الاخرى وغير ذلك مما لاحاجة لتعداده هنا ولالتبيين أهميته كاحياء المطبعة ونشر الكتاب المقدس باللغة العربية والقبطية وتنقيح قانون الاحوال الشخصية والقانون الكنائسي وانشاء المستشفى والكتبخانة وحفظ الآثار القديمة الموجودة بالاديرة والكنائس الى غير ذلك من الاصلاحات التي تتوق النفوس الى تحقيقها .

واذ قد عرفتم الآن أيها السادة . مقاصد جمعية التوفيق وحسن نواياها ورغبتها في تقدم أبناء الملة القبطية . فهل يصح بعد ذلك التأخر عن مساعدتها وتشجيع أعضائها والانضمام اليهم والاتحاد معهم قلباً وقالباً حتى نكون جميعاً يداً واحدة فيتسنى لنا انجاح هذه المقاصد الحميدة . وأنتم تعلمون اننا في وقت تقدمت فيه الامم الاخرى وكثر فيه المزاحمون بحيث إن لم نفق من غفلتنا ونتفق على تحسين حالتنا . داستنا الارجل ووطئتنا أقدام غيرنا من أصحاب الجد والحزم والتقدم فتسوء حالتنا ونصير الى مالاتحمد عاقبته . فهلموا . أبناء الامة القبطية . نشد أزر بعضنا البعض . هلموا بنا نسعى فيما فيه إصلاح أمتنا . هلموا بنا نتفق على عمل الخير . هلموا بنا نصلح أحوالنا . هلموا نجتهد في اجراء مافيه الفائدة لابناء جنسنا . هلموا بنا نجد وراء المنفعة العامة . لبوا . رعاكم الله . لسان الاخاء الذي يدعوكم الى الاتحاد مع هذه الجمعية

والسعي معها في الخطة التي عرفتموها لان هذا هو السعي المشكور وهـذه هي الاعمال التي تكسبكم الثناء في الدنيا والاجر في الآخرة . وهـذه هي الاعمال التي تخلد لـكم الذكر الجميل في بطون التواريخ وتجعلـكم القدوة الحسنة لخلفكم وأفلاذ أكبادكم من بعدكم .

فشمروا . أيها الافاضل . عن ساعد الجد واتحدوا وتعاونوا على هذه الاعمال الخطيرة والمقاصـد الجليلة ولـكم في همة أولياء الامر منا ما يقوي العزائم ويضمن النجاح. والله هو الـكفيل بنجاح مساعيكم وتعويض أتعابكم» اه

معاهد التعليم[1]

بالثغر الاسكندري

اني لم آت من مصر خصيصاً لانقي على حضراتكم كلاماً عن النهضة العلمية الحالية بين المصريين والناطقين بالضاد لان هذا الموضوع الواسع الجميل بقي لحضرة صديقي القديم وهبى بك وهو أقدر مني على الاجادة في مثل هـذا الموضوع الخطير. ولـكن الصدف أوجدتني الآن في هذا الثغر الزاهر فرأيت أن أورد حقيقة عن تاريخ الاقباط في عصرنا الحالي وقد ظهرت هذه الحقيقة واضحة في اتحاد الفريقين من أبناء الطائفة القبطية وتعاونهما بعد أن طال زمان التنازع والجفاء وكان من نتائج هـذا الاتحاد قيام المدرستين اللتين نحتفل بافتتاحهما في هذا النهار . ونحن نحتفل بهذا الاحتفال ليس لانه يضيف

(١) خلاصة الخطاب الذي القاه بالفرنسية في حفلة افتتاح المدارس القبطية باسكندرية في ٣ سبتمبر سنة ١٩١٠ ونشر بجريدة الوطن الغراء

معهداً جديداً الى معاهد التعليم فقط بل لانه يدل على نهضة في حياة الاقباط ويعد بدء عصر جديد في تاريخ تقدمهم

ولقد عيروا الاقباط من قدم بالمحافظة على القديم والامتناع عن الاصلاح والترقي وهي لسوء الحظ حقيقة مرة ولكنها راهنة كان السبب فيها ماعانى الاقباط من أنواع الجور والاضطهاد وما طرأ عليهم من صروف الزمان في سابق العصور وقد أثرت أحوال هاتيك العصور في طباعهم فتركت أثر الضعف والتردد والتخوف زماناً طويلاً وهي خلال يرى البعض في المحافظة عليها فخراً للقبط ويرى غيرهم من أصحاب العقول الكبيرة النيرة انها كانت سبب الانحطاط الذي نشكو منه في هذا الأوان. وقد كان هذا الخلاف في الرأي داعياً الى تأخير الرقي القبطي وشطر الامة شطرين ذهبت المساعي في التوفيق بينهما ضياعاً الى الآن. ولطالما عاد النزاع والخلاف الداخلي باوخم العواقب في تاريخ الامم فاذا شئنا اقامة الدليل على ذلك وجدناه في حوادث أمتنا وتاريخها القديم والحديث. من ذلك أن مصر كانت بلاداً راقية في أيام دولها الاولى ولاسيما السابقة على عهد الدولة السابعة فان مصر كانت في حكم بني الاول والملكة نيتوكريس صاحبة صول وطول وبلغت من الحضارة مبلغاً رفيعاً ولكن الانقسام الداخلي تفشى في أيام هذه الملكة المشهورة وظلت عوامله في البلاد حتى حطتها من مكانها فتجزأت المملكة وضعفت الامة وبقي هذا الضعف فيها عدة قرون فما عادت مصر الى سلوك سبيل التقدم حتى عصر الدولة الثانية عشرة وهو الذي قال فيه الحاكم أمني « ان القحط لا يحدث مطلقاً في أيامي فقد أعطيت المرأة الأرملة ولم أميز الكبير على الصغير في

أحكامي» ولولا عود الحروب الداخلية والمنازعات لبقيت مصر على هذه المنزلة العليا الى ما شاء الله فان الدوله الرابعة عشرة قامت في الوجه البحري حين كانت الدولة الثالثة عشرة حاكمة في الصعيد وعاصمتها طيبه فكان انقسام البلاد مملكتين أكبر سبب في تقدم دولة الرعاة عليها وهم الذين أوقفوا نماءها مدة أربعة قرون وأنزلوها من المكان الذي بلغته في عهد الدولة الثانية عشرة. ولم يطرد ملوك الرعاة أو الهكسوس من مصر الا فى أيام الدولة الثامنة عشرة حين عادت البلاد الى الانضمام وبلغت أوج التمدن القديم واسترجعت عزها السابق بقوة الاتحاد. ولما عادت وانقسمت دولا وجاءها الفرس نكلوا بها التنكيل المعروف ودمروا آثار مجدها الأول فلم تنجُ البلاد منهم الا بمجيء الاسكندر وخلفائه وكان الأولون منهم عقلاء فان سوتير بنى مكتبة الاسكندرية وجعل قصره معرضاً للصناعة والفنون الجميلة وفلادلفوس صير الاسكندرية مقر العلوم والمعارف وهكذا ظلت البلاد على عهد البطالسة في عز حتى عاد الانقسام من تنازع الأمراء والأميرات على المملكة حتى انتهت الدوله في أيام كليوباترا المشهورة ووقعت في يد الرومانيين

وتاريخ مصر في أيام الدوله الرومانية هو تاريخ الكنيسة لان المسيحية دخلتها على يد القديس مرقس الانجيلي فحدث الانقسام بين المتنصرين من أهل مصر والباقين على العبادات السابقة ثم انقسم المسيحيون انفسهم فرقاً وطوائف وهذا العصر كله عصر منازعات ومشاحنات وحروب وفتن وارزاء جعلت فريقاً من المصريين المسيحيين يرحب بجيش العرب وينصره الفريق المسيحي الآخر في أول الفتح الاسلامي . وكان عمرو بن العاص قائد العرب الفاتحين عادلاً حكيماً ولكن خلفاءه حادوا عن خطته وبذلك بدأ عصر طويل

مدلهم كثير المحن والخصومات التي كان سببها الدين وقد دام هذا العصر من القرن السابع للميلاد المسيحي الى آخر القرن الثامن عشر لم تنقطع فيه المنازعات والاهوال.

أيها السادة

اني لم آت لاسرد عليكم تاريخ مصر ولكنني ذكرت الحقائق الماضية لابين منها أن مصر كانت تنحط وتتأخر وتقع في المصائب كلما اختلف أهلها وتخاصموا وتنازعوا لسبب ديني أو غير ديني وإن الفوضى سادت في البلاد كلما عادت اليها أسباب الخلاف والخصام بين المواطنين

ولم تعد البلاد الى راحتها السابقة وتنفس الصعداء باتحاد جميع أهلها إلا في حكم محمد علي باشا فان هذا الامير العظيم انقذ البلاد من جور المماليك كما انقذها عمرو من الرومانيين أو الاسكندر من الايرانيين وقد استراح الأقباط في أيام هذه الدولة العلوية فتقدموا في خدمتها وظهرت آثار اجتهادهم وأمانتهم ولا سيما في العهد الاخير

فاذا كان الأمر كذلك فما بال الاقباط لم ينالوا كل حظهم من الرقي في هذا العصر السعيد وما الذي أخرهم الى الآن عن ادراك منزله الآخرين ؟ الجواب على هذا إن اثر الذل السابق لا يمكن زواله على عجل ولكن السبب الاكبر في هذا الانحطاط والتأخر كان وجود التنازع والخلاف بين الاكليروس والشعب منذ سنة ١٧٧٤ . وقد طال الزمان على هذا الخلاف وآياته المحزنة ولكن ظواهر الاتفاق بدت والحمدلله وهذه المدارس من آثارها الحسناء التي تفتخر بها مدينتكم والمأمول أن تقوم مصر لمجاراتها فى هذا المضمار المفيد

أيها السادة

إن نهضة الامة لا تقوم ببناء المعاهد والمعابد والديور والقصور . وإن حسنات

الامة لا تعد كافية اذا أعانت بعض المعوزين ولـكن الامة الناهضة هي التي تسد حاجتها العلمية وعندنا منها لسوء الحظ كثير ولا سيما في مصاف بناتنا ونسائنا فان القبطية ما زالت فى حاجة كبيرة الى التربية والتعليم. هذه هي الحاجة الـكبرى فلا تمزجها بالأوهام. ولا تبعد فى أمرها الى الخيالات والأحلام. فما نحن في حاجة الى نساء يشغلن المناصب الادارية أو يشتغلن بالسياسة والانتخاب أو الى فلاسفة من السيدات انما نحن في حاجة الى امرأة كالتي ذكرها امبراطور المانيا في خطابه من عهد قريب التي تقصر همها على القيام بخدمة بيتها وأولادها على نسق بضمن الراحة والسلام وبث المبادئ الحسنة في نفوس الصغار .

هـذه آمال عسى أن تصح في المدرسـة الجديدة التي نحتفل بافتتاحها اليوم فقد كانت من قدم منبت العلماء وموطن أهل الفضل والعقل ولا يبعد على الله أن يعيد اليها ذلك الدور المجيد .

عواطف وخواطر

في عشية الاحتفال بذكرى المغفور له بطرس باشا غالي [١]

ليس اجتماع الاقباط غداً لمجرد سماع أقوال الخطباء وقصائد الشعراء ولـكنهم يجتمعون لواجب أسمى وهو الاشتراك بقلوبهم وعواطفهم في ذكرى الفقيد وتعديد صفاته وأعماله ليأخذوا منها دروساً تفيدهم في هـذه الحياة وأنموذجاً يجرون عليه في مقبل الايام. فلا يلبثون طويلاً بذلك المجتمع حتى يدعوهم داعي الاحـترام والولاء لزيارة أثرين نفيسين أقيما بجانب ذلك

(١) نشرت بجريدة الوطن بتاريخ ٢٠ فبراير سنة ١٩١٢ وبجريدة لابورص اجبسيان بالفرنسيه في ذات التاريخ

المكان وأقصد بهما قبر الفقيد والمعبد الذي شيده آله الكرام لذكرى الكنيسة التي كان يرتبط بها الراحل العظيم . فالأثر الاول يذكرهم بما فعل أكبر رجالهم في العصر الحاضر : والثاني يعيد الى أذهانهم أشهر ما حدث في تاريخ أمتهم في الزمن الغابر . وأنا اذا أوجزت المقال عن الفقيد الكريم فانما يضطرني الى ذلك ما أشعر به من التأثر عشية الاحتفال بالعام الثاني لتاريخ وفاته .

والفقيد هو ذلك الوطني الكبير والاداري الخبير والحاكم الحازم والسياسي القدير والقاضي العادل والمحسن الشهير وبالاجمال هو تلك السريرة الطاهرة والنفس العالية فقد كان المغفور له بطرس باشا غالي من صفوة أبناء مصر الحديثة وأكثرهم نبلا وأذكاهم عقلاً وأشرفهم نفساً وأرفعهم قدراً بلا مراء فلا مندوحة لنا من الرجوع على الدوام الى هذا المثال النادر لا لنسعى في تقليده (وتقليد مثله محال) ولكن لنستمد من سيرته الطاهرة مايقوي فينا العواطف الشريفة وينمي في أفئدتنا الاحساسات الراقية وهذا أجمل عزاء وأحسن سلوان حتى اذا خفت وطأة الحزن عن القلوب البائسة رجعنا الى الماضي منذ عامين وذكرنا الفقيد العزيز واخلاصه في خدمة وطنه ومليكه واستخرجنا من ذلك الكنز لآلئ جديدة .

انتظم الفقيد منذ شبوبيته في سلك الادارة فارتقى باجتهاده وذكائه حتى وصل الى أعلى مدارج الشرف والنفع وقد كان طول أيام حياته من أكبر أنصار الاصلاح وله اليد الطولى في ترقية شؤون البلاد والفضل الأكبر في حل المعضلات والرأي الراجح في أحرج المسائل وأعظم الملمات وهو الذي أتى بكل معجب في الادارة ومعجز في السياسة حيث تجلى في مظهرها بسواطع أفكاره وقوة عقله وسرعة خاطره واقتداره وبراعته في

ظروف تلاقت فيها فى هـذا البلد الشؤون المتباينـة والصوالح المتخالفة ولم تتصادم . وهو الذى امتاز بعصريه أفكاره وسلامة آرائه وترفع عن ذوى الآراء الرثة والاوهام الرجعية . فكان بكل معنى الكلمة رجل الأفكار الحديثه فى مصر الحدبثة واذا دعي كرومر أباً لمصر الحديثة نخليق أن يدعى بطرس انها البكر .

وقد أخبرني أحد أصدقاء الفقيد الأخصاء انه قال له ذات يوم «لا يتم لهذا البلد هدو وسلام في مقبل الأيام إلا بالتسامح الديني» والخبر في عرف الجميع صحيح لأن الفقيد لم يكتف بالقول بل عمل بهذا المبدأ الشريف بين جميع المواطنين والوطنيين من سكان وأبناء هذه البلاد فكانت جميع العناصر الاجنبيه تجله وتحترمه وتعترف له بالجميل وكانت له بين أفراد كل نزالة منزله رفيعة وأصدقاء عديدون يعجبون بآرائه ويلجأون اليه وقت الحاجة ويعملون باشارته عند اللزوم أما بين العناصر المصرية فكان له أخصاء من المسلمين والاسرائيليين أكثر منهم من المسيحيين ولذا كانت داره محجا للعلماء والفقهاء وكبار المشائخ أكثر منها للقسوس والرهبان ولعله بالغ في تطبيق ذلك المبدأ الشريف حتى جار على ذات أبناء طائفته في بعض الظروف . وكان رحمة الله عليه كثير الميل الى التوفيق بين تلك العناصر على اختلاف نزعاتها فكم من نزاع فض ومشكلة حل ووفاق أبرم وصلح أتم وسلام بسط فلا عجب إذا أجمع الكل على صدق الولاء له وبادر الجميع غداً لتلاوة آيات الثناء على جميل فعاله وشريف خصاله — إن مثل هذا الرجل لجدير بأن نتصفح تاريخ حياته ونؤدي لذكراه ما يجب من الاحترام والاكرام .

أما عن وفاته فلا يجدي الكلام والجميع يعلمون كيف تؤلمنا وإلى أي



المرحوم بطرس باشا غالي

حد تتوجع لمجرد ذكرها فيحسن بنا أن نسدل الستار على اللحظات الاخيرة لذلك الوجود لاننا لم ندع في هذا المقام لحل المعضلات التاريخية بل لنذكر صفات الفقيد ومناقبه حيث تنفع الذكرى . ويكفي ان نحفظ من ذلك الوجود تلك الصفة الغالية في حياته أعني بها حب الوطن . أوليس هو الذي لفظ مع آخر نسمة تلك الكلمات المأثورة « يعلم الله اني ما أتيت أمراً يضر بلادي » ونحفظ عنه صفة أخرى ليست بأقل أهمية وهي حبه للكنيسة التي نشأ وعاش ومات تحت ظلها ودليل هذا الحب نراه في المعبد الفخيم الذي يتم الاحتفال بتدشينه غداً لانه أسس بناء على وصية تركها الفقيد وقام بتنفيذها أنجاله الكرام خير قيام . فقد رغب بطرس باشا في أن تستريح عظامه في معبد كهذا يبقى ذكرى للكنيسة التي كان يعطف اليها ويحترمها . بلى إن الفقيد كان يحب كنيسته لتعاليمها القويمة وآدابها السامية وتاريخ أبائها المجيدين . تلك الكنيسة التي تشغل صحيفة ساطعة في تاريخ الانسانية.

وليس بخاف أن مرقص الرسول قضى بتأسيسه هذه الكنيسة على عبادة الأوثان والأوهام التي كانت سائدة على أرض الفراعنة وأحل محلها آداباً جديدة وتمدناً أرفع وأسمى فهذا الارث الثمين الذي آل لنا عن البشير الكريم قد حرص عليه خلفاؤه الاطهار على ممر الايام والاجيال ولم يكن آباء كنيستنا في الاجيال الاولى مجرد أناس أتقياء سذج بل كانوا من الاساتذة الذين جمعوا بين التقوى والمعرفة الصحيحتين ويؤيد ذلك أن رؤساء هذه الكنيسة كانوا ينتخبون غالباً من بين أساتذة مدرسة الاسكندرية وهي مدينة العرفان في ذلك الزمان حتى أن الامبراطور « أدريان » الذي زارها في ذلك الحين قال انه لم ير بين قسوس النصرانية من كان جاهلاً بعلوم ذلك

العصر. أمافي الجيلين الثاني والثالث فقد كانت مدرسة الاسكندرية المسيحية مضيئة بأنوار علمائها الاعلام وكان يقصدها الناس من كل فج لسماع أقوال بانثيوس وا كليمنضس وأوريجانوس وديديموس الاعمى. وهؤلاء هم الذين نشروا مبادئ المسيحية بوادي النيل وجعلوا للكنيسة القبطية شأنا عظيما في الشرق ولبطاركتها منزلة رفيعة وكلمة مسموعة في المجامع. على أن الكنيسة كانت غنية بأبنائها من غير أساتذة الاسكندرية. فكانت الصحراء ملأى بالناسكين والعابدين من خيرة المؤمنين الذين آثروا العيش بعيدين عن الدنيا والانفراد للتلذذ بمناجاة خالق السماوات. والتاريخ يحفظ لبولا وأنطونيوس ومقار وباخوميوس وشنوده أجمل ذكر في سجل النصرانية ويعترف لهم بالفضل في الذود عن بيضة المسيحية. وقد كان الرهبان يقصدون مدينة الاسكندرية أفواجاً للاخذ بناصر البطاركة والدفاع عنهم في الملمات فقد ذهب أنطونيوس يوماً الى الاسكندرية في جيش من الرهبان للدفاع عن البطريرك أثاناسيوس وقد توجه شنوده مصحوباً بكيرلس الاكبر الى مجمع أفسس وكان له هناك شأن كبير وتأثير عظيم ومن ثم قوي الاعتقاد عند الاقباط بوحدة الاقانيم والطبيعتين في شخص المسيح حتى انه لما اجتمع مجمع خلقيدونية الشهير واحتدم الجدال وتصادمت الآراء ثبت نواب الكنيسة القبطية على هذا الاعتقاد وانفصل خلفاء مرقس الرسول من ذلك الحين عن بقية المسيحيين

وقد يطول بي الشرح لو حاولت بيان مالاقاه الاقباط وكنيستهم من أنواع الاساءة والاضطهاد والعذاب في سبيل الحرص على هذا الاعتقاد ولذا اكتفى بذكر الحوادث البارزة في تاريخهم ليعلم الابناء مقدار ثبات آبائهم واستقلالهم واستقتالهم وتفانيهم في الدفاع عن مبادئهم وليس هذا بالنذر القليل

اشتهر الامبراطور «كاراكلا» بقسوته على الاقباط حتى أنه أمر يوماً جنده بالفتك بهم فانسابوا عليهم كالوحوش الضارية ونكلوا باولئك الابرياء اي تنكيل وقد نال الاقباط من الاضطهاد أشده في عهد (دقلديانوس) فهو الذي أمر أن لا يبطل الذبح حتى تعلو أمواج الدماء ركبتي جواده .

وهذا هو تاريخ الشهداء الذي اخترناه مبدأ للسنين القبطية وحفظناه تاريخاً خاصاً بنا الى هـذا اليوم . ودامت تعلو النصرانية حتى أصبحت دين الحكومة في عهد قسطنطين ولكن لم يلبث الاضطهاد أن عاد في أيام «فلنص» حتى تناول الصحراء ومن بها من الأنفس الهادئة الهائمة في حب ربها وقد بلغ الخلاف في القرن السادس مبلغاً عظيماً فما أقام الامبراطور بطريركا إلاّ أقامت الامة خصماً يقابله وقد حصلت من جراء ذلك مشاجرات ومذابح في طرقات الاسكندرية يضيق المقام عن ذكرها وقد زاد احتقار الامبراطور يوستنيان للاقباط حتى انه أقام «أبولينير» أحد جنوده بطريركا للاسكندرية. أما كراهة الامبراطور « فوكاس » للاقباط اليعاقبة فكانت لا تحد وما ولى هرقل الاحكام واستبد بهم حتى سئمت نفوسهم من جور الرومان ولم يسعهم إلاّ ان يرحبوا بعمرو لينقذهم من هذا البلاء العظيم وفي أيامه وايام خلفائه من الحكام العادلين كانت الكنيسة هادئة آمنة وعاش المصريون عيشة راضية ولكن كانت تدهمهم المصائب بين آونة وأخرى فكم ضاعت منهم نفوس وأهرقت دماء وبالاجمال لم يذق الاقباط طعم الراحة إلاّ في أوقات متباعدة من تلك القرون.

ومما لا يجب اغفاله في هذا المقام ان الأقباط داموا بالرغم من هذه الصروف والعبر وهم محتفظون بايمانهم حريصون على عقائد كنيستهم وقد

شهد لهم بذلك المسيو « دي مايبه » الذي كان قنصلاً عاماً لفرنسا في القرن السابع عشر فهذا الكاثوليكي الغيور لم يتمالك أن اظهر اعجابه بثبات الاقباط وشدة تعلقهم بكنيستهم وقال بصريح اللفظ انه من المحال اقناع الوالدين منهم ان يرسلوا أولادهم الى رومه ليتلقوا غير عقائد آبائهم

فظاهر مما ذكرناه أن الاقباط كانت لهم في كل الازمنة والاحوال العزيمة الثابتة والشجاعة الأدبية الكاملة في البقاء على عقيدتهم وفي مقاومة كل ما يزحزحهم عنها أو يغريهم باستبدالها بغيرها ولئن عدموا الوفاً منهم بأن رحلوا وانضموا الى صفوف الشهداء فهذا النقص في عددهم مما يزيد فخرهم ويعطر ذكرهم . نعم إن البعثات الدينية الاجنبية قد سلبت من بطاركة الاسكندرية عدداً ليس بقليل في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ولكن لم يكن ذلك الاشذوذاً وقتياً على أثر انحطاط مادي وأدبي لامناص منه وإلا فاعتناق الاقباط لعقيدة غير عقيدتهم قد أصبح بعيد الاحتمال خصوصاً في هذا العصر السعيد الذي زاد فيه تنورهم واطلاعهم على تاريخ كنيستهم فضلاً عمّا يتمتعون به من الحرية الكاملة على اختلاف أنواعها .

ولنلاحظ هنا إن ثباتنا على عقيدتنا لا يراد به ابتعادنا واعتزالنا عن بقية الكنائس بل بالعكس فان تقربنا منها يفيدنا أعظم الفوائد بل قد يكون من ألزم الامور لنا وأوجبها علينا وأخص بالذكر من بين الكنائس الموالية لنا الكنيسة الانجليكانية التي نشأ بيننا وبينها تجاذب اخوي وانعطاف وودي شريف من زمن بعيد . فقد أرسلت هذه الكنيسة لمصر في ١٨١٥ بعثة ليس بقصد ضم الاقباط تحت لوائها كما يزعم بعض بسطاء العقول ولكن لاشرف وأنبل غاية وهي اعانتنا والاخذ بيدنا في اصلاح أحوالنا بانفسنا واحياء التعليم

عندنا وبث روح النشاط وتجديد الغيرة في أفئدة رجال الدين منا ولم تبرح من أذهاننا ذكرى المدرسة الاكليريكية التي أنشأها في تلك الفترة المسيو « ليدر » في عهد بطريركنا بطرس السابع ودور العلم التي أسستها مس « هويتلي » بالقاهرة في عهد ديمتريوس الثاني ومنذ أيام قد احتفل الأقباط بذكرى أبي الاصلاح كيرلس الرابع وذكروا سعيه في توثيق عرى المودة بين الكنيستين وما برحت الكنيسة الاسقفية تفكر في هذه الغاية الشريفة فاوفدت في سنة ١٨٨٧ نيافة الاسقف « بليث » لازالة الأوهام التي علقت باذهان بعض الاقباط واقناعهم بالبواعث الحقيقية التي حدت بزعماء الكنيسة الاسقفية الى اختيار هذا السبيل الشريف وفي سنة ١٩٠٠ مدت تلك الكنيسة يد المساعدة لاختها القبطية لاعادة بناء المعابد والمدارس التى هدمها الدراويش بالخرطوم ومن تأمل في رسم عاصمة السودان الحديثة رأى الكنيستين الاسقفية والقبطية قائمتين جنباً بجنب كأختين تعملان على اتم وفاق .

هذه هي الخواطر التى سنحت لي في عشية الاحتفال بذكرى فقيد الامة وتدشين المعبد الذي شيده أنجاله اكراماً للعقيدة التي عاش ومات متمسكاً بها واني أناشد الشبيبة القبطية خصوصاً والاقباط عموماً أن يقبلوا على درس تاريخ كنيستهم وحياة عظمائه الذين هم نخر أمتهم فكنيسة الاسكندرية التي قاومت عواصف الدهر هي أحسن مثال لانكار النفس وتضحيتها في سبيل الرقي. وسيرة رجالنا قدوة حسنة وينبوع تعاليم نفيسة ودروس عالية وحياة بطرس باشا من أي وجه تصفحناها رأيناها من أبرّ ما يتعلمه أولادنا ويقيني انه بتعليمنا أولادنا وهم مرآة المستقبل في مدرسة الفقيد أي تقديمنا إياه مثالا لهم بعدهم لحياة أسمى وأرقى فيشبون على حب وطنهم وكنيستهم كما أحبهاهو من قبل.

تصريح المخلصين

للشبان المسيحيين

نص الخطبة التي ألقاها بنادي اتحاد الشبان المسيحيين في مساء الجمعة ٧ فبراير سنة ١٩١٣ .

طلب مني أصدقائي أعضاء جمعيتكم الموقرة ان أقف بينكم خطيباً يوماً من الأيام . فقبلت الطلب على عجل ولكني تمهلت في التنفيذ ريثما أهتدي الى الموضوع الذي ترتاحون لسماعه ويطيب لي فيه الكلام . وقد أسعدني الحظ فحضرت أحد اجتماعاتكم الأخيرة فراق لي قول الخطيب وشاقني حديث باقي الأعضاء حتى اذا مارأيت أحد كبار رجالنا وقادة الأفكار عندنا يرفع يده الى السماء ويتضرع الى الله بحمية وغيرة صحيحتين أن يهدي الاخوان الأقباط الى سواء السبيل وأن يوفقهم الى عمل الخير حتى يعيدوا الى أمتهم وكنيستهم مجدهما القديم عنّ لي أن أجعل هذه الأمنية الصادرة من قلب مسيحي مخلص موضوعاً لمسامرتنا في هذا المساء وأنتم اذا لذّ لكم سماع أخبار اخوانكم المسيحيين في هذه البلاد فأنا يحلو لي أبداً بثّ أنهم الكلام

على اني لا أقصد أن أشرح لكم هنا حوادث الكنيسة القبطية أو أعيد الى ذاكرتكم تاريخ الاضطهادات التي قاساها آباؤنا في الحرص على إرث ماري مرقس . لان شرح تلك الحوادث يطول وسماع حكاية تلك الاضطهادات يؤلم النفوس فيحسن ان نتناساها أو نسدل عليها الستار . ولكن لا بدّ لي ان أذكر لكم طرفاً مما كان لآباء كنيستنا ورجال أمتنا من الرقي العلمي والأدبي في الازمنة السابقة

كان رجال الكنيسة في ذلك العهد على جانب عظيم من الغيرة والتقوى والمعرفة وإن الاضطهادات والاحن والمحن التي صادفوها لم تكن إلا لتزيدهم ثباتاً في اعتقادهم ورغبة في الدرس وعلماً بفائدة التضامن وقد كان هذا حالهم ليس فقط في الاجيال الاولى بل أيضاً في القرون الوسطى .

أذكر من علماء الاقباط في الجيل السابع يوحنا النقيوسي وقد كان في آخر أيامه رئيساً لأساقفة الوجه البحري فمديراً عاماً للأديرة القبطية . ونستدل على سعة اطلاع هذا الامام الكبير بالمؤلف التاريخي النفيس الذي تركه لنا لما حواه من الحقائق والاخبار عن مصر في الزمن القديم ومملكة الشرق خصوصاً في عهد « فوكاس » و « هرقل » وحالة مصر بعد الفتح الاسلامي وغير ذلك من الحوادث التاريخية المهمة والنسخة التي عثروا عليها من هذا الأثر الجليل مكتوبة باللغة الحبشية مترجمة عن العربية وهذه مترجمة عن الاصل باليونانية والقبطية . ومن علماء الاقباط في القرون الوسطى ساويرس بن المقفع وتاريخه عن بطاركة الاسكندرية مشهور . ومرقس ابن القنبر وأهميته في التاريخ معروفة والاب بطرس السدمنتي صاحب المؤلفات الرائقة والقس جرجس أخو الاسعدي صاحب كتاب الحاوي العلمي والقس سمعان ابن كليل صاحب روضة الفريد والعلامة يوحنا بن زكريا صاحب الجوهرة النفيسة ومنهم أولاد العسال ومؤلفاتهم في اللاهوت وقوانين الكنيسة والعلوم والمعارف العصرية معروفة لدى المطلعين من السامعين .

فهذه أدلة واضحة على انه كان للاقباط عموماً ورجال الدين منهم خصوصاً اليد الطولى في المعارف والعلوم أما من جهة الفنون والصنائع فقد كانت المدن

المصرية والاديرة القبطية ملأى بالمهندسين المقتدرين والصناع الماهرين والعمال البارعين كما تدل على ذلك الآثار الباقية بالمساجد والكنائس، ليس فقط في مصر بل في البلاد الاجنبية التي نزح اليها الاقباط. ولايضاح ذلك يكفي ان نلقي نظرة على تاريخ مصر تحت حكم اخواننا المسلمين.

أثبت الدكتور « بطلر » ان المقوقس الذي ادعى بعضهم انه كان زعيم الاقباط وقت الفتح الاسلامي هو البطريرك « سيروس » الحاكم على مصر من قبل الرومان. وسواء فتح العرب مصر بقوة السيف أو بتواطؤ بعض الحكام فان الفاتحين الاولين منحوا القبط النصيب الاوفر من حرية الدين فانتعشت الكنيسة القبطية وبرهنت في الحال على انها كنيسة الامة المصرية على ان لانعطاف الحكام المسلمين نحو الاقباط فى الاجيال الاولى بعد الفتح الاسلامي أسباباً تاريخية ترجع الى ما قبل ظهور الاسلام وبيان ذلك أن عدداً عظيما من عرب اليمن اعتنقوا الدين المسيحي قبل ظهور الاسلام وكانوا كالاقباط أنفسهم من المتمسكين بمذهب المشيئة الواحدة كما أثبته العلماء في هذه الايام لدى فحص آثار الكنيسة التي بنيت في ذلك الوقت بمدينة صنعاء وبما وجدوه من الشبه بينها وبين كنائس الاقباط. فلما اعتنق عرب اليمن بعد ذلك الدين الاسلامي وجاؤا الى مصر مع بقية الفاتحين لم ينسوا الصلة القديمة التي كانت تربطهم بالمصريين فتصافوا معهم وانعطفوا اليهم وعهدوا لهم بأعظم المهام وأكبر المناصب فكان القبط في أيام عمرو وعبدالعزيز والوليد وطولون الى عهد السلطان حسن هم الموظفون الكبار الذين بيدهم ادارة البلاد والعمال الماهرون الذين يعتمد عليهم في بناء العمائر وابراز أجمل المصنوعات حتى أن عرب اليمن لما فتحوا بلاد الاندلس لم يروا بداً من

الاستعانة بالاقباط على تنظيم هذه البلاد وبناء العمائر وتشييد المعابد ونشر الصنائع بها لما كان لهم من الخبرة والمهارة ويستدل الباحثون على ذلك بما اكتشفوه من الآثار القبطية باسبانيا والبرتغال وهذه الآثار ظاهرة في الكنائس والمصنوعات التي تركها الاقباط بالاندلس بين الجيل الثامن والجيل الثاني عشر فقد ثبت أن هذه الكنائس التي كانت قبلاً جوامع انما بنيت على مثال الكنائس القبطية في مصر القديمة وأديرة الوجه القبلي وخصوصاً الدير الابيض الذي يرجع تاريخ بنائه الى سنة ٥٥٠ بعد الميلاد وكذلك الانسجة التي عثروا عليها في بلاد الاندلس تدل دلالة صريحة على انها من صنع الاقباط وهي تشبه من كل الوجوه الاقمشة والحرائر التي قال المقريزي انها كانت معروفة في مصر في عهد الفاطميين وقد عثر على آثارها المسيو « جاييه » في مقابر المسلمين والاقباط في الزمن الاخير .

هذه هي حقائق تاريخية لامبالغة فيها ومن كانت له رغبة في الاستفاضة وزيادة الايضاح عليه بمراجعة الكتاب النفيس الذي ظهر حديثاً تحت عنوان « اسبانيا العربية » .

ان الائمة والعلماء الذين سبق ذكرهم وكثيرين غيرهم ممن لم نعثر بعد على آثارهم كانوا فخر كنيستنا ومجد أمتنا فأين لنا من يعادلهم من الاقباط المسيحيين في الازمنة الحاضرة مع ماهم عليه من الاستعداد وما توفر لديهم من وسائل العلم وأسباب الراحة والطمأنينة .

قال اللورد كرومر والعهد ليس ببعيد: « ومن موجبات الاسف عند الذين يعدون الدين المسيحي ديناً مرقياً ومهذباً ان يجدوا الاقباط المسيحيين على نقائص كثيرة وأن القبطي المعدود مسيحياً لم يستفد من هذا الدين

ما استفاده غيره من المسيحيين» .

شعر فريق من الاقباط بالفرق بين حاضرهم وماضيهم فقاموا منذ اربعين سنة أو تزيد يحاولون تقويم المعوج واصلاح الشؤون ولكنهم لم يصلوا بعد الى نتيجة بسبب الخلاف وسوء التفاهم الحاصل بين افراد هذه الامة كما تعلمون. وليس الغرض الآن أن نوضح أى الفريقين مصيب وأيهما مخطئ ولكن الواقع الذي يؤلم ذكره اننا ما زلنا فى اخريات الامم الشرقية المسيحية وأن عهد الاصلاح مازال بعيداً عنا لو يتأمل المخلصون .

هاج الاقباط في السنين الاخيرة وماجوا واحدثوا حول مجلسهم الملي ضجة لم نزل نسمع رنينها الآن وقال صغارهم قبل كبارهم: لا يصح في عرف المنصفين أن تبقى شؤوننا الملية مهملة واحوالنا الطائفية ممتهنة فلا بدّ لنا من هيئة شوروية تهتم بتلك الشؤون وتصلح هاتيك الاحوال فيستقيم المعوج وتصان الاموال وتنظم الكنائس وترتقي المدارس ويتم الاصلاح العام على أهون سبيل . وقد ظفروا بتجديد أعضاء مجلسهم الملي وجزلوا وأعلنوا على صفحات جرائدهم أن النفع من وراء هذا المجلس مضمون وعهد الاصلاح قريب باذن رب العالمين . ولما شرع النواب في العمل تعلقت كل آمال الجميع بهم وشخصت كل العيون اليهم واشرأبت الاعناق لترى ماسيكون من وراء اجتماعاتهم من الاصلاح والتحسين وقد عرفتم انهم اجتمعوا كثيراً ونظروا في عدد عظيم من قضايا الاحوال الشخصية ولكن الناس مازالوا يتساءلون عن اعمال الاصلاح الحقيقي التي تسنى لهم القيام بها ويقولون إن اوقافنا وكنائسنا وأديرتنا ومدارسنا وعلى وجه العموم درجة الرقي الديني والادبي عندنا لم تزل على ما كانت عليه من قبل

رأينا أخيراً بالوطن الأغر بحثاً طلياً عن الجمعيات القبطية وتباين مآربها واختلاف مساربها . فقال بعضهم : أما كان الأجدر بجرائدنا والمفكرين منا البحث في أعمال المجلس الملي وهو جمعة الجمعيات والمرجع الاكبر لاجراء الاصلاح الذي تتوق له النفوس من زمان بعيد .

إن الجمعيات القبطية وإن تعددت أسماؤها وتباينت نزعاتها لدليل على غيرة الافرادوشعورهم بالحاجة الى الاصلاح في مختلف الشؤون.فاذالم يتوفق أعضاؤها أحياناً لانجاز المهام الكبيرة فذلك لان وسائلهم قاصرة وسلطتهم محدودة ولكن الكثيرين يتساءلون لماذا لم يتوفق أعضاء المجلس الملي لانجاز الاصلاحات المرغوبة أو على الاقل للمشروع فى ادخال بعضهاوما كان الغرض من تلك الضجة الاقتصار على نظر قضايا الاحوال الشخصيةوترك بقية الامور.

سمعنا انهم اهتموا بأمر المدارس وهموا بنقل المدرسة الكبرى الى محل لائق بها.وادخال بعض الاصلاحات على نظامها. ولكننا لم نسمع بعد بانجاز شيء من هذا القبيل ولم تزل المدرسة باقية فى مكانها الرث القديم . أما المدارس الاخرى التابعة للمجلس سواء للبنين أو البنات فهي كما عهدناهامن قبل مفتقرة الى الاصلاح بكل أنواعه . واذا أردت أن تستطلع ما طرأ على الكنائس من الاصلاح والتنظيم . فعليك بمراجعة « ملاحظات » حضرة الفاضل قوسه بك جرجس ففيهامايغني عن البيان والافصاح لكل قارئ لبيب.

ومجمل القول إن المجلس الملي لم يتمكن الى الآن من طرق أبواب الاصلاح الحقيقي ويقول بعضهم : إن لاعضائه عذراً ونحن نلوم ، على اني مازلت أعتقد أن فيما يحسبونه عقبات في طريق الاصلاح مالا يحسب كذلك.

وانه لايستعصى على المخلص أمر يود انجازه لو جعل رائده الثبات مع شيء من التلطف وانكار النفس . ومن الجهة الأخرى لا أصدق أن غبطة البطريرك راضٍ عن حالتنا الحاضرة بل أعرف انه يود من صميم فؤاده أن يرى أبناءه في مقدمة الراقين في هذه الايام. فالوفاق إذن ميسور وليس الصفاء محالاً كما يظن البعض لو جدّ نوابنا الذين نثق بحكمتهم وكياستهم في تحقيقه. لأن النفوس سئمت الانتظار والحاجة ماسة الى الاصلاح وإلاّ اذا كانت هناك صعوبات أُخرى يعتقد أعضاء المجلس الملي انه لاقبل لهم بالتغلب عليها فليبادروا بابدائها للجمهور تهدئة للخواطر القلقة واجابة لطلب الكثيرين من السائلين. والا فمن الظلم أن يشقى الالوف من البنين والبنات وأن تحرم الامة بأسرها وسائل الرقي بسبب مثل هذا الخلاف .

واذا تحقق ماسمعناه من العزم على انشاء ادارة مخصوصة لضبط ايرادات أوقاف الاديرة وصرفها في النافع المفيد كان أملنا في الاصلاح أقوى، خصوصاً وأن ايرادات تلك الاوقاف تكفي لاحياء الاديرة واصلاح حالة الاقباط على وجه العموم فاذا أنشئت بالاديرة المدارس كما كانت في العهد السابق لا تلبث هذه الاديرة ان تصبح مراكز للآداب المسيحية ودوراً للصنائع القبطية ومعاهد للمعارف العصرية فيؤمها أبناء العائلات الطيبة ويكون لنا منهم طلاب صالحون للمراكز الدينيـة الرئيسية ومناصب الشرع القبطي ومهام النشر والتدريس في مختلف العلوم .

نحن نفضل أن نستمد نور العلم والعرفان من آباء الكنيسة وأن يكون رقينا وصلاحنا على أيديهم وأن يكونوا مرشدينا ومعلمينا في الوقت الحاضر كما كانوا في الزمن السابق وهم إذا قاموا بهذه المهمة خلدوا لانفسهم في التاريخ

ذكراً عاطراً لايمحوه مرور الايام ونالوا أجراً من الله وشكراً من عباده المخلصين يردده الخلف عن السلف الى أبد الآبدين . ولا أخال أحداً يتوهم أن صرف ايرادات أوقاف الاديرة على هذا الشكل يخلّ بشرط الواقف بوجه من الوجوه لأن الاموال ستصرف في اصلاح ذات الاديرة وايجاد مدارس بها وما ضرّ الواقف أو الموقوفة عليهم تلك الاملاك لو تخرج من هذه المدارس من ينشر العلم والفضيلة والآداب الراقية والاخلاق الراضية بين الافراد.

اني من الذين يرجحون نيل الاصلاح على أيدي أباء الكنيسة وينتظرون السعادة في مقبل الايام من داخل الاديرة وأخشى أن مهمة المجلس الملي ستبقى قاصرة على النظر في قضايا الاحوال الشخصية واجراء بعض الاصلاحات الوقتية اذا كان له اليها سبيل أما الاصلاح الحقيقي فسيأتي لنا عن طريق الصحراء يوماً من الايام .

كنا في الزمن السابق مرشدين للغير وكانت تعاليم آباء كنيستنا نبراساً يضيء على أبناء الكنائس الاخرى وكان الناس يقصدون أساتذتنا للاستنارة والاهتداء . والولاة والحكام يلجأون الى رجالنا وعمالنا للاصلاح والعمران أما الآن وقد انعكست الآية وانقلبت القضية فيجب أن لا نغش أنفسنا بأنفسنا ونعترف بحقيقة الحال حتى اذا شعرنا بعلل تأخرنا عملنا على ازالتها وتخيرنا للاصلاح أحسن الوسائل وأقواها تأثيراً . وأول نقص يجب أن نفقه لملافاته اننا لا نفهم بعضنا البعض كأن الواحد يتكلم لغة لا يعرفها الآخر وهذا يشعر بما لا يحس به الباقون والكل لا يعرفون الى أي طريق هم مسوقون وهذا دليل على تباين النيات واختلاف المقاصد وعدم اتفاق القلوب على ما فيه الصالح العام .

يتقد فؤاد الفقير غيرة واخلاصاً على الاصلاح ولكن يدالغني تنكمش وتنقبض اذا هو دعاه يوماً للبذل والعطاء . تئن الفتاة المسكينة وتتوجع وتستغيث طالبة المزيد من العلم والرقي فلا يرق لها فؤاد السري ولا يشفق عليها قلب صاحب اليسار .اذا جمع شملنا نادٍ فرق كلمتنا حب المال واذا أردنا القيام بمشروع مفيد قامت أمامنا في الحال جملة صعوبات . واذا امتاز أحد منا بأقل المواهب قالوا نحن شركاء لك الى يوم الممات . هذا يدعي المعرفة وهو أبعد الناس عنها . وذلك يتظاهر بالنفور من الجهل وهو أقرب الناس اليه . وكل يريد أن يكون الفرد الاحد الذي لا نظير له في العقليات. ولا شريك له في الكمالات. فلو اننا تفاهمنا فيما بيننا وتركنا الغرور وحب الذات جانباً لسهلت علينا وسائط الرقي الصحيح فيعلو شأن الاكليروس وتصلح حال الرعيه . واسمحوا لي أن أضيف بين قوسين (ويتم على عجل بناء الكلية) . وهذا مايجب أن تتجه اليه أميال الشبان المسيحيين ومساعي الرجال المخلصين .

بقي عليّ أن أكاشفكم بأمر آخر ربما كان من أكبر الاسباب لتأخرنا هو عدم التفاهم بيننا وبين أبناء الطوائف الاخرى .

يعرف الغير شيئاً كثيراً عن كنيستنا وبطاركتنا ومجامعنا وأديرتنا وأقوال آبائنا ومؤلفات علمائنا ولهم في كل يوم مباحث طليةعن آثارنا ولغتنا ينشرونها في الجرائد والمجلات ويتحدثون بها في الأندية والجمعيات . وقد تنقضي سنون ونحن لانعرف عنها شيئاً أو نسمع بها . ولماذا هذا لأننا جرينا على الاعتقاد الفاسد بأن كل ما يأتي انا من الخارج فيه خطر على استقلالنا واخلال بكيان كنيستنا .

شعرت الامم المسيحية في الشرق بما نشعر نحن به اليوم فلم يتأخر أبناؤها عن اقتباس العلم من ذويه وكانوا من الفائزين وظللنا نحن واقفين وقفة الرجل الضعيف وكنا من الخاسرين .

إن الذين يوجسون خيفة ويتوهمون أن الاخذ عن الأمم الأخرى يضر باستقلال كنيستنا أو يؤول الى تغيير شيء من طقوسنا لفي ضلال مبين . وهاهم رجال الكنائس الموالية لنا قد عرفوا درجة تأخرنا فأشفقوا علينا وعطفوا لجانبنا وأظهروا ميلاً لاتشوبه أدنى شائبة لانتشالنا من وهدة هذا الانحطاط وقالوا بصريح اللفظ إن غايتهم الاخذ بيدنا لاصلاح أحوالنا بأنفسنا وإحياء التعليم عندنا وبث روح النشاط وتجديد الغيرة في أفئدة رجال الدين منا فلم نسمع لهم نداء ولم نمد اليهم يد الاخاء وبقينا نركض وراء الارتقاء على طريقتنا العرجاء .

إن وقت المشاحنات بسبب اختلاف العقائد والمذاهب قد مضى وانقضى وأصبحنا في عصر ينظر فيه المسيحي الصادق الى أخيه من أصحاب الديانات الأخرى نظر الشريك في الانسانية ويشاطر القبطي الارثذوكسي أخاه الكاثوليكي أو البروتستانتي أرقّ العواطف وأرقى المبادئ المسيحية . فليس من ثمّ باعث للاقباط الى النخوف من التقرب من اخوانهم أبناء الطوائف الاخرى بدعوى المحافظة على القديم واعتقادي اننا كلما عرفنا مبادئ الدين المسيحي السليمة ودرسنا تاريخ وحوادث كنيستنا تجلت أمامنا هذه الحقيقة وظهرت لنا مزايا الاتحاد والتضامن بين أجزاء الانسانية على وجه العموم والطوائف المسيحية على الخصوص .

إن الناسك الراغب في التفرغ للعبادة يصيب اذا هو رفض الاختلاط

بغيره من الادميين ولذلك تعتبره كنيستنا خارجاً عن هذا العالم فتصلى عليه بمجرد انفصاله صلاة الموتى كما تعلمون . ولكن هذا ليس شأن الامم الحية التي تطمع في الارتقاء. والامة التي تنفرد عن الامم الاخرى وترفض الاشتراك معها وترغب عن مبادلتها أسباب الحياة ومشاطرتها مزايا العلم وفوائد التمدن بدعوى الاستقلال تبقى منحطة إلى ما شاء الله مهما حاولت أن تصلح من شؤونها. وعندي أنه اذا كان لمصر سبيل الى الرقي بدون تبادل أسباب الحياة ووسائل التمدن مع بقية البلاد فلا أمل للاقباط في الارتقاء اذا هم بقوا معتزلين عن الطوائف الاخرى راغبين عن تناول وسائل العلم ومعدات الارتقاء. ولا يفهم من هذا أيها الاخوان اني أشير على الاقباط بعدم التمسك باعتقاداتهم القويمة أو اني احملهم على تغيير شيء من طقوس كنيستنا أو غير ذلك مما عساه أن يتبادر الى ذهن بعض البسطاء. حاشا لي ولغيري أن يشير بمثل هذا الجرم. فلنحافظ على عقائدنا المميزة لكنيستنا ماشئنا كما حرص عليها آباؤنا من قبل ولكن يجب أن لا نصم اذاننا ونغمض أعيننا عن نور العلم إذا جاء لنا عن طريق المخلصين. وأن لا نكتفي منه بالقشور كما هو الحاصل الآن خصوصاً في هذا العصر الذي نعيش فيه هادئ البال مطمئن الخاطر والعاقل من انتهز أحسن الفرص لنيل أمانيه واستخدم انسب الظروف لتحقيق رغائبه

تلك نتيجة ابحاثي في تاريخ كنيستنا وامتنا وهذه تصريحاتي عن شؤوننا الحاضرة اقدمها لكم كما املاها على الفؤاد فعسى أن تحملوها محملاً حسناً وأن لا تؤولوها الى غير معناها الصحيح ومتى كانت وجهتي الصراحة فليكن رائدكم الولاء. والسلام مني وبقية المخلصين لصفوة الشبان المسيحيين

تعليم الفتاة

حول مشروع كلية البنات

ننشر تحت هذا الباب بعض الخطب والمقالات التي القاها الفقيد أو كتبها بصدد هذا المشروع

(١) اساس التربية

نص الخطاب الذي القاه في ١٧ مايو سنة ١٩١٢ بمدينة الفيوم

ليس أحب الى الانسان من الاجتماع في مثل هـذه الحفلة باخوانه واصدقائه وابناء عشيرته للاستعانة بهم على انجاز المشروع الخطير الذي اجتمعنا من أجله اليوم فلا غرو اذا رأيت سراة الفيوم يتسابقون للحضور في هذا المكان وعلامات السرور والابتهاج تلوح على الوجوه .

إن الاهتمام أيها السادة باخراج مشروع كلية البنات الى حيز العمل لمن أقدس الواجبات على أمة كالامة القبطية يأمرها دينها باحترام المرأة ومساواتها بالرجل ومنحها مالها من الحقوق بل هو باجماع العقلاء أمر مست اليه الحاجة من زمن بعيد وأصبح لازما لارتقائنا اذا كان لنا سبيل الى الارتقاء

يقولون إن الاحسان على المعوزين وسد حاجة الفقراء والمساكين مما تقضي به واجبات الانسانية وتدعو اليه عواطف الشفقة والحنان ونحن لا تنكر ذلك بل نعترف انه سعي حميد وفعل مشكور. ولـكن لا بد لنا من أن نذكر القوم الـكرام وقد جاء وقت الافصاح والبيان أن للفقر الادبي والفقر العقلي نتائج أدعى الى الحزن والاسى من عواقب الفقر المادي لان تأثيرهما اكثر

ضرراً وأشد وطأة على المجتمع الانساني لو يفطن العارفون . فاذا وجب علينا السعي في تخفيف ويلات المسكين واعالة الفقير ومؤاساة العليل فان التعاون والتعاضد على مقاومة آفات الفقر العقلي لمن أشرف الواجبات وأسماها في عرف المخلصين وكل فوز في هذا السبيل يعد نصراً مبيناً للانسانية لانه يدفع بالامة الى النشاط والعمل ويقلل في الوقت ذاته عدد الكسالى والعاطلين على أهون سبيل واذا نحن لم تقنع بتعليم الشبان وطمعنا في توسيع دائرة معارف البنات فهذا أجمل ما نصنع من أشكال الاحسان وأحسن ما نهيئه من الوسائل لتعميم الخير ونشر مبادئ الاصلاح بين العالمين .

نعم إننا قد خطونا في مدى العشرين سنة الماضية خطوة عظيمة في هذا السبيل وإن مدارس البنات اصبحت بحمد الله منتشرة في انحاء البلاد ولكن انى يتسنى لنا الوصول الى الدرجة المرغوبة من الارتقاء وقد اقتصرنا على التعليم الابتدائي واقمنا الحواجز في وجه الفتاة المسكينة حتى اذا ما وصلت سن الخامسة عشرة ونالت طرفاً من لغة أجنبية ودقت على البيانو بعض النغمات العربية تصورنا انها بلغت الحد الكافي من التربية فنقفل وراءها الباب ونتركها سجينة الحجاب الى أن يرزقها ذو الجلال بابن الحلال

لاحاجة لي، أيها السادة الى زيادة الشرح في هذا المقام فكلنا يعلم أن تربية البنات عندنا غير وافية بالمرام واننا قد وقفنا في منتصف الطريق فلا يصح أن نرجع القهقرى ولا قبل لنا على التقدم الى الامام فالاتحاد والتعاون على انجاز مشروع كلية البنات هو بلا شك أحسن سبيل للخروج من هذا المأزق المهين

ولا يتخيلن السامع اننا نريد (بكلية) البنات قسماً من جامعة نرجو أن

تتخرج منه آنسات على آخر طراز من السيدات الغربيات فيقدن السيارات ويركبن الطيارات. أو أننا نريد أن يكون لنا في المستقبل سيدات ينازعن الرجال في الاعمال كما هو الحال في فينلندا و الدانيمرك والنروج وزيلندا الجديدة واستراليا. أو أننا نطمع أن يكون لنا آنسات يطالبن بحق الانتخاب في المجالس النيابية كما تفعل النساء الانجليزيات الآن. أو اننا نقصد بالكلية القبطية مدرسة جامعة يتعلم فيها الفتى والفتاة جنباً لجنب وعلى صف واحد كما هو حاصل الآن بأميريكا. انما نقصد بالكلية القبطية مدرسة عالية تتخرج منها أوانس قادرات على تأدية وظائفهن الطبيعية أعني زوجات يحسنّ ادارة البيوت وتربية الأولاد. واعتقادنا كغيرنا من المعتدلين أن المرأة إذا خرجت عن هذا الحد بأن اشتغلت بالمسائل السياسية أو قيادة الجيوش أو الطيران مثلاً أهملت بالضرورة وظيفتها الطبيعية فتسوء تربية الأولاد ولا يجد الزوج في بيته مايحتاج اليه مما يحق له المطالبة به وتكون العاقبة وبالاً على أفراد الجنسين أجمعين.

وقد يعجبني ما ذكره أحد الظرفاء في هذا المقام حيث قال: «ليس اشتغال الرجل بمهنة المراضع كالنساء بأقل شذوذاً وغرابة من اشتغال المرأة بمهنة المتشرعين كالرجال» . وقول جون سيمون: « إن شرفنا يقضي علينا باجابة طلب النساء في كل أمر إلا فيما يؤدي الى تحويلهن رجالا » . وقول مدام رولان: « لا مطمع لنا نحن النساء إلا أن نسود على عواطف الرجال ونتبوأ قلوبهم عرشاً لنا ».

فهذه الاقوال التي تشف عن آراء المعتدلين في تهذيب البنات تطابق رغائب القائمين بمشروع الكلية القبطيه كما سبق البيان. وعلى كل حال فلاحاجة بالفتاة المصرية الى الاقتداء بآنسات البلاد الاجنبية وعندنا من الامثلة التاريخية عن المرأة

المصرية في الزمن السابق ما يكفي لاتخاذها خير أسوة لفتاتنا الحاضرة حتى اذا ما نالت هذه من التربية النصيب الوافر أصبحت قادرة على أداء وظيفتها الطبيعية فتسود على العواطف بكمالها وآدابها وتتملك القلوب بحسن صفاتها وجميل فعالها.

إن أحسن طريقة لازالة الأوهام من العقول واعدادها لقبول المشروعات العصرية هي درس التاريخ والوقوف على حقائقه فلا نكاد نراجع تاريخ بلادنا حتى نعجب بما كان لأجدادنا من الاهتمام بشأن المرأة وتقدير منزلتها واحترام حقوقها وهي التي كانت تتمتع في أيام عزهم بالمساواة والحرية بأكمل معانيهما . وقد ذكر هيرودتس وغيره من مؤرخي اليونان الذين زاروا مصر أن المرأة المصرية كانت ربة المنزل بكل معنى الكلمة ليس فقط في قصور الفراعنة بل وفي بيوت العامة من أفراد الامة وقد أيد ذلك العلامة ماسبرو بما ذكره في أحد مؤلفاته حيث قال : «كان للمرأة المصرية في الطبقة الوسطى وبين العوام من الاحترام والاستقلال ما كان لزميلتها في الطبقة العليا فكان لها وهي ابنة حصة مساوية لحصة أخيها في ميراث والديهما . كانت وهي زوجة السيدة السائدة في بيتها وكانت تروح وتغدو كيف شاءت وتتكلم مع من أرادت ولا لوم عليها ولا تثريب وكانت تختلط بالرجال وتحضر الحفلات العمومية ولا حاجر ولا حجاب».

وبديهي أن التربية هي التي أوصلت المرأة الفرعونية الى هذه المنزلة الرفيعة وقد يطول الشرح لو سردت لكم ماجاء في التاريخ عن النابغات من المصريات في الازمنة الماضية وهنا أقتصر في هذا المقام على ذكر القليل . ففي عهد الفراعنة اشتهرت نيتوكريس من العائلة السادسة بالذكاء والدهاء . وهاتاسو من العائلة الثامنة عشرة بالحزم والاقتدار . وفي عهد الرومان اشتهرت

ثبان بالعلم والفلسفة وثكله بالمعرفة والتصنيف . وهي التي وجد بخطها نسخة من الكتاب المقدس لاتزال محفوظة الى الآن بمتحف لندن. وغيرهن كثيرات في أيام المسيحية كما تدل عليه مؤلفات آباء الرهبنة. فكان يوجد بالدير الذي أسسته مريم أخت باخوميوس بالوجه القبلي راهبات متعلمات وآنسات مهذبات من بنات العائلات الشهيرة بالاسكندرية كما أوضحنا ذلك في المقالة التي نشرتها حديثاً مجلة رعمسيس الغراء . وقصارى القول انه إذا تاقت الآن نفوسنا واشرأبت أعناقنا الى كلية البنات فانما نحن نريد بذلك أن نعيد للمرأة المصرية ما كان لها من المنزلة والاحترام في غابر الأزمان .

ولما كان للسيدات الفضل الاكبر في المبرات. واليد الطولى فى انجاز خير المشروعات. فخليق بالراقيات من نساء البيوتات القبطية أن يتصدرن مشروع تأسيس كلية البنات. ويقيني أنهن اذا خطون فيه الخطوة الاولى كان ذلك أيمن فأل لنجاح المشروع وأضمن لتحقيقه في القريب العاجل إن شاء الله. وكأني بعقيلات الفيوم قد شعرن بأهمية الأمر فأردن أن يكون لهن السبق في هذا المضمار . وإن في اجتماعهن بالامس ومبادرتهن للاكتتاب ما يوجب الفخر والاعجاب. فحيا الله تلك العواطف الشريفة والاحساسات الراقية وأكثر من مثيلات هاتيك السيدات بهذه البلاد. أما أنتم يا رجال اليوم فقد عهدنا كم من قبل أنصاراً للارتقاء الادبي والعقلي ولكم في شؤون التربية الملية الايادي البيضاء والمآثر الغراء فلاغرو اذا انبريتم لتعضيد مشروع كلية البنات وسبقتم غيركم من أعيان الاقاليم الى هذا العمل الجليل. والمقصد النبيل. وسوف يتحدث الصغير والكبير والغني والفقير والام وابنتها والوالد وولده بجميل فعالكم وكرم أخلاقكم وتلهج الالسنة بالعاصمة والاقاليم بالثناء على غيرتكم والاعتراف بفضلكم.

(٢) التضامن

نص الخطاب الذي فاه به في احتفال المنيا الذي أقيم في ٧ يونيه سنة ١٩١٢

أيها السادة :

أقف بين أيديكم في هذا الاجتماع السعيد لا لأستنهض همتكم لمساعدة مشروع كلية البنات فهمتكم مشهورة لا تحتاج الى استنهاض ولكن لأبين لكم بعض الاسباب التي دفعت الجمهور الى زيادة الاهتمام به والاقبال عليه. ولا بد لي قبل ذلك أن أعرب لكم عما يخالج صدورنا نحن مندوبي اللجنة من السرور لوجودنا بينكم في هذا المكان المبارك فقد بدأنا نشعر بهذا السرور منذ تشرفنا بمقابلة نيافة المطران أثناء اقامته بالعاصمة فقد أظهر من الانعطاف والارتياح لمساعدة المشروع وإقامة هذا الاحتفال ما شوقنا للاجتماع بأعيان وسراة المنيا وبقية رجالها الأماجد . فلا عجب إذا كان سرورنا بلقائكم اليوم عظيماً .

أما المشروع الذى ارتاحت نفوسكم للاشتراك في انجازه فلا حاجة بي الى اظهار أهميته والنفع المنتظر لأمتنا على أثر تحقيقه بعد أن أفاضت جرائدنا في اظهار مزاياه وامتلأت أعمدتها بالاطناب في مدح كل غيور ينقدم للعمل فيه . على اني رغماً عن كل ماقيل وكتب بهذا الشأن لم تزل في نفسي حاجات أريد أن أبسطها أمامكم بعد أن طال وقت السكوت .

إن المشروع الذي اشتغلت به الافكار واجمعت عليه الاراء لمن الخطورة بمكان . ويكفي أن اقول انه الطريقة الوحيدة لتقويم اعوجاجنا واصلاح شؤوننا . وبعبارة اخرى انه أس رقينا وبدونه لا نقوم لنا قائمة . أقول ذلك لاني

اعتقد ما اقول ولا اتكلم بغير ما اعتقد. اعتقد والله شاهد على ما اقول أن مشروع تأسيس كلية البنات أولى باهتمامنا من أي مشروع آخر مهما بدت فوائده وكبرت مزاياه في عين الناظر البسيط. فلا غرو اذا اجمعت اراء العقلاء على تفضيله على ما سواه وتسابق السراة والأعيان والسيدات والرجال في مد يد المساعدة له.

قلت انه أس الاصلاح وسلم الارتقاء والقول أيها السادة صحيح لا مبالغة فيه ولا مراء وقد يحسن في هذا المقام أن أذكركم بما قاله بهذا الشأن أكبر المصلحين الذين درسوا أحوال هذه البلاد وخبروا شؤونها السنين الطوال

قال اللورد كرومر في كتاب « مصر الحديثة » : إن حالة المرأة في مصر هي أعظم عقبة تحول دون ارتقاء الافكار والأخلاق في هذه البلاد وإن لا شيء يزيل هذه العقبة سوى تربية البنات. وأنتم تعلمون أن ناشئة هذا الجيل بدأوا يتطلعون للتزوج من قرينات ذوات صفات أرقى من سابقاتهن. فتبادل التحسين في تهذيب الذكور والاناث لم تقتصر فائدته على زيادة الرغبة في تعليم البنات بل أدى الى توسيع نطاق هذا التعليم واطالة مدته الى الحد اللازم حتى يأتي بالثمرة المقصودة. إن الذي يحتاج اليه الرجل المصري هو تحصيل تلك الصفات التي تنطوي تحت لفظة «احترام النفس» وهذه الصفات لا يؤمل حصوله عليها إلا اذا تعلم كيف يحترم امرأته ويقيم على حبها واكرامها الى أن يفرق الموت بينهما.

ويقول فخامة اللورد كتشنر في تقريره الذي ظهر حديثاً انه ليس في تاريخ مصر الاجتماعي في مدى الاثنتي عشرة سنة الماضية مسألة أولى بالاعتبار من مسألة اهتمام المصريين على اختلاف طبقاتهم بتربية البنات ولكن الحاجة لم تزل ماسة الى زيادة عدد المدارس واعداد مدرسات للتعليم العالي

هذه هي أقوال أكبر المصلحين عن أهمية تربية البنات في هذه البلاد وجميعها تؤيد فكرة القائمين بمشروع الكلية. فخليق بنا أن نراجع ضمائرنا ونذكر تلك الأقوال إن لم يكن لنا من أراء عقلائنا ورجال الطبقة الراقية عندنا ما يكفي للنصح والارشاد

إن تأسيس كلية البنات أيها السادة هو ضالتنا المنشودة والمستشفى الحقيقي الذي يجب أن نسعى وراءه. فبدونه لا تقوم لنا أخلاق ولا تنشط لنا عقول. فلا بد لنا من الاتحاد والتعاون على تحقيق هذه الامنية. واذا كان تأسيس كلية البنات شيئاً حديثاً في هذا البلاد فلا غرو اذا تفرد الاقباط بانجازه وقد قال العلامة ماسبرو إن مصر أم الافكار السديدة التي سادت في العالم وإن أقباط هذه الايام خير ابناء لتلك الامة .

ما الذي ينقصنا اذاً لنكون جديرين بهذه النسبة المجيدة وما تنطوي عليه من المعاني الرائقة . تنقصنا صفة واحدة يلزم أن تكون الغالبة في صفاتنا وهي سجية التضامن. وقد يسرني ويسر كل مخلص لابناء أمته ان أعلن أن مشروع كلية البنات قد دل على أن الاقباط في استعداد لتحصيل هذه الصفة المحمودة. فما ذاع نبأ انعام الحكومة السنية علينا بقطعة الارض اللازمة للبناء حتى تحركت أريحية أقباط الاقاليم ودفعتهم الغيرة لمد يد المساعدة لاخوانهم بالعاصمة لانجاز هذا المشروع الجليل واني لا أرى مندوحة من الاعتراف هنا بان لاقباط مصر الوسطى حق السبق في هذا المضمار. على أن سراة المنيا قد أظهروا من قبل عظيم ارتياحهم لمساعدة المشروع. وما تأجل هذا الاجتماع الى اليوم الا لاسباب خصوصية لا حاجة لذكرها الآن وعلى كل حال فميل الجميع الى التضامن يقابل منا بالشكر والثناء. ويذكر لهم بالفخر والاعجاب

واذا كان التضامن الطبيعي لازماً لكيان المجتمع الانساني فالتضامن

الاجتماعي ضروري لانجاز المشروعات ذات المنفعة العمومية التي يقوم بها الافراد. وقد قضت السنن الطبيعية أن يتبادل الانسان الخدمات مع اخوانه وأبناء جنسه. والفرد مهما بلغت قدرته لاغنى له عن المجموع. وهو لا يستطيع بمفرده أن يعمل عملاً كاملا بمفرده. واذا عول على قواه الخصوصية دون غيرها يبقى مهدداً في ماله وراحته ووجوده. ففي عدم التضامن الطبيعي المرض فالانحلال فالعدم والعياذ بالله. أما التضامن الاجتماعي فالداعي اليه الشعور بالاشتراك في المنفعة العمومية وهو دليل على الارتقاء العقلي والادبي لأن الانسان كلما ارتقت احساساته الاجتماعية كلما شعر بخطورة ما عليه من الواجبات نحو اخوانه وأبناء عشيرته

إن كنز المعارف الذي أحرزته الانسانية في ميدان الذكاء لا يمكن أن يختص به الرجل دون المرأة. بل هو متاع عمومي. وللجنسين حق الاشتراك فيه على السواء ولكل فرد أن يأخذ منه نصيبه بقدر ما أعطي من المواهب. فبالتربية يتعلم الانسان المعنى الحقيقي للتضامن ويدرك مزايا الفضائل الاجتماعية حتى اذا اعتاد عليها أصبحت ملكة في طبيعته والفائد الاكبر لافكاره واعماله وبالعدل والحب المتبادل تحقق الانسانية الوفاق الادبي الذى يرمي الى هذا التضامن وفي الوصول الى هذه الدرجة منتهى الارتقاء والقدرة والسعادة.

يقولون إن المرء قليل بنفسه كثير باخوانه والقول جدير بالتأمل وفيه عظات وحكم ثمينة لو يذكر العارفون. فاذا تعذر على أقباط العاصمة أن يقوموا بمفردهم بهذا المشروع الخطير فواجبات الانسانية وشروط المنفعة المشتركة تقضي على اخوانهم بالاقاليم أن يأخذوا بيدهم في هذا العمل الجميل وهذا

شكل من أشكال التضامن الاجتماعي ودليل على الارتقاء كما سبق البيان. فليس اجتماعكم اليوم أيها السادة لمجرد التشبه برجال الفيوم ولكن هي الغيرة الملية والاحساس الراقي اللذان دفعاكم لعقد هذا الاجتماع الحافل لتبرهنوا على انكم جزء من ذلك الكل المتضامن وانكم تقدرون المشروعات الخطيرة قدرها. فلا تتأخروا وقت الحاجة عن الاشتراك فيها ولا تضنوا بالبذل والعطاء لانجازها. ولاجتماعكم اليوم وارتياحكم لمساعدة مشروع كلية البنات معنى آخر أشرف وأسمى ألا وهو الميل الى إعلاء شأن المرأة المصرية والانضمام هكذا الى فريق المصلحين وأصحاب الآراء السليمة وهو الفريق الذي يعتقد أن تربية البنات الطريق الوحيد الموصل للارتقاء.

فليكن الاخلاص رائدنا وحب التضامن قائدنا والمنفعة العمومية وجهتنا واحترام المرأة كعبتنا. إنّا اذا فعلنا ذلك زالت أوهامنا وارتقت إحساساتنا وصلح حالنا ونلنا السعادة بكامل معانيها تلك السعادة الحقيقية التي لا تخطبها إلاّ نفوس الاحرار ويبذل كل كريم فى مهرها الروح قبل الدرهم والدينار.

وفى الختام أقدم وافر الشكر لجناب الحبر الجليل المطران الموقر على حسن عنايته وجليل رعايته في هذا المقام وأثني الثناء الجميل على غيرة حضرات الافاضل الذين شرفوا بحضورهم هذا الاحتفال طالباً منه تعالى أن يقرن أعمالنا بالفلاح وينجح مقاصدنا لخير أمتنا العزيزة انه سميع قدير.

الى الاغنياء

اقتراح (١)

إن الحركة القائمة الآن بين الأقباط وتسابق سراتهم وسيداتهم

(١) نشرت بجريدة مصر بالعدد ٤٩٠٢ فى ٢ يوليه سنة ١٩١٢.

لمساعدة المشروعات الخطيرة واهتمام رجال الفضـل والأدب بينهم بنصرة التربية الصحيحة والتهذيب الراقي لدليل على شعور جديد يكاد يتناول جميع طبقات الأمة وأفرادها أجمعين فالأمل أنه لا يمضي وقت طويل حتى تظهر آثار هذه النهضة المباركة ويكون لنا من ورائها النفع العميم .

وهاك مشروع كلية البنات وقد بلغ الاهتمام به مبلغاً لم يسبق له مثيل حتى أصبح ميدان سباق للسراة والأعيان. وحلبة رهان للغيورين ومحبي الخير من الرجال. هذا يهب له جزأ مما خصه الله به من العقار. وذاك يتبرع بالمئات من الفروش والجنيهات. وكل يفتخر بالاشتراك فيه ويعمل على فلاحه وانجازه. ولـكن الذي يمتاز به المشروع أن أعضاء اللجنة القائمة بادارة شؤونه قد آلوا على أنفسهم المثابرة على العـمل مهما قام فى سبيل المشروع من الصعوبات. وبلغت تـكاليفه الدراهم والجنيهات. وهم فى كل يوم يبـدون من آيات الغيرة والاقتـدار. مايذلل الصعوبات ويزيد فى قيمة التبرعات. وما هي إلا بضعة أشهر حتى تحتفل الامة بوضع الحجر الاول لهذا المعهد الجديد الذي تتطلع له النفوس وتشرئب له الأعناق من زمان بعيد .

أما وقد بدأ المهندسـون فى وضع الرسوم وقرب وقت الشروع فى العمل فلا بد لنا من تذكير القوم الـكرام. وفى مقدمتهم أئمة الدين ورؤساء الأديرة والسراة والأعيان. أن المشروع دخل فى دوره الجـديد وهو دور العمل والظهور فاذا نحن أظهرنا ثباتاً وثابرنا على الغيرة والسخاء اللذين بديا فى الشهرين الماضيين برهنّا الملأ أن أقباط اليوم جديرون بالثقة. وأهل الارتقاء. وأنهم إذا ما قالوا فعلوا. وفى هذا من دلائل الرقى واحترام النفس ما لا يخفى.

ولما كان الحق في جانبنا. وعواطف وأميال الجمهور معنا. والآمال والأماني معقودة بناصر المشروع فنحن سائرون الى الامام حتى نبلغ الارب ويتم المشروع ان شاء الله.

إن الذين يعترفون بفوائد الكلية ويحجمون عن البذل للمشروع بدعوى أنه يستلزم نفقات طائلة يغشون أنفسهم. وهم لو تأملوا قليلاً لعرفوا أن المشروعات الكبيرة هي التي تستلزم جمع القوى واتحاد الكلمة والتضامن والاخلاص في العمل. وأن أي انعطاف يبدو لمساعدة المشروع يبقى موضوع احترام واعجاب مهما كانت قيمته ومن أي انسان صدر.

غاية الذكاء معرفة الحق. ومقصد الحب عمل الخير. فليكن نصيبنا من الذكاء الاعتراف بفوائد الكلية وحضنا في عمل الخير التعاون لتشييد البناء اللازم لها. واذا لم يتوفق أبناء الجيل الحاضر لتحقيق أمنية الأمة في تأسيس هذه الكلية يعد ذلك شذوذاً لسنن الارتقاء الطبيعي غريباً في بابه. فهناك شريعة تسود وتأمر هي شريعة العدل الذي يتقدم ويمتد في وسط الحوادث السعيدة كما في وسط المقاومات المشئومة وهذه الشريعة تقضي بالارتقاء في سلم التربية. أما وقد حان وقت تنفيذها عند الاقباط فلا راد لقضائها لاسيما وقد تعهدنا أمام ضمائرنا والجمهور أن نسعى في تحرير أولئك اللواتي لم يسعدهن الحظ فحرمن هذه المزايا وأن نقربهن منا ما أمكن ونضمن لهن في كل يوم نصيباً أوفر من النور والرفاهية.

وقد رأينا أخيراً انه يحسن بنا في هذا المقام أن نقتدي بالأمم الراقية ونخلد ذكر أصحاب المبرات من أبناء هذه الامة سيدات كن أو رجالاً بأن ننقش أسماءهم بماء الذهب على ألواح من الرخام توضع خصيصاً بمدخل الكلية

وبقاعة الاحتفالات بها فتبقى ذكراً طيباً وأثراً جميلاً وموضع اعجاب واكرام مابقيت الكلية وانتفع أبناء الاجيال المقبلة بآثار التربية الراقية .

وقد قابلت لجنة الكلية. هذا الاقتراح بمزيد الارتياح وصادقت عليه باجماع الآراء وعهدت الى كاتب هذه السطور إعلان هذا القرار للجمهور .

أما الشروط التي قبلت بها لجنة الكلية هذا الاقتراح فهي : —

أولاً — أن لاتقل قيمة التبرع من مال أو عقار عن الخمسمائة جنيه .

ثانياً — اذا كان موضوع الهبة عقاراً فيجب أن يكون خالياً من الرهن وغيره من حقوق الغير وأن يوقف في الحال على الكلية بصفة رسمية .

ثالثاً — اذا كان موضوع الهبة مالاً فيجب دفع نصف المبلغ على الاقل قبل نهاية هذه السنة والنصف الآخر قبل سنة ١٩١٣ .

ويرى القارئ أن مثل هذه الهبات ليست بالشيء الكثير في جانب المزايا التي تعود من انجاز المشروع على مجموع الامة وأصحاب اليسار أنفسهم وأولادهم وأولاد أولادهم من بعدهم . إن الذي يبلغ صافي دخله الفي جنيه في السنة أو يملك ثلثمائة فدان على الاقل في هذه البلاد السعيدة لايصعب عليه إذا كان من أصحاب الغيرة ومحبي الخير أن يهب الكلية ثلاثة أفدنة من أطيانه الجيدة أو مبلغ خمسمائة جنيه على دفعتين مرة في العمر .

إن الأغنياء وأصحاب الاملاك الذين يدخلون تحت هذا القياس كثيرون بين الأقباط ولا أبالغ اذا قلت إنهم يعدون بالمئات وإن قيمة التبرع المطلوب لايعد شيئاً في جانب ثروتهم ولا يؤثر في ماليتهم تأثيراً يذكر . ونحن لو ظفرنا باسترضاء خمسة في المائة من الموسرين الذين نقصدهم لتوفر لدينا في الحال المال اللازم لبناء الكلية. على اني واثق بغيرة أبناء الأمة على وجه العموم

وموقن بالفوز التام فى هذا السبيل إن شاء الله .

ولهذا فأنا أقصر الآن على بسط الاقتراح على صفحات الجرائدحتى اذا تناولتـه الأقلام واشتغلت به الأفـكار وأهيل السراة والاعيان للتبرع من تلقاء أنفسهم أعلنتُ النتيجة على الجمهور. ووفيت كل كريم حقه من الثناء والاطراء. وإلااذا لاحظت أن الفكرة لم تنضج بعد أعدت الـكرة في شهر سبتمبر ببيان أجلى ربمـا تحمر له بعض الوجوه. وها أنا مشـتغل من الآن بتحضير أسماء الاقباط الذين تسمح لهم ثروتهم بالتبرع بالقيمةالسابق ذكرها اذا أرادوا أن يخلد ذكرهم فى سـجل المبرات. ويقرن اسمهم بمن يمتاز بين قومه بعـمل المـكرمات. أما الذين يمكنهم أن يتبرعوا بأكثر من ذلك فلي بشأنهم اقتراح آخر أرجئه الى فرصة أخرى. والله يهدي من يشاء الى سواء السبيل.

الحق يقال (١)

ولو أوجع

اذا كان في تعضيد المشروعات النافعة مايطلق الألسنة بالشكر والثناء ففي المقاله التي خطها يراع توفيق افنـدي حنين أول أمس عن كلية البنات ما أوجب الاعجاب والاطراء . . وقد ظن بعضهم أن فى ماوجهـه حضرة الـكاتب في مقالته للاغنياء غلواً وشدة. وكان الأولى به أن يخاطبهـم بالرقة والاستعطاف. على أن الذى يتصفح تلك المقالة الرائعة ويمعن النظر في عباراتها الشائقة لا يلبث أن يعـترف بحسن نية كاتبها المفضال وميله الشريف الى تعضيد هذا المشروع الجليل .

---

(١) نشرت بجريدة مصر بامضاء « رفس » على أثر المنافسات التي دارت فى الجرائد بخصوص المقالة السابقة .

ومجمل ماقال توفيق افندي أن مشروع كلية البنات الذي قام الف دليل على وجوب انجازه خليق بمساعدة الاغنياء والمثرين من الاقباط لانهم لما رزقوه من المال أولى بتعضيده من جمهور الموظفين وأفراد الطبقة الوسطى وبقية الفقراء والمساكين. وهو قول ملوءه الصراحة وأساسه الاخلاص وليس فيه شيء يدعو الى التشكوى أو يوجب أقل تذمر اللهم إلاّ اذا كان في بسط الحقيقة وهي مرة في بعض الاحيان مايؤلم إحساسات الذين أحجموا الى الآن عن البذل لمساعدة المشروع لاعذار ما أنزل الله بها من سلطان. وكأنى بمن لم ترق في أعينهم صراحة توفيق افندي يحاولون إخفاء الحقيقة عن الجمهور. وهذا خطأ بين وعيب واضح يلزم ان نجتنبه اذا كان لنا أمل في النجاح

إن الحقيقة التي يجب اعلانها أن المال الذي جمع الآن تبرع به عدد معلوم من الأعيان والموظفين والسيدات. أما الأغنياء الذين خصهم الله بوفرة المال وسعة الثروة فلم يتنازلوا الى هذه الساعة من سماء مجدهم لمد يد المساعدة الى المشروع وهم في كل يوم ينتحلون أسباباً تافهة وأعذاراً واهية.

وإذا كنت في شك مما أقول فهاهي أسماء المتبرعين منشورة أمامك على صفحات الجرائد قلبها كيف شئت وايقن انك لاتجد شيئاً يذكر لاصحابنا الاغنياء وغاية ما نعرفه عن سخائهم في هذا المشروع أن بعضهم وهو يعد على الاصابع اكتتب بمبالغ لا تزيد عن الاربعمائة جنيه. ولكن اغلبهم لم يدفع شيئاً الى الآن. واعتقادى انه سواء دفعت هذه المبالغ أو لم تدفع فالمشروع لا بد من تحقيقه بفضل الله وتعضيد الغيورين من افراد الامة. وماهذه المبالغ واضعافها بشيء يذكر في جانب ثروة الموسرين ونفقات المشروع. فلو اقتدى اغنياؤنا بامثالهم من مواطنينا الكرام كالاسرائيليين والارمن وهزتهم الاريحية

القوميه لعمل ما يجب عليهم لرقي أمتهم لما عجز الواحد منهم عن القيام وحده بيناء كلية بل كليات . ولعل لاصحابنا تدبيراً خفياً لمساعدة المشروع سيفاجئوننا به يوماً من الأيام كأن يهبوا للكلية شيئاً من ممتلكاتهم أو يخصصوا مبلغاً سنوياً من دخلهم الواسع كما يفعل الكرام فى مثل هذه المواقع . والاّ فباب التبرع العادى ما زال مفتوحاً وما على الذين يؤلمهم مثل كلام توفيق افندي حنين الا أن يبرهنوا على غيرتهم واحساساتهم ورقة عواطفهم

نحن لا نعتبر الغني ولا نحترم المثري إلا بقدر ما يعمل لفائدة الانسانية ويجود به من ماله لارتقاء أبناء جنسه إذ لا نفع لنا من غني تنقبض يده وقت الدعوة الى البذل ويدير عنا وجهه وقت الحاجة الى المال. ولئن أوصى توفيق افندى حنين أفراد الامه بالاعتماد على أنفسهم وصرف النظر عن هبات الاغنياء فما ذلك إلا لعلمه أن الامه فقيرة بأغنيائها غنيه بأفرادها الغيورين .

هذا هو الحق فليهدأ روع الساكنين وليبرهن كل حر صدق قوميته ولتجتمع القلوب على تحصيل الغايه. وليخلص الكل فى العمل. ولكن شكوانا من عدم توفر هذه الصفات فينا لا من مخلص قام ليدلنا على مواضع الضعف وينبهنا لقضاء الواجب علينا

ايها اليق (١)

(بالأغنياء)

الحث والاستنهاض أو التوسل والاستعطاف

وكل يدعى وصلاً بليلى　　　وليلى لا تقر لهم بذاك

كثر الكلام فى هذه الايام عن حطه الاغنياء بازاء مشروع كلية البنات

(١) نشرت بجريدة مصر ايضاً فى المدة ذاتها سوقيع «مشروع كلية البنات»

واتفقت الآراء على أن مساعدة اصحابنا واجبة على كل حال. ولكنهم اختلفوا في طريقة الاستدرار فذهب فريق الى ضرورة الحث والاستنهاض كما يحصل في البلاد الراقيه وقال آخر إن الاغنياء فى هذه البلاد غيرهم فى الآخرى فلا تحثوهم ولا تستنهضوهم بل تقدموا اليهم بكل خضوع وخشوع وتوسلوا اليهم واستعطفوهم حتى يشفقوا على المشروع ويحنوا اليه فتنبسط الايدى المقبوضة وتفتح الخزائن المقفلة وتنهال الاموال من كل جهة ونفرج هذه الكربة

أما انا فاعتقادي أن الاغنياء وهم لم يتنازلوا بعد من سماء مجدهم ولم يحركوا ساكناً الى الآن غير راضين عن ابة الطريقتين وانهم ميالون بطبيعتهم الى المبرات فالميل الى فعل الخير خلة كامنة في صدورهم لا تلبث أن تحرك من تلقاء نفسها وتظهر فى الوجود على غير انتظار والحقيقة أنهم فى غنى عن الحث والاستنهاض كما أنهم يعافون التوسل والاستعطاف . فاذا صح ذلك وأرجو أن يكون صحيحاً كان الفريقان المتناظران فى أمر الاغنياء مخطئين وكنت انا الرابح والسلام . . .

المورد العذب (١)

(كثير الزحام)

إذا كانت السنة الخلق اقلام الحق فالجرائد الصادقة مرآة الرأي العام وترجمان أميال الجمهور بلا جدال وما سمعت بامر اهتم له الجمهور وأوسعت له الجرائد اعمدتها وتسابق الادباء للكلام عليه وابداء نافع الآراء بشأنه اكثر من اهتمامهم بمشروع كلية البنات فى هذه الايام فلا اقرأ صحيفة ولا التقي

(١) نشرت بجريدة مصر فى ١٥ إكتوبر سنة ١٩١٢

صديق أو اعود خلاً أو أجلس في ناد أواحضر حفلة أو اسافر في قطار الاّ ويأتي ذكر المشروع الخطير ويحلو الكلام ويلذ الحديث. ولاعجب اذا أجمعت عليه كل الاراء وحامت حوله جميع الأفكار فمزاياه ظاهرة . والمنهل العذب كما يقال كثير الزحام

كنا نتوهم في بدء هذه السنة أن المشروع كبير جسيم لا قدرة لنا نحن الاقباط على انجاز مثله في قريب الايام لما يقتضيه من النفقات الطائلة التي يقل في جانبها كرم اغنيائنا وسخاء أصحاب اليسار منا. وكانت هذه الصعوبة تتجسم أمامنا وتكبر في اعيننا كلما اختلفت اراؤنا وتفرقت كلمتنا في هذا الموضوع . أما وقد تناولته الصحف وأبانت النفع منه للعيان فلم يبق واحد من الاقباط الا ويعتقد الآن أن انجاز المشروع أصبح ضربة لازب وابرازه الى حيز الوجود صار محتماً على كل حال. وقد دلت الحوادث الاخيرة على أن الامة القبطية عن بكرة أبيها على تمام الوفاق بهذا الشأن فبرهن رجال الدين وفي مقدمتهم غبطة البطريرك المعظم على شريف عواطفهم نحو المشروع واستعدادهم لتعضيده في الحال والاستقبال. وناهيك بالشوط البعيد الذي جرته السيدات في ميدان التبرع والجود وما أظهره الموظف الكبير والصانع الصغير من الغيرة والاهتمام مما نسطره للجميع بالاعجاب ونذكره بالشكر على ممر الايام وقد ذللنا بهذا الاتحاد المبارك اكبر العقبات وأصبحنا ولا هم لنا الا جمع بقية المال والشروع في البناء . وقد ظننا حيناً أن اغنياءنا الكرام يضنون بمالهم في هذا السبيل ولكن كثيرين منهم قد اظهروا في المدة الاخيرة من العواطف والاميال ما أخلف الظنون ودل على ان في السويداء رجالاً يركن اليهم عند الحاجة ويعتمد عليهم وقت اللزوم. وما كانت غيرة اعيان وسراة الوجه القبلي التي بدت

بوادرها في مدينتي الفيوم والمنيا لتقف عندهذا الحد. وما كان اعيان المديرٌ
الاخرى ليرضوا بالبقاء بعيدين عن الاشتراك في هذا العمل الجليل وسم
من قديم الزمان اليد الطولى في أنفع المشروعات. والهمم العالية في انجاز أكبر
المهام. والسعي المشكور في ابر الاعمال. فقد نادانا صوت من الصعيد ودعانا
داعي الخير لتناول اكبر الهبات. فعولنا على الحج قريباً الى كعبة اولئك الكرام.
لنستمد من جودهم خير المبرات. ونستجدي من وافر مالهم عظيم المكرمات.
وما هي الا ايام معدودات حتى أوتيك بالخبر اليقين وانبئك بما يفعل صفوة
القوم الخيرّين[1]. اما الذين انقبضت ايديهم عن البذل لهذا المشروع ولم يسمع
لهم صوت الى الآن فربما كان لهم عذر ونحن نلوم. اما اذا كان الاحجام لغير
عذر فلا يكون ذلك عجيباً ولا خاصاً بامة شرقية أوغربية. من ذلك ما قرأته
عن موسر روسي حط رحاله باحدى مدن الحمامات المشهورة بجمال موقعها
ورفعة تمدنها ورفة ساكنيها. وقد اتفق أن اقيمت هناك سوق احسان لعمل
خيري عظيم. فطاف صاحبنا على حوانيت البيع يتأمل ذات اليمين وذات الشمال
ويمتع الطرف بجمال الاشياء المعروضة. فالتفت حوله البائعات الظريفات واخذن
يحيينه ويبالغن في اكرامه على أمل أن يلين صاحبنا فيبتاع الشيء الكثير. ولكن
ساء فألهن كما يستدل من الحديث الآتي نقلاً عن احدى المجلات الافرنسية

البائعة الحسناء — هل لك ياسيدي أن تشتري هذا الكراس الصغير
وهو يصلح لاخذ المذكرات

الموسر الروسي — اشكرك ياسيدتي فاني والحمد لله قوي الذاكرة ولا

(١) يعني بذلك سراة اسيوط ووجهائها

احتاج لاخذ مذكرات

البائعة الحسناء — ربما كنت ياسيدي في حاجة الى هذا القلم المليح ..

الموسر الروسي — أشكرك ياسيدتى ولكن لم أعتد التحبير والتسطير

البائعة الحسناء — ألاحسن إذن ياسيدي أن تشتري هذه العلبة وفيها من أنواع الحلوى ما تشتهيه النفوس

الموسر الروسي — أشكرك ياسيدتى ولكن الطبيب قد نهى عن أكل الحلوى وشرب المر . . .

البائعة الحسناء — كنت أود ياسيدي أن أقدم لك صندوقاً من الصابون المسك ولكني أخشي أن تكون معتاداً على عدم الاغتسال . . . . (اه)

فضحك الحاضرون كثيراً لما بدا من هذه الحسناء. أما صاحبنا فلم يستطع صبراً على البقاء. واختفى في الحال من المكان

يؤخذ من هذه الحادثة أن امتناع البعض عن الاشتراك في الاعمال الطيبة ليس خاصاً بامة دون أخرى بل يقع في جميع البلاد على السواء . ولكنه ليس بالشيء الذي تعلق عليه أهمية أو يحسب له حساب خصوصاً في أمة كالامة القبطية يعد فيها الموسرون بالعشرات. وعلى كل حال فقد أخذ المشروع بالقلوب وأصبح كالمورد العذب كثير الزحام فلتطمئن الخواطر. وليهدأ روع الآنسات فالامة غنية بالقوم الكرام . وقطر الندى قريب الهطول والسلام .



رثاء الفقيد

أقيمت حفلتان لرثاء صاحب الترجمة احداهما بكنيسة الاقباط الكبرى في ١١ ديسمبر سنة ١٩١٤ أقامها حضرات موظفي هندسة السكة الحديد. ورثاه فيها جناب المسيو عيزنستين وكيل باشمهندس السكة الحديد وصاحبا العزة العالم المفضال وهبي بك ناظر المدارس القبطية ومفتشها العام والاستاذ مرقس بك حنا المحامي. وألقى فيها الشاعر الفاضل حضرة اسكندر افندي قزمان مرثيته البليغة.

والحفلة الثانية أقيمت بدار جمعية التوفيق القبطية . وقد ذكر من قبل أسماء حضرات المؤبنين فيها (ص ٣٣) .

ولما كان المقام يضيق بنا عن نشر المرثيات المختلفة . فنعتذر لأربابها ونقدم لحضراتهم خالص الشكر ونكتفي بايراد المراثي النظمية الآتية :

الراحلون هداتها وكرامها

(للشاعر البليغ اسكندر افندى قزمان)

تبكي الشبيبة قد أصيب امامها ... وتنكست لمصابه أعلامها
ان مات معه نشاطها فكما وهى ... عزم الجنود إذا قضى مقدامها
سل فنية التوفيق كيف توفقت ... في عهده وتحققت أحلامها
سل خدنه المنصور كيف أنابه ... فرحاً فأصبح في يديه زمامها
تبكي الفتاة تعاق عن كلية ... قامت بمسعاه الحثيث دعامها
فعسى بتم مشاركوه الغرّ فكر ... ته فيحيى ذكره إتمامها

* * *

تبكي الأسيفة أمة الأقباط قد ... ثكلته وهو نصيرها وغلامها
بوفاته فقدت بوادر فكرة ... حوت السداد يزينه أقدامها
آماله انقطعت نهار وفاته ... وبذى الوفاة تواصلت آلامها
ما تلك أول نكبة نكبت بها ... ولئن تلظى في القلوب ضرامها

فكم ابتلتها النائبات بمثلها   كم مثله أخنى عليه حمامها
أسفاً عليها أمة كم فوجئت   برحيل نفس يستحب مقامها
فلكم لها كسفت شموس قبله   واليوم أغمد في التراب حسامها
فابكوا لها فالفاطنون نعاتها   والراحلون هداتها وكرامها

* * *

أعطية تبكيك كل مهمة   في يوم تبدأها يلوح ختامها
كم حاجة مست نخضت غمارها   عوصاء عزّ على سواك مرامها
فغدا يراعك كاتباً وغدا لسا   نك خاطباً حتى استتب نظامها
لك حببت راح العلى والنفس ان   ثملت بهذي الراح زاد هيامها
فجهدت نفسك دائباً في حبها   حتى عراك من النكاة عقامها
فنوجعت مصر لنعيك شيبها   وشبابها وعفاتها وعظامها

* * *

أكذا يغيب البدر ليل تمامه   ويصاد من أحيائها ضرغامها
وهل السما تهوي كذا أجرامها   والارض تهبط فى الثرى أعلامها
شمس الضحى التثمت لمنعاه وكا   ن سبيلها أن لا يماط لثامها
لا تعجبوا ان السما قد أظلمت   بل فاعجبوا أن لا يدوم ظلامها
تباً لذي الدنيا فحقاً انها   آل تساوى ريها وأوامها
فيها الالوف من الورى كم بينهم   عطلاً نطول حياته فيسامها
هلا استخارت منهم أوفارتضت   ان تفتديه بنا فسنر ذامها

* * *

يامبكياً عين الرئاسة بعده   وله عنا بعد الجموح سنامها
من للرئاسة يوم تعترك الشؤو   ن وبالكياسة يرجى ابرامها
يا آسراً مهج الذين رأستهم   بمكارم يحلو لهم اكرامها
من ذا يقود الى الصواب يراعهم   كيلا تطيش من القسي سهامها
الا نصائحك التي اعتصموا بها   وجرت على سنن الهدى أحكامها
أنعم بها ما استخدمت في مطلب   الا انتهى بنجاحه استخدامها
فارحل كما رحل الربيع مخلفاً   خدماً يفوح مدى الزمان خزامها
ولكم أطالت عمر غض راحل   ذكرى رضى لا تنقضي أعوامها

مرثية

(سليمان افندي زكي ناظر مدارس النوفيق)

بكينا وأبكانا فقيد العلا وهبي ... عسى الدمع يستولي على الوقد بالقلب
بكينا وفي بعض البكاء دلالة ... على الشوق للاحباب والصدق في الحب
فهل حجب البدرَ الذي غاب منزل ... وعهدي بأن البدر يحجب بالسحب
«عطية وهبي» كان بدراً لدى السنا ... وكان فراتاً ساعة الورد والشربْ
وكان حساماً هاجر الغمد قاطعاً ... فلا شر من عادٍ ولا خوف من خطب
وكان رئيساً حازم الرأى عادلاً ... يعامل مرءوسيه في العدل كالصحب
فلا بدع لو نرثي ونبكي مغيبه ... وموقفه المشهود باللؤلؤ الرّطب
سننقل آثاراً له عنبرية ... وينقلها الراوون ركباً الى ركب
فكلية لاجل البنات أقامها ... بشارع عباسٍ على الخير والرحب
وجمعية النوفيق كم زان أفقها ... كما زانها باقي البدور من النُجب
وكم برّ من عانٍ يؤمل برّه ... وللبر أحلى خلة العجم والعُرب
فسبحان من نفنى وتبقى عبيده ... ولله فانٍ راح في رحمة الرب

في ذمة الله

(للكاتب الفاضل فريد افندى كامل)

رضينا حكمة الخلاق فينا ... يعيش المرء في الدنيا سنينا
وقد كتب القضاء له المنونا ... ففي طي الثرى يمسى دفينا
وتلقى روحه وجه القدير

مقام ثم يتلوه ارتحال ... وعمر المرء بينهما خيال
كزهر الحقل يكسوه الجمال ... سويعات ويعروه الزوال
ويمسى ذابل الوجه النضير

رمتنا في الوفاء يد المنيـه وأحمت ذات قلب العبقريه
فاحسسنا بضربتها القوية غداة نعى النعاة لنا عطيه
أبيّ النفس ذا القلب الـكبير

تنزه فوه عن ختل وخبّ وأصلت للئام لسان عضب
وبالاخلاص ابدى كل حب لصاحبه فأصفى كل قلب
له وداً كما[1] عذب نمير

لعهدك يا عطية قد رعينا واحياء لذكرك قد أتينا
وان نفعل فلم نك قد وفينا ببعض الود والاخلاص دينا
وهل لك في وفائك من نظير

نعيدك أن تصير الى فناء وانت خلقت قدماً للبقاء
وقد ابقيت ذكرك بالثناء فنلت الخلد : تاج الاصفياء
فـكن في ذمة الله الغفور

(١) مخففة عن ماء

فهرست

صحيفة

صحيفة

﴿ الصور ﴾

توجد بعض غلطات مطبعية لا تخفى على القارئ